

خير الأنام وصحبه الكرام

الجزء الثالث

حياة الصَّحْبِ الكرام

تأليف:

د. حسن عشاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

توزيع مؤسسة الأهرام



الإدارة العامة للتوزيع

ت: ٢٧٧٠٤٢١٣ - ٢٧٧٠٣١٩٥

إهداء

إلى مَنْ علَّمَنِي حَبَّ العطاء، وحبَّ الإيثار على النَّفس، حتى
ولو كنتُ لا أملكُ له إلا القليل، رحمه الله؛ والدي.
وإلى مَنْ علَّمَتَنِي أصولَ ديني، وكيف أوْدِي فروضي إلى الله، بل
وكيف أَحَبُّ أن أكون عبدًا لله، رحمها الله؛ والدي.
اللهمَّ ربَّ ارحمهما كما ربَّياني صغيرًا.
وإلى مَنْ كانت لي عونًا وداعمًا في كلِّ ما أقوم به من أعمالٍ لخدمة
ديني، وفي إخراج هذا العمل المتواضع؛ إلى زوجتي العزيزة.
د. حسن عشاوي

مقدمة فضيلة مفتي دولة زيمبابوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله، سيِّدنا ومولانا محمَّد، وعلى آله وصحبه الكرام.

إنَّه لَمِنْ دَوَاعِي سُورِنَا وسَعَادَتِنَا أَنْ نَرَى ثَمَارَ الْجُهْدِ الْمَبذُولِ مِنْ صَدِيقِنَا الْعَزِيزِ وَأَخِينَا الْأَكْبَرِ، الدُّكْتُورِ حَسَنِ عَشَاوِي، تَصَدَّرُ الْآنَ فِي صُورَةِ كِتَابٍ "خَيْرُ الْأُنَامِ وَصَحْبُهُ الْكِرَامُ"، بَعْدَ عُقُودٍ مِنَ الْعَمَلِ الْمَخْلِصِ وَالذُّؤُوبِ لِلتَّعْرِيفِ بِالتَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ، بَدَأًا مِنَ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْعَطْرَةِ.

فَقَدْ قَامَ الدُّكْتُورُ حَسَنُ عَشَاوِي بِإِلْقَاءِ الْعَدِيدِ مِنَ الْمَحَاضِرَاتِ فِي مَسَاجِدَ مُخْتَلِفَةٍ بِالْبِلَادِ، وَتَمَّ تَسْجِيلُهَا وَتَوْزِيعُهَا عَلَى نَفَقَتِهِ الْخَاصَّةِ، وَقَدْ لَاقَتْ هَذِهِ التَّسْجِيلَاتُ إِقْبَالَاً كَبِيراً وَاسْتِحْسَاناً مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِدَوْلَةِ زِيمْبَابُوِي وَبِلَادِ الْمِحِيطَةِ بِهَا؛ فِي زَامْبِيَا وَبُوتْسْوَانَا وَجَنُوبِ أَفْرِيْقِيَا... وَغَيْرِهَا، وَلَا تَزَالُ تُلَاقِي إِقْبَالَاً كَبِيراً.

وَهَا نَحْنُ الْيَوْمَ نَرَى هَذَا الْعَمَلَ يَظْهَرُ فِي صُورَةِ كِتَابٍ "خَيْرُ الْأُنَامِ وَصَحْبُهُ الْكِرَامُ"؛ فَهَذَا فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ وَمَنَّةٌ، وَعَلَامَةٌ مِنْ عِلْمَاتِ الْقَبُولِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَقَدْ قَامَ الدُّكْتُورُ حَسَنُ عَشَاوِي بِهَذَا الْجُهْدِ وَتِلْكَ التَّضَحِيَّاتِ إِلَى جَانِبِ عَمَلِهِ كَطَبِيبٍ وَجِرَّاحٍ، وَمَا قَامَ بِهِ مِنْ جُهْدٍ مُشْكُورٍ لِمُسَاعَدَةِ أُنْبَاءِ وَطَنِنَا فِي زِيمْبَابُوِي، وَفِي هَذَا الصَّدَدِ أَسَّسَ الْجَمْعِيَّةَ الطَّبِيبِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِدَوْلَةِ زِيمْبَابُوِي، وَالتِّي تُعْنَى بِمُسَاعَدَةِ الْفُقَرَاءِ وَالمُحْتَاجِينَ وَعِلَاجِهِمْ بِالمَجَّانِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ أَصْبَحَ لَهَا فُرُوعٌ فِي

معظم محافظات البلاد.

فنسأل الله تعالى أن يحفظ أخانا الدكتور حسن عشاوي، وأن يجزيه خيرًا على ما قام به من جهد وعمل مُضِنٍ لخدمة الإسلام والمسلمين، وإِنِّي لَعَلِّي يَقِينٌ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ سَيَكُونُ فِيهِ الْفَائِدَةُ وَالنَّفْعُ الْعَظِيمُ لَنَا جَمِيعًا، لَعَلَّ اللَّهَ يَقْبَلُ هَذَا الْجُهْدَ، وَيَكْتُبُ لَهُ الْإِسْتِمْرَارَ؛ آمِينَ.

الشيخ / إسماعيل موسى منك

مفتي دولة زيمبابوي

الجمعة ٢٦ شعبان ١٤٣٤هـ - الموافق ٥ يوليه ٢٠١٣م

مقدمة الجزء الثالث

إنَّ الحمد لله؛ الواحد الأحد الفرد الصمد؛ حمداً يليق بعظمة سلطانه وبهاء جلاله، والصلاة والسلام على خير الأنام؛ سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعدُ: فبفضلٍ من الله ونعمةٍ تم إصدار الجزأين الأول والثاني من هذا الكتاب «حياة خير الأنام»، و«حياة العشرة المبشرين بالجنة»، وها هو الجزء الثالث «حياة الصحب الكرام» من سلسلة «خير الأنام وصحبه الكرام»، يخرج إلى النور بعد إقبال القراء على الجزأين السابقين.

وقد منَّ الله عليَّ بأن قمتُ بإلقاء محاضرات عديدة تناولت سيرة الصحب الكرام - كما فعلنا في سيرة خير الأنام ﷺ وسيرة العشرة المبشرين بالجنة -، وقد شملت هذه المحاضرات جميع مساجد مدينة بولاوايو بدولة زيمبابوي، وتم تسجيلها وتوزيعها في زيمبابوي والدول المحيطة بها، وبحمد الله وبفضله لاقت استحساناً كبيراً من الناس.

واستكمالاً لهذه السلسلة المباركة سنحاول عبر صفحات هذا الكتاب أن نقرب أكثر من هؤلاء «الصحب الكرام»؛ الذين اختارهم الله ﷺ ليكونوا في صحبة خير الأنام ﷺ.

فلما كان من الصعب أن نغطِّي في هذا الكتاب حياة هؤلاء الأعلام جميعاً،

فكان علينا الاختيار فيما بينهم، ولكنه كان اختياراً صعباً؛ لأنك وسط
 بستان كبير عامر بالزهور والرياحين وحلو الشار؛ فهذا لونه زاهر، وذاك
 رائحته عطرة، وآخر حلو المذاق، ومن هنا جاءت صعوبة الاختيار.
 فحاولنا قدر المستطاع أن نأخذ من كل بستان زهرة - كما يُقال -، وإن كنا لم
 نستطع أن نغطي كل صحابة رسول الله ﷺ، فهم جميعاً - من ذكرنا في هذا
 الكتاب ومن لم نذكر - على نفس النهج؛ أخلاقاً، وورعاً، وتقوى لله تعالى؛
 فكلهم من رسول الله ﷺ مُقْتَبِس.

فنسأل الله العليَّ القدير أن يتقبَّلَ مِنَّا هذا الجهد المتواضع، إنه وليُّ ذلك
 والقادر عليه.

د. حسن عشاوي

الهدف من سرد سيرة الصحابة

لسنا بصدد كتابة وسرد قصص للتسلية، ولكن هناك أهداف هامة لهذا العمل، منها:

١ - القدوة:

إنَّ الأُمَّة تعيش هذه الأيام حالةً من التخبُّط والشتات، فما أحوَجنا الآن إلى أن نجد مَنْ يكونُ لنا قدوة ومثالاً يُتذى به! فإنَّك إن أردتَ أن تتعلَّم السِّباحة، أو الطَّب، أو الهندسة، أو الرسم، أو أيًّا من مَناحي الحياة - فإنَّك دائماً ما تبحث عن الأفضل في هذا المجال أو ذاك؛ ليكون لك مُعلِّماً ودليلاً. ومَنْ يكون لنا معلِّماً ودليلاً خيراً من هؤلاء الذين تعلَّموا وتربَّوا وتخرجوا في مدرسة الحبيب المصطفى ﷺ؟! فهي أعلى وأرقى مدرسة عرفها التاريخ، وعرفتها البشرية.

فهم كما قال حبيبي ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» أخرجه البخاري ومسلم.

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: "يأتي زمان يغزو فئام من الناس، فيقال: فيكم من صحب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح عليه، ثم يأتي زمان، فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي ﷺ؟"

فيقال: نعم، فيفتح، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب صاحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح".
 ففيهم القدوة التي علينا أن نحتدي بها في كلِّ مناحي الحياة؛ وهذا هو السبيل الوحيد لرفقي هذه الأمة، ونشر صحيح الإسلام.

٢ - حب الصحابة:

أردنا من هذا العمل أن نصنع حالة من الحبِّ والعشق لهؤلاء الصحابة؛ لعلَّ الله ﷻ أن يحشرنا معهم. كما قال حبيبي ﷺ: «يُحْشَرُ الْمَرْءُ مَعَ مَنْ يُحِبُّ».

فنسأل الله أن يرزقنا حبَّهم، وحبَّ من يحبهم، وأن يجعلنا على خُطاهم، ويحشرنا معهم؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه.

مَنْ هُوَ الصَّحَابِي؟

أجمع العلماء على تعريف الصَّحَابِي بأنه: " كل مَنْ لقي رسولَ الله ﷺ في حياته وهو مسلم، وعاش ومات على إسلامه".
 فكثير من النَّاس شاهد رسولَ الله ﷺ في حياته، ولكنه لم يُسَلِّمْ، وبعضهم أسلم، ولكنه ارتدَّ عن الإسلام، فلا يُلقَّب بالصَّحَابِي.
 ولنا أن نُنَوِّه في هذا المقام على أن هذا التعريف كما ينطبق على الرِّجَال من الصَّحَابَةِ، فإنه ينطبق كذلك على النِّسَاء من الصحابيات.

فضائل الصَّحَابَةِ

إنَّ لصحابة رسول الله ﷺ من الفضائل ما لا يُعدُّ ولا يُحصى، وسنحاول أن نُلخِّصها فيما يلي:

أولاً - تزكية الله ﷻ:

لقد ذكر الله ﷻ صحابة رسول الله ﷺ وزكاهم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وقد جاء ذكرهم على ثلاثة أشكال:

١ - آيات تشير إلى عموم الصحابة وتزكيتهم، كما في قوله تعالى:

* { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } [الفتح: ٢٩].

* { لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيكَ هُمْ الْخَيْرَاتُ وَأَوْلِيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة: ٨٨، ٨٩].

وهناك العديد والعديد من الآيات والتي تزكي صحابة رسول الله ﷺ، قد لا يتسع المجال لذكرها جميعاً.

٢ - آيات تشير إلى مجموعة بعينها من الصحابة، كما في قوله ﷺ:

* { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا } [الفتح: ١٨]. وهي تشير إلى أهل بيعة الرضوان.

* { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا

عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا

[الأحزاب: ٢٢، ٢٣]، وهي تُشير إلى أهل الخندق "غزوة الأحزاب".

وهناك غيرها من الآيات تشير إلى أهل بدر، وحُنين... وغيرها من المشاهد.

٣ - آيات تشير إلى صحابي بعينه:

أ - بدون ذكر اسمه، كما في قوله تعالى:

* {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي

الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ

بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠]، إشارة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ب - بذكر اسمه:

وحدث ذلك مرّة واحدة في قوله تعالى:

* {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ

اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا

قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ

أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} [الأحزاب: ٣٧]، في

إشارة إلى زيد بن حارثة رضي الله عنه.

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا؟! فَأَيُّ فَضْلٍ وَأَيُّ شَرَفٍ أَعْلَىٰ مِنْ أَنْ يُذَكَرَ

الإنسان في كتاب يُتلى ويتعبَّد به إلى يوم الدِّين؟!!

ثانيًا - تزكية رسول الله ﷺ لصحابته:

وقد زكَّى رسولُ الله ﷺ أصحابه في كثير من الأحاديث، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ - قال رسولُ الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم» أخرجه البخاري ومسلم.

٢ - قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكم أنفقَ مثلَ أحد ذهبًا ما بلغَ مُدَّ أحدهم أو نصيفَه» أخرجه البخاري. (والمُدُّ: هو ضربٌ من المكيال؛ وهو رُبْع صاع).

والمعنى: أنَّه لا ينال أحدكم بإنفاقه مثل أحد ذهبًا - من الفضل والأجر - ما ينال أحدهم بإنفاق مُدٍّ من طعام أو نصيفه.

٣- قال رسولُ الله ﷺ: «اللَّهُ اللهُ في أصحابي! لا تتخذوهم غرَضًا من بعدي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحَبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِإِبْغِضِي أَبْغَضَهُمْ» رواه أحمد في المسند.

فهذه الأحاديث بَعْضُ من أحاديث كثيرة تزكِّي صحابة رسول الله ﷺ كافة، فضلًا عن كثير من الأحاديث التي زكَّى فيها رسولُ الله ﷺ كثيرًا من الصَّحابة بأعينهم، وسنأتي إلى ذكر ذلك في معرِض حديثنا عن كلِّ صحابي.

ثالثاً - ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "إنَّ الله نظرَ في قلوب العباد، فوجد قلبَ محمَّد صلى الله عليه وسلم خيرَ القلوب، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثمَّ نظر في قلوب العباد بعدَ قلبِ محمد صلى الله عليه وسلم، فوجدَ قلوبَ أصحابه خيرَ قلوب العباد، فجعلهم وزراءً نبيِّه يقاتلون على دينه"؛ (أخرجه أحمد في المسند).

رابعاً - مميزات صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

والسؤال الذي قد يطرح نفسه في هذا المقام هو: لماذا هذا التَّكْرِيمُ القرآني والنَّبوي لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
والإجابة تتلخَّص في الآتي:

فقد امتاز أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عمَّن سبَّهم من أتباع الرُّسل، ومَن لحقهم من أُمَّة الإسلام بمميِّزات متعدِّدة بلَّغوا فيها الدَّرجات العُلا، منها:

١ - الرِّبَانِيَّة

فقد كانوا موصولين بالله، قلوبهم متعلِّقة به وحده، يُحِبُّهم ويحبُّونه، يَشْتاقون إليه، فإذا دَعَوْه جعلوا ألسنتهم من وراء قلوبهم، وكانوا عند ذِكره خاشعين مطمئنِّين، وإذا قاموا بين يديه قاموا قيامَ الدَّلِيلِ الوَجِلِ.

٢ - المثالية

بلغ صحابته رسول الله ﷺ الدرّجة العليا في عباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم.

أ - فبلغوا من الخشوع درجة التفوّق، وذروة الإخلاص، فكانوا بحقّ كما وصفهم الله ﷻ: { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } [المائدة: ٨٣].

ب - كانت قلوبهم تلين، وجلودهم تقشعرُّ، وعيونهم تهطل بالدموع عند قراءة القرآن الكريم. وهاك بعض الأمثلة:

* كان صديق الأمة ﷺ كثير البكاء، وكان إذا بكى لا تُعرف قراءته من كثرة البكاء.

* وهذا هو الفاروق عمرُ ﷻ لما قرأ: { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ } [الطور: ٧، ٨] ظلَّ يبكي، واثابته حالة من الخوف لمدة عشرين يوماً.

* ولما نزلت آية: { أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ } [النجم: ٥٩، ٦٠] بكى أصحاب الصُّفَّة حتى جرت دموعهم على

خدودهم، فلما سمع رسول الله ﷺ صوت بكائهم بكى معهم.
ج - كانوا إذا أنزلت الآية يعملون بها ويطبِّقون شرعها فور سماعها،
والأمثلة كثيرة، سنعرض لها بالتفصيل إن شاء الله.

٣ - التوازن بين الدنيا والدين

حقَّق أصحابُ رسول الله ﷺ هذا التَّوَاظُنَ بدون إفراطٍ ولا تفريط.
وهذا أمرٌ ما أَحْوَجُنَا إليه هذه الأيام! فترى مِنَ النَّاسِ مَنْ أُغْرِقَ في أمور
الدين ونَسِيَ حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيَا، والعكس صحيح؛ فكثيرٌ مِنَ النَّاسِ أُغْرِقَ في
أمور الدُّنْيَا ونَسِيَ حَظَّهُ مِنَ الآخِرَةِ.
أما صحابة رسول الله ﷺ فقد حقَّقوا هذا التَّوَاظُنَ بين ما يَحْتَاجُهُ الجسد وما
تَحْتَاجُهُ الرُّوح.

والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها:

* إقبالهم على تَعَلُّمِ ما يَنْفَعُهُمْ وَيَسَاعِدُهُمْ في الحِياة؛ فهذا ابنُ الزُّبَيْرِ كان
يَتَكَلَّمُ بِأَكْثَرِ مِنْ لُغَةٍ "قيل: مائة لغة"، وهذا زيدُ بنُ ثابتٍ أَرْسَلَهُ رسولُ الله
ﷺ لِتَعَلُّمِ العِبْرِيَّةِ وَالسُّرْيَانِيَّةِ.

* كانوا يَجْمَعُونَ بين العلم (تَعَلُّمِ أمور دينهم) والكسب:

- فهذا عمر بن الخطَّاب يقول: "كنتُ أنا وجاري مِنَ الأَنْصَارِ نَتَّابِ
النُّزُولِ على رسول الله ﷺ؛ يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزَلَ يَوْمًا، فإذا نَزَلَتْ جِئْتُهُ بِخَبَرِ

ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نَزَلَ فَعَلَ ذلك"؛ أي: إنَّ أحدهما ينزل لرسول الله ﷺ يَسْمَعُ منه ويتعلَّم، والآخِرُ يذهب للعمل والكسب... وهكذا.

- وعن البراء رضي الله عنه قال: "ليس كلُّنا سَمِعَ رسولَ الله ﷺ؛ كانت لنا ضِيعَةٌ وأشغال، ولكن النَّاسَ كانوا لا يَكْذِبُونَ يومئذٍ، فيُحَدِّثُ الشَّاهِدُ الغَائِبَ"؛ (أخرجه أحمد).

* كثيرٌ من الصَّحابة، أمثالُ عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفَّان بلَّغُوا من النَّجَاحِ في تجارتهم ومن الغِنَى مَبْلَغَهُ، إلا أَنَّهُم جَعَلُوا الدُّنْيَا وَسِيلَةً ولم يَجْعَلُوهَا غَايَةً، فأخذوا منها ما يُصْلِحُ الجَسَدَ، وصيَّروا هَمَّهُم وهدفهم إلى الآخرة.

٤ - الشجاعة

تميَّز صحابة رسول الله ﷺ بالتضحية الفدَّة بالنفس والمال، وقد شهد تاريخهم شجاعة لم يُعَرَفْ لها نظير، وكانت دائماً ما تظهر وقت الشدَّة، ووقت الحاجة لها، والأمثلة على ذلك كثيرة، سنعرِّض لها بالتفصيل مع سرد سيرة كل صحابي.

٥ - العدالة

كانت العدالة جزءاً أصيلاً من شخصيَّة الصَّحابة، وقد عرَّفوا بها، وأقرَّها

الأعداء قبل الأصدقاء؛ ولهذا كانت لهم الغلبة والسيادة، "فالعدل أساس الملك"؛ كما يقال، والأمثلة كثيرة، سنعرض لها بالتفصيل في سرد سيرة كل صحابي.

٦ - الإنفاق والكرم

أحب أصحاب رسول الله ﷺ معالي الأمور ومكارم الأخلاق، فجادوا بأفضل ما يملكون، وأنفقوا خير ما يجدون، فكانوا يُنفقون مما يُحبون لينالوا البر؛ عملاً بقوله تعالى: **{ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ }** [آل عمران: ٩٢]، وقد يجود الواحد منهم بكل ما يملك، ولا يخشى من ذي العرش إقللاً.

وسنعرض بالتفصيل لكل هذه الأمثلة في معرض حديثنا عن كل صحابي.

٧ - الإيثار

لم يذكر التاريخ أحداً مات جوعاً في عصر الصحابة، وكيف يكون ذلك والله ﷻ قد أثنى عليهم بقوله: **{ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }** [الحشر: ٩]؟!

والأمثلة من حياة الصحابة كثيرة، سنعرض لها بالتفصيل إن شاء الله.

٨ - حب الصَّحابة لرسول الله ﷺ

تميّز صحابة رسول الله ﷺ - فوق كلِّ ما تقدّم، وقبل كلِّ ما تقدّم - بحبِّهم لرسول الله ﷺ؛ فكان حبُّهم له ﷺ حبًّا جمًّا، أكثر من حبهم لأولادهم وأموالهم وأنفسهم، فكانوا لا يتردّدون في بذل الغالي والنَّفيس فداءً لرسول الله ﷺ.

وقد ذكرنا في الجزء الأول "حياة خير الأنام" بعض الأمثلة من حبِّ صحابة رسول الله ﷺ له وحرصهم عليه؛ وذلك تصديقاً لقوله تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [الأحزاب: ٦].

وسنعرِّض لمزيد من الأمثلة في معرض حديثنا عن كلِّ صحابي إن شاء الله. فكان هذا أعزَّائي جزءاً يسيراً من صفاتٍ ومميزات كثيرة لصحابة رسول الله ﷺ، وقد أفردت لها كتبٌ ومجلدات يصعب حصرها في هذا المقام.. فكانوا بحقَّ أهلاً لتزكية الله ﷻ لهم، وتزكية رسول الله ﷺ لهم، وأن ينالوا هذا الشرف العظيم، أن اختارهم الله ﷻ ليكونوا في صحبة خير خلقه سيدنا محمد ﷺ.

قد يبدر للأذهان سؤال: هل لنا من الوصول إلى هذا المقام الرفيع في الرُّقي

والقرب من الله؟ أم أن هؤلاء الصحابة عاصروا رسول الله ﷺ وتلمذوا على يديه، فأنتى لنا اللحاق بهم؟! والإجابة: أن رسول الله ﷺ قال: «الخير فيّ وفي أمّتي إلى يوم القيامة»؛ أو كما قال، فالأمل موجود، والطريق إلى الله ممهد، والهداية والقدوة التي تُنير لنا الطريق مُيسرة، فعلىنا أن نُخلص النية إلى الله، ونسأله ﷻ أن ينير أبصارنا وبصائرنا؛ لتتبع الهدى والنور الذي منّ الله به علينا، فننعم بصحبة "خير الأنام وصحبه الكرام".

والآن أعزائي فلنستمع بصحبة هذه الكوكبة من «الصحب الكرام»، مع الصفحات التالية من هذا الكتاب.

خالد بن الوليد

وها نحن أعزائي على موعد مع رجلٍ رَفَعَ اللهُ به الهامات، وجعل به آيات الإسلام خفاقة عالية. قائد المجاهدين؛ سيف الله المسلول - كما نعته رسول الله ﷺ -؛ إنه «خالد بن الوليد» ﷺ الذي قال عنه أبو بكر الصديق ﷺ: "عجزت النساء أن يلدن مثل خالد".

نسبه

هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله المخزومي، وكُنِيته «أبو سُليمان».

قريش وبني مخزوم

كانت السلطات في قريش موزعة إلى ثلاث أقسام:

- السلطة الروحية، وكانت لبني هاشم.
- السلطة السياسية، وكانت لبني أمية.
- السلطة العسكرية، وكانت لبني مخزوم.

فمن بني مخزوم هؤلاء نشأ بطلنا «خالد بن الوليد»؛ فكانت نشأته في أعرق بطون قريش وأعلاها وأشرفها وأغناها، فلم يكن من أبوته أو عمومته إلا

رئيس ابن رئيس، لا تعلق مكانته أحد من رؤساء الجاهلية.

فهذا **جده المغيرة بن عبد الله**: كان الرجل من بني مخزوم يؤثر أن ينتسب إليه تشریفاً لقدره.

وكان **أبوه الوليد بن المغيرة**: الملقب بالعدل وبالوحيد؛ لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة، وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى.

وكان **عمه هشام بن المغيرة**: قائد بني مخزوم في حرب الفجار، وبوفاته حزنت عليه قريش حزناً عميقاً، ولم تُقَمَّ سوقاً بمكة ثلاثاً لحزنها عليه.

وكان **عمه الفاكه بن المغيرة**: من أكرم العرب في زمانه، وكان له بيت للضيافة يأوي إليه كل من شاء وبغير استئذان.

وكان **عمه أبو أمية بن المغيرة**: الملقب «بزاد الراكب»،؛ لأنه كان يكفي أصحابه في السفر مئونتهم فلا يتزودوا بزاد. وهو الذي فضَّ النزاع بين القبائل على شرف مَنْ سيضع الحجر الأسود في موضعه من الكعبة بعد إتمام بنائها. فقد أشار عليهم أن يكون الحُكْم إلى أول داخل من باب المسجد؛ ليختار من بينهم مَنْ يرفع الحجر إلى مكانه، فارتضوا بمشورته، وتم صواب المشورة بدخول رسول الله ﷺ عليهم، وأشار عليهم أن يضع رداءه ووضع الحجر في وسطه وأن تُعيَّن كل قبيلة فرداً منها في رفع الرداء وبه الحجر، فارتضوا بذلك.

وكان **عمه أبو حنيفة بن المغيرة**: أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبة - كما أسلفنا-.
وقد ظهر لبني مخزوم كثير من الفضل والرجاحة في مواقف عديدة. فقد اضطلعوا وحدهم ببناء ربع الكعبة بين الركنين الأسود واليمني، واشتركت قريش كلها في بناء بقية الأركان. وكانوا ينافسون بني هاشم وبني أمية، ولذلك أخذوا الأمر مأخذ الأنفة بينهم وبين بني هاشم حين ظهرت النبوة في هؤلاء ولم تظهر فيهم.

نشأته

نشأ خالد بن الوليد في أسرة عريقة -كما أسلفنا- وكان له من الإخوة الذكور سبعة، ومن الإناث أختان، وكان أبوه «الوليد بن المغيرة» من أغنى أبناء زمانه -كما أسلفنا- حتى قُدِّرَتْ ثروته بألف ألف (مليون) دينار.
وقد كان الوليد بن المغيرة من أصحاب الحيلة والإقدام، وفي ضربة من ضرباته في موقف اللبس والتردد نرى فيه أبا خالد قبل أن يعرف العالم ضربات خالد. وذلك يوم تداعت الكعبة وأوجس الناس أن يهدموها ليُعيدوا بناءها؛ توقيراً لحرمتها، وخوفاً من عواقب هدمها، وقد رأى كثيرٌ منهم ما حدث لأبرهة لما حاول هدم الكعبة.

فلما رأى الوليد وساوسهم وفزعهم تناول المِعْوَل وضرب الضربة الأولى بيده، وهو يقول: «اللهم لا نريد إلا الخير»، ومضى على أثره الناس ليُكملوا ما بدأه.

فعلى يد هذا الوالد نشأ خالد، وقد تعلم منه فنون القتل والفروسية والإقدام. وقد ظهر على خالد مخايل الفروسية منذ صباه الباكر، لذلك رشَّحه أبوه لقيادة الخيل وفرسانها، ولم يكن أكبر أبناءه. وهو ما يدل على استعداده للرئاسة والقيادة منذ صباه.

أما أمه فهي لُبابة بنت الحارث الهلالية، وهي أخت أم المؤمنين «ميمونة بنت الحارث» زوج رسول الله ﷺ.

عيش الشظف والخشونة

وعلى الرغم من الغنى والثراء الذي نشأ فيه خالد، إلا أنه تعودَ عيشة الشظف وراضَ نفسه على الخشونة، ليصبر على مصاعب الحرب وشدائد الجوع والظمأ إذا نفذ الزاد في معركة أو مُنازلة. وعليه كان مستعداً للخشونة، مستطيعاً لمعيشة الأعراب الجافة. ولكل ما يتكلفه المقاتل في أعنف الحروب.

وكان لخالد معرفة واسعة بالبادية العربية وما حولها لكثرة أسفاره قبل

الإسلام. ولعله عرف في تلك الأسفار دروبها التي كان يطرقها من العراق إلى الحجاز، ومن الحجاز إلى اليمن، ومن نجد إلى الشام، عندما أصبح قائداً لجيوش المسلمين.

وصفه

كان خالد بن الوليد طويلاً بائن الطول، وكان عظيم الجسم والهامة، مهيب الطلعة، يميل إلى البياض.

إسلامه

كان خالد بن الوليد فتى ناشئاً يوم ظهرت الدعوة المحمدية بالدين الجديد. فنفر منها كما نفر قومه أجمعون. وشهد قبل إسلامه كل المواقف ضد المسلمين عدا بدر؛ حيث كان خارج المدينة وقت المعركة.

درس من بدر

رغم عدم مشاركة خالد بالقتال في غزوة بدر، فقد وقع حدث أثر فيه وهز كيانه؛ فقد كان أخوه «الوليد بن الوليد» يقاتل في صفوف المشركين فأسره المسلمون وطلبوا أربعة آلاف درهم فديةً له، فلما تم فداؤه وذهب إلى أهله أعلن إسلامه بينهم وهم كارهون لأمره فسألوه: هلا أسلمت قبل أن تُفدى؟ فقال: كرهت أن يُظنَّ أني جزعت من الأسر. وصبر على تعذيب

قومه والنكايه به، حتى أفلت بعد جهد وحيلة ولحق برسول الله ﷺ مشياً على الأقدام. تركت هذه الحادثة في نفس خالد أثراً كبيراً، وقد بدأ يسأل نفسه: ما هو السر في هذا الدين الذي جعل أخاه هكذا يضحى بكل غالٍ ونفيسٍ؟ وإن كانت الإجابة لم تصله في حينها.. لكنها ستصله بعد حين.

يوم أحد

وفي يوم أحد كان خالد قائد ميمنة جيش المشركين، وتولى الهجمة التي مالت بكفة النصر من جانب المسلمين إلى جانب المشركين.. وذلك لما خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ، وتركوا أماكنهم لما بدأت بشائر النصر تلوح للمسلمين. فلما لمح خالد هذه الثغرة اهتبلها، ولم تُذهله الهزيمة المطبقة بقومه كما أذهلت الآخرين. فكَّر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبي جهل ودارت الدائرة على المسلمين. (للاستزادة من أخبار أحد، ارجع إلى الجزء الأول «حياة خير الأنام» للمؤلف).

يوم الخندق

وفي غزوة الخندق كان خالد يطوف بخيله حول الخندق، يلتمس مضيقاً يقتحم فيه الخيل، فأعياه ذلك، وكاد أن يصل مبتغاه لولا يقظة وقوة

المسلمين التي ردعت المشركين، وعادوا أدراجهم منهزمين.

يوم الحديبية: نفحات الإيمان تطرق الأبواب

ولما كان يوم الحديبية وخرج المسلمون للعمرة مسالمين، لا يحملون سلاحًا غير سلاح المسافر «السيف في القرب»، فأوجس المشركون خيفة أن يكون قدومهم إلى البيت الحرام للقتال لا للعمرة. فندبوا خالدًا في مائتي فارس للقائهم قبل بلوغ مكة، ودنا خالد حتى نظر إلى أصحاب رسول الله ﷺ. ولما حانت صلاة الظهر، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه، ولما حانت بعدها صلاة العصر صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف. وخالد ومن معه ينظرون ويترقبون، وهنا وقع في نفس خالد شيء.. وكأن نفحات الإيمان قد بدأت تطرق عقل وروح الفارس، فبعد أن همَّ أن يُغير عليهم وهم في صلاتهم، وقع في نفسه شيء وقال: «هذا رجل ممنوع».

نقطة التحول: انتصار العقل على العصبية

فلما انقضى العام وعاد رسول الله ﷺ وصحبه إلى البيت الحرام لأداء العمرة؛ «عمرة القضاء» حسب ما أقرَّوه في صلح الحديبية، ورأى خالد ما رأى من نصر الله لنبيه، وإخفاق المشركين في كل موقع وكل مُنازلة. فخلا

إلى نفسه واهتدى إلى دين الحق، وقال: «والله إن الرجل لرسول الله حقًا».. وكانت نقطة التحول التي انتصر فيها العقل على العصبية، وكانت نهاية لفترة الظلام وبداية لفترة النور والإيمان.. وكان إسلام خالد بن الوليد..

رحلة الإيمان: الهجرة من الضلال إلى النور

والآن أعزائي، فلنصغ إلى الفارس «خالد بن الوليد» وهو يروي مسيرته المباركة إلى رسول الله ﷺ.

يقول خالد بن الوليد رضي الله عنه: «لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ بِي مَا أَرَادَ مِنَ الْخَيْرِ، قَدَفَ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامَ، وَحَضَّرَنِي رُشْدِي، فَقُلْتُ: قَدْ شَهِدْتُ هَذِهِ الْمَوْطِنَ كُلَّهَا عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فَلَيْسَ فِي مَوْطِنٍ أَشْهَدُهُ إِلَّا أَنْصَرِفُ وَأَنَا أَرَى فِي نَفْسِي أَنِّي مَوْضِعٌ فِي غَيْرِ شَيْءٍ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا سَيُظْهِرُ، فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى الْخُدَيْبِيَّةِ خَرَجْتُ فِي خَيْلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَقَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي أَصْحَابِهِ بَعْضَانِ، فَقُمْتُ بِإِزَائِهِ وَتَعَرَّضْتُ لَهُ، فَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ الظُّهْرَ أَمَامَنَا، فَهَمَمْنَا أَنْ نُغَيِّرَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ لَمْ يُعْزَمَ لَنَا - وَكَانَتْ فِيهِ خَيْرَةٌ - فَاطَّلَعَ عَلَيَّ مَا فِي أَنْفُسِنَا مِنَ الْهَمِّ بِهِ، فَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْعَصْرِ صَلَاةَ الْخَوْفِ، فَوَقَعَ ذَلِكَ مِنَّا مَوْقِعًا، وَقُلْتُ: الرَّجُلُ مَمْنُوعٌ فَاعْتَزَلْنَا وَعَدَلَّ عَنْ سَنَنِ خَيْلِنَا، وَأَخَذَ ذَاتَ الْيَمِينِ، فَلَمَّا صَالَحَ قُرَيْشًا بِالْخُدَيْبِيَّةِ، وَدَافَعْتُهُ قُرَيْشٌ بِالرَّاحِ.

قُلْتُ فِي نَفْسِي: أَيُّ شَيْءٍ بَقِيَ؟ أَيْنَ الْمَذْهَبُ؟ إِلَى النَّجَاشِيِّ؟ فَقَدِ اتَّبَعَ مُحَمَّدًا،

وَأَصْحَابُهُ عِنْدَهُ آمِنُونَ، فَأَخْرُجُ إِلَى هِرْقَلٍ؟ فَأَخْرُجُ مِنْ دِينِي إِلَى نَصْرَانِيَّةٍ أَوْ يَهُودِيَّةٍ، فَأَقِيمُ فِي عَجَمٍ تَابِعًا، فَأَقِيمُ فِي دَارِي فِيمَنْ بَقِيَ؟ فَأَنَا فِي ذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ الْقَضِيَّةِ، فَتَغَيَّبْتُ وَلَمْ أَشْهَدْ دُخُولَهُ.

وَكَانَ أَخِي الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ قَدْ دَخَلَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْقَضِيَّةِ، فَطَلَبَنِي فَلَمْ يَجِدْنِي، فَكَتَبَ إِلَيَّ كِتَابًا، فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ أَعْجَبَ مِنْ ذَهَابِ رَأْيِكَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَعَقْلِكَ عَقْلِكَ! وَمِثْلُ الْإِسْلَامِ جَهْلُهُ أَحَدٌ؟! وَقَدْ سَأَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْكَ، وَقَالَ: "أَيْنَ خَالِدٌ؟" فَقُلْتُ: يَأْتِي اللَّهُ بِهِ. فَقَالَ: "مَا مِثْلُهُ جَهْلُ الْإِسْلَامِ، وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نِكَايَتَهُ وَحَدَّهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَقَدَّمْنَاهُ عَلَى غَيْرِهِ".

فَاسْتَدْرِكُ يَا أَخِي مَا قَدْ فَاتَكَ، فَقَدْ فَاتَكَ مَوَاطِنُ صَالِحَةٍ. قَالَ: فَلَمَّا جَاءَنِي كِتَابُهُ نَشِطْتُ لِلخُرُوجِ، وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَسَرَّرَنِي سُؤَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِّي، وَأَرَى فِي النَّوْمِ كَأَنِّي فِي بِلَادِ صَيْقَةَ مُجْدِبَةٍ، فَخَرَجْتُ إِلَى بِلَادِ خَضْرَاءَ وَاسِعَةٍ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا فَلَمَّا أَنْ قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ قُلْتُ: لَأَذْكُرَنَّهَا لِأَبِي بَكْرٍ. فَقَالَ: مَحْرُجَكَ الَّذِي هَدَاكَ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ، وَالضِّيْقُ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ.

قَالَ: فَلَمَّا أَجْمَعْتُ الخُرُوجَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: مَنْ أَصَاحِبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَلَقِيْتُ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا وَهْبٍ، أَمَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ،

إِنَّمَا نَحْنُ أَكَلَةُ رَأْسٍ، وَقَدْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، فَلَوْ قَدِمْنَا عَلَى مُحَمَّدٍ وَاتَّبَعْنَاهُ، فَإِنَّ شَرَفَ مُحَمَّدٍ لَنَا شَرَفٌ. فَأَبَى أَشَدَّ الْإِبَاءِ، فَقَالَ: لَوْ لَمْ يَبْقَ غَيْرِي مَا اتَّبَعْتُهُ أَبَدًا. فَافْتَرَقْنَا، وَقُلْتُ: هَذَا رَجُلٌ قُتِلَ أَخُوهُ وَأَبُوهُ بَدْرٍ. فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ، فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ مَا قُلْتُ لِصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، قُلْتُ: فَاكْتُمْ عَلَيَّ. قَالَ: لَا أَذْكُرُهُ. فَخَرَجْتُ إِلَى مَنْزِلِي، فَأَمَرْتُ بِرَاحِلَتِي، فَخَرَجْتُ بِهَا إِلَى أَنْ لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا لِي صَدِيقٌ، فَلَوْ ذَكَرْتُ لَهُ مَا أَرَجُو. ثُمَّ ذَكَرْتُ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَذْكُرُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: وَمَا عَلَيَّ وَأَنَا رَاحِلٌ مِنْ سَاعَتِي. فَذَكَرْتُ لَهُ مَا صَارَ الْأَمْرَ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: إِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ ثَعْلَبٍ فِي جُحْرٍ، لَوْ صَبَّ فِيهِ ذَنْبٌ مِنْ مَاءٍ لَحَرَجَ. وَقُلْتُ لَهُ نَحْوًا مِمَّا قُلْتُ لِصَاحِبِي، فَأَسْرَعَ الْإِجَابَةَ، وَقَالَ: إِنِّي عَدَوْتُ الْيَوْمَ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْدُو، وَهَذِهِ رَاحِلَتِي بِفَخٍّ مُنَاحَةٍ. قَالَ: فَاتَّعَدْتُ أَنَا وَهُوَ يَأْجِجُ، إِنَّ سَبَقَنِي أَقَامَ، وَإِنْ سَبَقْتُهُ أَقَمْتُ عَلَيْهِ. قَالَ: فَأَذْجُنَا سَحْرًا، فَلَمْ يَطْلُعِ الْفَجْرُ حَتَّى التَّقِينَا بِيَأْجِجَ، فَغَدَوْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الْهَدَّةِ، فَنَجِدُ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ بِهَا فَقَالَ: مَرَّحَبًا بِالْقَوْمِ، فَقُلْنَا: وَبِكَ. فَقَالَ: إِلَى أَيِّنَ مَسِيرِكُمْ؟ فَقُلْنَا: وَمَا أَخْرَجَكَ. فَقَالَ: وَمَا أَخْرَجَكُمْ؟ قُلْنَا: الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ وَاتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ ﷺ. قَالَ: وَذَلِكَ الَّذِي أَقْدَمَنِي...»

لقاء رسول الله ﷺ:

وما زال الحديث لخالد بن الوليد يقول: «فَاصْطَحَبْنَا جَمِيعًا حَتَّى دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ، فَأَنْخَنَا بِظَهْرِ الْحَرَّةِ رِكَابَنَا، فَأُخْبِرَ بِنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَرَّ بِنَا، فَلَبِسْتُ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِي، ثُمَّ عَمَدْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَقِينِي أَخِي، فَقَالَ: أَسْرِعْ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أُخْبِرَ بِكَ، فَسَرَّ بِقُدُومِكَ، وَهُوَ يَنْتَظِرُكُمْ. فَأَسْرَعْنَا الْمُشِيِّ، فَاطَّلَعْتُ عَلَيْهِ، فَمَا زَالَ يَتَبَسَّمُ إِلَيَّ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ بِوَجْهِ طَلْقٍ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. فَقَالَ: " تَعَالَ ". ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلًا رَجَوْتُ أَنْ لَا يُسَلِّمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ».

الإسلام يُجِبُّ ما قبله:

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ رَأَيْتَ مَا كُنْتُ أَشْهَدُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ عَلَيْكَ مُعَانِدًا لِلْحَقِّ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَهَا لِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " الْإِسْلَامُ يُجِبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَى ذَلِكَ. قَالَ: " اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ كُلَّ مَا أَوْضَعَ فِيهِ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِكَ ".

وكانت البداية.. بداية خالد بن الوليد مع النور.

بداية حياة النور والإيمان

والآن أعزائي، لنرى فارس قريش، وصاحب أَعِنَّة الخيل فيها، نراه يُعطي ظهره لآلهة آبائه وأجداد قومه. ويستقبل مع رسول الله ﷺ والمسلمين عالماً جديداً. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن حياة خالد بن الوليد ﷺ قد بدأت يوم أشرقت نفسه بنور ربها، ويوم لامست يمينه كف رسول الله ﷺ لبياعه على الإسلام.

ولنبداً مع بطلنا حياة النور والإيمان، حياة الجهاد والتضحية والبذل في سبيل الله ونصرة دينه.

أعماله مع رسول الله ﷺ

صحب خالد بن الوليد رسول الله ﷺ ثلاث سنوات. وقد كان رسول الله ﷺ يعرف للرجال قدرهم، فكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ولما كان معروفاً عن خالد فروسيته وشجاعته، فكان دائماً في الطليعة. فقد عهد إليه رسول الله ﷺ في حياته أكثر من عشرين مهمة، وشهد مع رسول الله ﷺ بعد إسلامه كل المشاهد.

فلنعرض لبعض من هذه المهام والمشاهد:

١ - معركة مؤتة

وهي أول الأعمال التي اشترك فيها خالد بن الوليد بعد إسلامه بشهر أو ثلاثة أشهر. ولقد كان أبطال هذه المعركة أربعة من خيار الصحابة وهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة، وبطلنا خالد بن الوليد. وسنذكر أخبار هذه المعركة إجمالاً، ثم نعرض بالتفصيل لدور كل بطل من هؤلاء الأبطال في معرض حديثنا عنه.

أسباب المعركة

كان سبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ أرسل الحارث بن عُمير الأزدي رسولاً إلى هرقل، فقتله شُرْحَيْبِل بن عمرو الغساني، وكان زعيم الغساسنة وعامل هرقل. فأشفق رسول الله ﷺ من عقبى السكوت على تلك الفعلة، فإذا استضعف الغساسنة وجيرانهم شأن المسلمين وأفلتوا من العقاب على فعلتهم، جرّأهم ذلك على المزيد من الاعتداءات، وكذلك قد يُجرئ القبائل المجاورة وقد تمدهم الدولة الرومانية بالمال والسلاح.

فلم يجد رسول الله ﷺ مناصاً من الثأر؛ ليحفظ للمسلمين هيبتهم.

رسول الله ﷺ يؤمّر الأمراء

جهّز رسول الله ﷺ لتأديب هؤلاء المعتدين جيشاً صغيراً قوامه ثلاثة آلاف،

وأمر عليهم زيد بن حارثة، وقال: «فإن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن أُصيب عبد الله فليترض المسلمون منهم رجلاً فليجعلوه عليهم». وكان في هذا الجيش خالد بن الوليد جندياً عادياً يعمل تحت إمرة هؤلاء القواد الثلاثة، رغم ما له من خبرة قتالية معروفة للجميع، وذلك لحدائثة عهده بالإسلام. وكان ذلك نهجاً من التربية النبوية التي صنعت الرجال.

سير المعركة

ويسير جيش المسلمين، وقد أمرهم رسول الله ﷺ أن يذهبوا حيث قُتل رسول الله ﷺ، ويدعوهم إلى الإسلام. وأوصاهم: «لا تغدروا، ولا تغلُّوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأة، ولا كبيراً، ولا معتزلاً بصومعته، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بيتاً».

وقد كان هذا الجيش بالوصف العصري «حملة تاديبية». ومضى الجيش حتى نزل معان، وأقام بها ليلتين، وسمع المسلمون هناك أن هرقل قد عسكر بمآب في مئة ألف من الروم، ومئة ألف من قبائل العرب الموالية ليكون جيشه قوامه مائتي ألف.. فما عسى ثلاثة آلاف أن يقاتلوا مائتي ألف؟ فتقدم المسلمون من معان إلى مؤتة، وهي قرية فيها حصن للغساسنة.

وتبدأ المعركة التي أبلى المسلمون فيها بلاءً حسناً، وقتلوا من الروم مقتلة كبيرة. واستمرت المعركة ستة أيام، استشهد فيها زيد بن حارثة، ثم تولى الإمارة جعفر بن أبي طالب فاستشهد فتولاها عبد الله بن رواحة فاستشهد. وبعد سقوط آخر القواد شهيداً سارع إلى اللواء «ثابت بن أرقم» فحملة يمينه ورفعته عالياً وسط جيش المسلمين حتى لا تُبعثر الفوضى صفوفه.

ولم يكد ثابت يحمل الراية حتى توجه بها إلى خالد بن الوليد وقال له: خذ الراية يا أبا سُلَيْمَان. ولم يجد خالد من حقه وهو حديث العهد بالإسلام، أن يقود قومًا فيهم الأنصار والمهاجرون الذين سبقوه للإسلام.. أدبٌ وتواضعٌ وعرفانٌ من هذا البطل.

هنالك قال لثابت: لا، لا آخذ اللواء أنت أحق به. فأجابه ثابت: خذه فأنت أدري بالقتال مني، ثم نادى في المسلمين: أترضون إمرة خالد؟ قالوا: نعم. واعتلى العبقري جواده، ودفع الراية يمينه إلى الأمام كأنها يقرع بها أبواباً مغلقة أن لها أن تُفتح على طريق طويل سيقطعه البطل وثبًا في حياة رسول الله ﷺ وبعد مماته، حتى تبلغ المقادير أمراً كان مقدوراً.

سيف من سيوف الله

نعى رسول الله ﷺ الشهداء؛ قادة المعركة، لما وقف على المنبر وقال: «ألا

أخبركم عن جيشكم هذا الغازي؟». وقال: «أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم أخذها جعفر بن أبي طالب فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً. ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، خالد بن الوليد ففتح الله على يديه». فكان أرفع وسام يضعه رسول الله ﷺ على صدر خالد بن الوليد وعُرف من يومها «بسيوف الله المسلول».

عبقرية خالد والانسحاب المأمون

تولى خالد إمرة الجيش بعد أن كان مصير المعركة قد تحدد، فضحايا المسلمون كثيرون، رغم قتلهم للكثير من الروم، ولم يكن بوسع أية كفاية عسكرية أن تغير من هذا المصير شيئاً. فكان العمل الوحيد الذي ينتظر عبقرياً لِيُنجزه هو وقف هذه الخسائر والخروج ببقية الجيش سالمًا، أي «الانسحاب المأمون». وهو في بعض المآزق قد يكون أصعب من النصر؛ لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة له، واحتمال الشدة. ولكنَّ الانسحاب المأمون غير ميسور لكُلِّ من يُريده، وهو في حالة من الضعف والانهزام. إلا في وجود قائد له خبرة بالقيادة وعبقرية في التخطيط.. فكان لها أبو سُلَيْمان؛ «سيف من سيوف الله».

خطة الانسحاب

فكان أول شيء ينبغي أن يُحتاط له للانسحاب الآمن، هو أن يوقع في رَوْع عدوه أنه لا ينوي الانسحاب، بل ينوي الهجوم. فصمد خالد بجنوده في الميدان حتى المساء - اليوم السادس للمعركة - وفي المساء وتحت جُنح الظلام وضع خطته للانسحاب الآمن.

وتمحورت الخطة على الآتي:

- ١- بثّ الروح في جنوده.
- ٢- تبديل كُلي لمواقف الجيش، فنقل رجال الميمنة إلى الميسرة، ونقل رجال الميسرة إلى الميمنة. وكذلك استبدل رجال القلب بأخرين، وجعل مقدمة الجيش مكان المؤخرة، والمؤخرة مكان المقدمة.
- ٣- أمر مجموعة من الفرسان ليحتلوا مساحة شاسعة من الأرض خلف القوات. وأمرهم أن يُحدثوا أصواتاً مرتفعة بها لديهم من أبواق، وإثارة الغبار بالخيول؛ بأن تدور في دوائر ضيقة، وذلك ليُدخل الرعب في نفوس قادة الروم، ويوهمهم أن جيشاً جديداً ومدداً كبيراً جاء لجيش المسلمين.

فزع الروم ونجاح الخطة

وفي الصباح - اليوم السابع للمعركة - وجد الروم أنفسهم أمام قادة

وجنود وهيئات ورايات غير التي كانوا يواجهونها في الصفوف الأولى أثناء القتال في الأيام الستة الماضية.. فرجال ميمنة الروم وجدوا رجالاً ووجوهاً جديدة في مسيرة المسلمين، وكذلك رجال مسيرة الروم وجدوا رجالاً ووجوهاً جديدة في ميمنة المسلمين. ووجد الروم غباراً يسد الأفق من بعيد ناحية جزيرة العرب خلف ظهر المسلمين، ودوّت أصوات التهليل والتكبير.

ثم انشق هذا الغبار عن كتائب الفرسان تتبع إحداهما الأخرى في تنسيق وإحكام. فدبَّ الفزع في نفوس الروم وسادهم الهرج والمرج. فقد توهموا أن مدداً جديداً أقبل إلى جيش المسلمين. وقد ذاقوا من المسلمين أمرَ المذاق بغير مدد طيلة الأيام الستة الماضية، فما عساهم فاعلين بعد مجيء هذا المدد؟ وأدرك خالد بحسّ القائد المُحنَّك ما أصاب الروم وحلفاءهم من خوف وفزع، نتيجة خدعته البارعة. فاغتنمها فرصة وأمر في الحال بهجوم كاسح وصاعق عليهم. فكان له ما أراد فازدادوا رعباً وهمُّوا بالفرار. وبعد قتالٍ ضارٍ كان الروم في تراجعهم أمام هجوم خالد يُقاتلون في شراسة. وقد أبلى خالد في هذه المُدافعة بلاءً لم يُبله أحدٌ، حتى أنه قال عن نفسه: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية».

ولما كان الهدف من هذه الخدع هو تأمين الانسحاب للجيش، اغتتم خالد فرصة الارتباك في صفوف الروم، فأصدر أوامره إلى قواده بالارتداد بالجيش نحو الجنوب بانتظام. وأشرف خالد بنفسه على عملية الانسحاب. فكان هذا التراجع المحمي بشجاعة المستميت غطاءً صالحاً للجيش الصغير في مواجهة الجيش الكبير.

وتمت عملية الانسحاب من مؤتة كما قَدَّر وأراد البطل. تمت بدقة ودون أيّ خسارة في صفوف المسلمين، وذُهل الروم أمام هذه المفاجأة والخدعة البارعة، حتى إنهم لم يستطيعوا أن يتعقبوا جيش المسلمين أثناء انسحابهم. وخافوا أن يكون الانسحاب مكيدة جديدة يدبرها القائد خالد لإيقاع الجيش الروماني في كمائن قد أعدها المسلمون. فأحجموا عن تعقب المسلمين.

ليسوا بفرار ولكنهم الكرار

وصل الجيش سالمًا إلى المدينة، وجعل الناس يصيحون بالجيش: «يا فرار.. فررتم»، ويحثون التراب في وجوه الجنود والقادة. فلما علم رسول الله ﷺ بذلك قال: «ليسوا بفرار ولكنهم الكرار».

حقيق بهذا اللقب

لما منح رسول الله ﷺ خالد بن الوليد لقب «سيف الله» في الوقت الذي تلقاه الناس هو وجيشه بالحجارة يقذفونهم بها، ويحثون التراب في وجوههم. كان ﷺ وحده يعلم أنه حقيق بهذا اللقب. فلو أن خالداً ﷺ قضى نحبه في السنة العاشرة للهجرة أو بعدها بقليل لعجب الناس، كيف سُمِّي سيف الله وفيما استحق هذا اللقب الذي لا يعلوه لقب؟ ولكنه رسول الله ﷺ علم أنه حقيق بهذا اللقب على أوفى مداه. سمَّاه من قبل أن يهزم الفرس والروم، وقبل أن يصون للإسلام جزيرة العرب، ويضم إليها العراق والشام وهي الأعمال الجسام التي من أجلها يُدعى اليوم «سيف الله».

٢- فتح مكة

لما نكثت قريش عهدها مع رسول الله ﷺ، فتحرك المسلمون بقيادته في أربع فرق لفتح مكة. وقد جعل رسول الله ﷺ خالداً أميراً على ميمنة المسلمين. وأمر رسول الله ﷺ قواده: «ألا تُقاتلوا إلا إذا أكرهتم على ذلك»؛ لأنه ﷺ كان يُريدها سلمية دون إراقة دماء. وتدخل الفرق الأربعة دون مقاومة تُذكر إلا القطاع الذي كان يقوده خالد

بن الوليد، فقد لقي مقاومة شرسة وقتالاً من حشد كبير يقوده أصدقاء الأمس، وأعداء اليوم «عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية»، ولكنَّ سيف الله قاتلهم بمن معه من الرجال وأمطروهم بالنبال، ففر عكرمة وصفوان.

يقول خالد: «بدوونا بالقتال، ورمونا بالنبل، ووضعوا فينا السلاح، وقد كفت ما استطعت، ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا، حتى لم أجد بُدًّا أن أقاتلهم، فظفّرنا الله بهم، فهربوا من كل وجه».

خالد بن الوليد في مكة

ويدخل خالد مع جيش المسلمين المنتصر الظافر إلى مكة مع المُستضعفين الذين أُخرجوا من ديارهم، وهم يعودون إليها على صهوات جيادهم، بعد أن تحوّل همسهم الذي كانوا يتناجون به في دار الأرقم بالأمس إلى تكبيرات صادعة رائعة ترج مكة رجًّا.

ويرفع خالد رأسه إلى أعلى، ويرمق في إجلال وغبطة رايات الإسلام تملأ الأفق. ويجني رأسه شاكرًا نعمة الله عليه الذي هداه إلى الإسلام، وجعله يوم الفتح العظيم واحدًا من الذين يحملون الإسلام إلى مكة، وليس من الذين سيحملهم الفتح على الإسلام.

٣- هدم العُزى

لما انتهى رسول الله ﷺ من تطهير الكعبة من أصنامها، أرسل سرايا صغيرة إلى مواضع حول مكة، ليدعو أهلها إلى الإسلام ويُحطَّم ما بها من أصنام. فأرسل خالد بن الوليد في ثلاثين فارسًا لهدم العُزى. وهي أكبر صنم لقريش، وكانت بهوازن وسدنتها بنو سليم.

وكان الوليد بن المغيرة - أبو خالد - يتمسح بها وينحر لها الإبل والغنم. فأتى خالد عليها وهدمها وقال: «ذهبت العُزى، فلا عُزى بعد اليوم».

ولما عاد إلى رسول الله ﷺ قال له: «الحمد لله الذي أكرمنا بك، وأنقذنا من الهلكة، لقد كنت أرى أبي يأتي العُزى بخير ماله من الإبل والغنم، فيذبحها لها، ويقيم عندها ثلاثًا، ثم ينصرف مسرورًا. ونظرت كيف حُدد حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يضر ولا ينفع». فقال له رسول الله ﷺ: «إن هذا الأمر إلى الله، مَنْ يَسِّرْهُ للهدى تيسر له، ومن يسره للضلالة كان فيها». وكذلك بلغت العبرة إلى خالد قبل أن تبلغ منه إلى الناس.

٤- غزوة حُنين

وفي موقعة حُنين ينال خالد بن الوليد ﷺ ثقة رسول الله ﷺ، لما أسند إليه قيادة الخيل في طليعة جيش المسلمين في مائة فارس. وقاتل قتالاً مريراً لما

انهزم المسلمون في أول الأمر، ولم يزل يقاتل حتى سقط مثقلاً بالجراح لا يقوى على السير. وهناك وجده رسول الله ﷺ حين خرج يتفقد الجرحى بعد المعركة. فنظر إلى جرحه فنفت فيه وبارك له وواساه. فكان هذا التقدير وهذه الثقة من رسول الله ﷺ وهو سيد السادة ومُرَبِّي الرجال والأبطال.

* للاستزادة من أخبار حُنين: ارجع إلى الجزء الأول «حياة خير الأنام» للمؤلف.

٥- غزوة الطائف

وفي غزوة الطائف التي كانت مُتَمِّمة لِحُنين؛ حيث لاذت إليها القبائل بعد فرارها وامتنعت وراء أسوارها. وقد جمعوا من الغذاء ما يكفيهم إلى السنة القابلة. وأحاط المسلمون بالأسوار، فرماهم المشركون بالنبل. وهنا يقف خالد بن الوليد يدعوهم إلى النزال فلا يجيبه أحد. حتى صاح عبد ياليل كبير ثقيف ردًّا على خالد: لا ينزل منا أحد، ولكن نقيم في حصننا، فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقمت حتى يفنى الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعًا، حتى نموت عن آخرنا. وظل حصار المسلمين لهم بلا طائل. فلما رأى رسول الله ﷺ أن الفتح لم يؤذن فيه استشار نوفل بن معاوية الديلي، فقال له: يا رسول الله، ثعلب في جحره، إن أقمت عليه أخذته، وإن

تركته لم يضرّك. فأمر رسول الله ﷺ برفع الحصار والرحيل.

٦ - غزوة تبوك

وهي آخر غزوة خرج فيها رسول الله ﷺ وكانت إلى حدود الشام سنة تسع للهجرة في أعظم جيش شهده المسلمون في حياته ﷺ. ولما علمت الروم بهذا الزحف أخذهم الرعب، وآثروا الانسحاب، وهناك أقام رسول الله ﷺ وأرسل رسله لمعاهدة أهل الحدود.

بعثة دومة الجندل

وبعد أن أمن وعاهد القبائل الواقعة على الحدود خشى انتفاضة الأكيذر بن عبد الملك أمير دومة الجندل، ومعاونة الروم إذا هاجمت المسلمين من ناحيته. فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى دومة الجندل، وأخبره أنه سيجد الأكيذر قد خرج ليصيد البقر. فخرج خالد في ٤٢٠ فارسًا، حتى أشرف على حصن دومة الجندل وكانت ليلة مقمرة، ورأى الأكيذر وهو على سطح الحصن والبقر تحك قرونها بباب الحصن. وأغراه هذا بالإسراع للخروج من الحصن لصيدها، دون أن يكون معه إلا أخوه وقليل من الحراس.

فلما خرجوا كان خالد قد كمن لهم، فأحاط بهم وأسروا الأكيذر والحراس،

وأتى بهم إلى المدينة. فصالحه رسول الله ﷺ على الجزية وعاهده على الأمان وقد أصبح حليفاً للمسلمين.

أعماله في خلافة أبي بكر الصديق

وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو راضٍ عنه. فقد كان خالد بن الوليد موضع ثقة رسول الله ﷺ، لما كانت له من قدرات عسكرية نادرة، ولما كان له من إخلاص وحب لرسول الله ﷺ.

ولما تولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أمر الخلافة وواجهته التحديات الجسام، فكان لها بطل الموقف ورجل الساعة «أبو سُلَيْمان».. فكان بحق كما تنبأ رسول الله ﷺ «سيف من سيوف الله يفتح الله علي يديه».

حروب الردة

كان أول خطر واجهه خليفة رسول الله ﷺ هو أعاصير الردة التي هبَّت غادرة ماكرة من كل اتجاه. حتى أن مكة والمدينة وجاراتهما وقفت وحدها في وجه البادية العربية بأسرها، ومن وراء البادية دول كبيرة تنصرها.

ولقد كانت انتفاضات الردة بالغة الخطورة على الرغم من أنها بدأت وكأنها تمرُّد عارض. فنشبت نيران الفتنة في قبائل أسد وخطفان وطيء وذبيان، ثم قبائل عامر وهوازن وسليم وبني تميم. فلم تكد المناوشات تبدأ حتى

تحولت إلى جيوش جرارة قوامها عشرات الألوف من المقاتلين، وأصبحت خطراً شديداً على الإسلام.

دور خالد بن الوليد في حروب الردة

شهد خالد بن الوليد رضي الله عنه حروب الردة من أولها إلى نهايتها، وكانت له الحصّة الكبرى في أهم وقائعها وأصعب أوقاتها. وخاصة وقعة اليمامة التي تُعدُّ من حروب الإسلام الحاسمة في صدر تاريخه. وقد مرت حروب الردة بمرحلتين:

المرحلة الأولى: بقيادة أبي بكر الصديق

لما بدأ زحف المرتدين، قرّر الخليفة العظيم أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يقود جيش المسلمين بنفسه، ووقف زعماء الصحابة يبذلون محاولات يائسة لصدّه عن هذا العزم، ولكنه ازداد تصميمًا. وعبّأ أبو بكر المسلمين وقادهم إلى حيث كانت قبائل بني عبس وبني مرة وذبيان قد خرجوا في جيش جرار. إلا أن الخليفة لم ينتظرهم، بل خرج بمن معه في هزيع من الليل وهبط عليهم عند طلوع الصبح، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى تفرقوا وولوا مُدبرين.

ولم يكد الجيش المنتصر يستقر بالمدينة حتى ندبه للمعركة الثانية، وكانت

أنباء المتمردين وتجمعاتهم تزداد خطورة. وخرج أبو بكر على رأس الجيش الثاني، واستطاع دَحْرَهُم قبل أن يتحركوا. وهنا انتهت المرحلة التي اشترك فيها المسلمون جميعاً تحت قيادة الخليفة المدافعة المرتدين. وكان شأن خالد فيها شأن غيره من أبطال المجاهدين وكبار الصحابة.

✽ للاستزادة من أخبار الردة: ارجع إلى الجزء الثاني «حياة العشرة المبشرين بالجنة» للمؤلف.

المرحلة الثانية: إرسال البعوث

وأمام إجماع الصحابة، رضي الخليفة أن يبقى في المدينة، وقسّم الجيش إلى إحدى عشرة مجموعة، ورسم لكل مجموعة دورها. وعلى مجموعة ضخمة من تلك المجموعات كان خالد بن الوليد أميراً.

ولما عقد الخليفة لكل أمير لواءه، اتجه إلى خالد وقال له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعم العبد وأخو العشيرة خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله، سلّه الله على الكفار والمنافقين».

مهمة خالد

أما خالد فكانت مهمته من بين الجيوش الإحدى عشر هي: التوجه إلى بزاحة حيث طُليحة بن خويلد، ومنه إلى البطاح حيث مالك بن نويرة.. ثم إلى اليمامة حيث مُسيلمة الكذاب.

إلى طُليحة في بزاحة

ويتوجه خالد بن الوليد في جيش قوامه أربعة آلاف، أكثرهم من أبناء القبائل الموالية، وأقلهم من المهاجرين والأنصار. يتوجه إلى بزاحة حيث طُليحة بن خويلد الذي كان قد ادعى النبوة، وأنه يأتيه الوحي من السماء. وأتم خالد تعبئة جيشه للقتال، فجعل القبائل على اليمين، والمهاجرين والأنصار على اليسرة، وصمد هو في القلب مع فئة من هؤلاء وهؤلاء. أما طُليحة فلما علم بمقدم المسلمين، وقبل وصولهم إلى بزاحة أعد العدة لكلتا الحالتين في غلبة وفرار.. فعزل النساء إلى مكان أمين، وأقام حوله أربعين فارسًا من أشد فتيان بني أسد.

لا أعتصم بغير الله

لما التحم الجيشان ثبت طُليحة وأصحابه في أول الأمر. وكروا على

المسلمين، حتى خيَّل فيها إلى المسلمين أنهم منكسرون، ولما نصَّح البعض خالد أن يعتصم بجبال طيء ويستدرج المرتدين إليها فأنكر على ناصحيه ذلك، وقال: «لا أعتصم بغير الله».

ثم أرسل فرسه وترجَّل مقاتلاً على قدميه ليملك الحركة، ويبعث القدوة في قلوب صحبه. واشتد القتال حتى قُتل حرس طليحة جميعاً. ففر إلى دار الكهانة حيث استقر هناك، وهو يوهمهم أنه يتلقى الوحي ويتنظر المدد من السماء.

كذاب.. كذاب

ولما جد الجد وأراد أنصاره أن يعرفوا مصير هذه المعركة، وإلى متى سيتنظرون المدد من السماء؟ فقال أحدهم لطليحة: هل جاءك جبريل؟ قال: لا، ثم عاوده الثانية وسأله: أجاك صاحبك؟ قال: لا. ولما كانت الثالثة وكان طليحة قد أعد عُده فركب فرسه وأردف امرأته على راحلته ونادى في أتباعه: نعم جاءني الوحي، وقال: مَنْ استطاع أن يفعل هكذا فليفعل، وما زال في فراره حتى لحق بالشام. فخرج الناس يرمونه بالحجارة ويقولون: كذاب.. كذاب. فجلس معهم خالد وأعاد إليهم رشدهم.

وبذلك قضى على فتنة طليحة وأعاد الإسلام إلى بزاخة. ولقد حطَّم

انتصار خالد معنويات أسد وغطفان وغيرهما من القبائل فبايعوه وعادوا إلى الإسلام.

إلى مالك بن نويرة في البطاح

وبعد بزاحة يتوجه خالد بجيشه - كما هو مرسوم له - إلى بني تميم في البطاح، وفيهم زعيمهم «مالك بن نويرة»، وكان من مانعي الزكاة. فغلبهم خالد وقتل زعيمهم، وعاد بنو تميم إلى الإسلام.

موقعة اليمامة

تم تأتي موقعة اليمامة، وهي أخطر المواقع في حروب الردة، بل أخطر الحروب في صدر الإسلام، ويرجع هذا الخطر إلى قوة بني حنيفة. «أصحاب اليمامة» ودهاء رئيسهم «مسيلمة بن ثمامة»، وكان لسيف الله «خالد بن الوليد» الدور الأعظم فيها.

خبر مسيلمة

كان مسيلمة قد ادعى النبوة في عصر رسول الله ﷺ، وأنه أشرك مع رسول الله ﷺ في الأمر فاتبعه قومه، وكتب إلى رسول الله ﷺ: «من مسيلمة

رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قریش قوم لا يعدلون»؛ فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مُسَيْلِمة الكذاب، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»؛ فلما تُوفي رسول الله ﷺ استفحل أمر مسيلمة، وكان من أولئك الدهاة الذين يُعَوِّضون بالحيلة ما فاتهم من الهيبة والرواء.

سيف الله يتوجه إلى الرسول المزعوم

أرسل أبو بكر عكرمة بن أبي جهل إلى مُسَيْلِمة وأرسل على أثره شُرْحَيْبِل بن حسنة مدداً له. فتعجل عكرمة ولم ينتظر مدده، فتقدم ولاقى جيش مسيلمة فانهزم.

فلما علم بذلك أبو بكر بعث إلى خالد يأمره بالمسير إلى مُسَيْلِمة. وأمدّه بجيش كبير من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى شُرْحَيْبِل يأمره بانتظار خالد، حتى يجتمعاً على جنود مسيلمة التي تبلغ عدتها أربعين ألفاً.

بداية المعركة وانهزام المسلمين

ويصل خالد بجيشه إلى أرض المعركة وأعطى الراية إلى شُرْحَيْبِل بن

حسنة، والتقى الجمعان في عقرباء. وكان جيش المسلمين لا يتجاوز في عدته نصف جيش اليمامة - ثلاثة عشر ألفاً-، ودار قتال رهيب، وبدت الغلبة لجيش اليمامة، لما تميزوا به من الراحة وزيادة العدد. وانهمز المسلمون حتى دخل بنو حنيفة خيمة خالد.

سيف الله يحول الهزيمة إلى نصر مبين

فلما رأى خالد رجاحة كفة الأعداء، اعتلى بجواده ربوة قريبه، وألقى على أرض المعركة نظرة سريعة وعميقة. ومن فوره أدرك نقاط الضعف في جيشه وأحصاها.

وهنا تظهر عبقرية خالد الفذة.. فلما رأى الشعور بالمسئولية بين المسلمين قد وهن تحت هول المفاجأة التي دهمهم بها جيش مسيلمة؛ قرَّر أن يشد أفتدة المسلمين، وأعاد تنسيق موقعه على الأرض. ثم صاح بصوت المنتصر: «امتازوا لنرى بلاء كل حي، ولنعلم من أين نُؤْتَى». فامتازوا جميعاً، مضى المهاجرين تحت رايتهم، والأنصار تحت رايتهم، وكل حي تحت رايته. وهكذا صار واضحاً من أين تأتي الهزيمة حين تأتي؟ واشتعلت الأنفس حماسةً وامتلاَّت عزمًا.. وخالد بين الحين والحين يُرسل تكبيرة أو تهليله، فتبعث الحماس في النفوس. ونقل خالد حماسه كالكهرباء في

جنوده، وحلت روحه في جيشه جميعًا.

وما هي إلا سويعات، حتى تحول اتجاه المعركة، وراح جنود مسيلمة يتساقطون كالفراش. فلما رأى خالد رحى الحرب تدور على مسيلمة، فطلبه للمبارزة. فبرز إليه، ولما اشتد الأمر عليه أدبرَ وتحصَّن في بستان له. وانهمز بنو حنيفة وقتل زعيمهم المزعوم. وطويت تحت التراب إلى الأبد راية «مسيلمة الكذاب».



وعلى هذا انقضت حروب الردة التي استمرت عامًا أو بعض عام. وانقضى دور خالد بن الوليد كأحسن ما ينقضي هذا الواجب. وقام وحده بأوفر سهم في حروب الردة؛ لأنه قمع الفتن في جزيرة العرب من أقصاها إلى أقصاها.. الله دُرِك يا ابا سُليمان!!

فتوحات بلاد فارس (العراق)

لما انتهى أبو بكر رضي الله عنه من حروب الردة، وجمع العرب للإسلام وألف الله الكلمة. أدرك بفطنته ما لِقوى الشر الجاثمة وراء حدود بلاده من دور خطير في تهديد مصير الإسلام وأهله، الفرس في العراق والروم في الشام. هنالك وجَّه الخليفة همته لتعميم عدل الإسلام ومساواته إلى هذه البلاد.

فأرسل توجيهاته إلى خالد بن الوليد أن يمضي بجيشه إلى العراق، ولقد سَطَّر بطلنا سطوراً من نور في تلك المعارك التي خاضها ضد الفرس في العراق، والروم في الشام. وليت صفحات هذا الكتاب كانت تتسع لتتبع مواكب نصره. وقد أفردت لها مجلدات طوال. ولكن حسبنا أن نُلقِي الضوء على بعض منها. فقليل مُيسَّر قد يُعني عن طويل مُفسَّر.

فعلى الإجمال لقي خالد ﷺ الفرس وأولياءهم في خمس عشرة وقعة؛ لم يُهزم في واحدة منها. وكان دائماً وأبداً كما وصفه عمرو بن العاص: «في أناة القطاة، ووثبة الأسد»، فلا يُهمل الحيلة، ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة.. فهي إذاً شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة، ومعرفة بما هو لازم في وقت لزومه.

لا يُهزم جيش فيه القعقاع

حرص الصديق ﷺ أن يُجَنَّب الجيوش الإسلامية مخاوف المرتدين ونكساتهم، فأوصى ألا يُقبل أحدٌ منهم في صفوف جيوش المسلمين. فلما نظر خالد حوله، وهو يرفض الكثير ويقبل القليل فبعث إلى الخليفة يستمده، فأمدته بفارس واحد هو «القعقاع بن عمرو». فعقب أصحابه وقالوا له: أتمده برجل واحد؟ فقال: نعم إنه رجل واحد، ولكنه بألف

رجل، فلا يُهزم جيش وفيه القعقاع. وقد أظهرت الأحداث صدق حسِّ خليفة رسول الله ﷺ، كما سيأتي ذكره بعد قليل.

رسائل سلام

ويستهلّ خالد عمله في العراق بإرسال رسائل سلام إلى هُرْمَز قائد الفرس، يقول فيها: «السلام على مَنْ اتبع الهدى.. أما بعد، فأسلم تسلم، واعقد لنفسك ولقومك الذمة، وقرر الجزية. وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

ولكنَّ هُرْمَز رفض الرسالة والسلام واستعد للحرب.

ويمضى خالد ﷺ بجيش قوامه ثمانية عشر ألف جندي في مقابل أكثر من أربعين ألفاً للفرس. وبدأ زحفه بإصدار أوامره إلى جميع قواته: «ألا تتعرضوا للفلاحين بسوء، ودعوهم في شغلهم آمين، إلا أن يخرج بعضهم لقتالكم، فأنذ قاتلوا المقاتلين».

معركة كاظمة - ذات السلاسل -

ويُبدع سيف الله في إظهار ملكاته العسكرية، والقدرة على المناورة وخذاع العدو، لإنزال الهزيمة به وبأقل خسائر ممكنة في صفوف جنوده.

توقع هُرمز أن يلاقي خالد في كاظمة، فوجَّه قواته كلها إلى هناك، واستعدوا للقاء وحفروا الخنادق. أما سيف الله فقسَّم قواته إلى ثلاث فرق؛ اتجهت إلى طرائق مختلفة، لِيُسْتَتَّ هُرمز وجنوده. وبدلاً من التوجه إلى كاظمة، كما توقع هُرمز، اتجه خالد بجنوده نحو «الحفير» - شمال كاظمة وغربي الأبله - وعندما أدرك هُرمز أن خالدًا توجه إلى الحفير وليس كاظمة، أصدر أوامره بالتوجه إلى الحفير، وأمرهم بالإسراع ليسبقوا خالدًا. وهذا هو ما هدف إليه خالد، أن يُرْهق عدوه نفسيًا وجسديًا قبل بدء المعركة. فتعمد خالد أن يُبطئ بجيشه السير نحو الحفير ليسبقه إليها هُرمز. وبالفعل يصل هُرمز إلى الحفير قبل خالد وأمر جنده بحفر الخنادق استعدادًا للمواجهة. ولما علم خالد من استخباراته أن هُرمز قد أرهق جنوده بحفر الخنادق والتعبئة.

ليس ذلك فحسب، بل أمرهم بربط بعضهم البعض بالسلاسل أثناء السير وأثناء العمل، حيي لا يفترُّوا من المعركة -لذلك عُرفت هذه المعركة «بذات السلاسل»-؛ عندئذ أمر خالد جنده بالتوجه إلى كاظمة.

وهنا استشاط هُرمز غضبًا وأمر جيشه الذي أُنْهَكَ بالتوجه إلى كاظمة، ليجد خالدًا في انتظاره وقد عبَّأ جيشه للقتال.

غدر هُرْمَز وبقظة القعقاع

وقبل بدء المعركة دعا هُرْمَز خالدًا للمبارزة، وقد أضمّر نية الغدر به حين يخرج منفردًا بين الصّفين، فوكل به عشرة من فرسانه أن ينقضوا عليه وهو مشغول بمبارزته فيقتلوه. وبذلك يتشتت جيش المسلمين بمقتل قائده، فينقضوا عليهم وتنتهي المعركة لصالحهم.

وكادت الخطة الغادرة أن تنجح لولا حيلة وبقظة القعقاع بن عمرو، الذي أسرع إليهم في لمح البصر وقتلهم جميعًا قبل الوصول إلى خالد. فكان بحق كما قال عنه أبو بكر: «رجل بألف رجل».

أما خالد فقد تمكن من صرع هُرْمَز، فركن الفُرس إلى الفرار بعد مقتل قائدهم. وجمع خالد المتاع وبها السلاسل - كانت تقدر بألف طن - وقلنسوة هُرْمَز - وكانت قيمتها مائة ألف درهم-. وأرسل بهذه الغنائم إلى أبي بكر في المدينة، الذي أهدى خالد قُلنسوة هُرْمَز ولكنه رفضها واكتفى بقلنسوة قديمة كان قد أهدها إياها رسول الله ﷺ.

معركة الأبلّة: خوف وهيبة من اسم خالد

ويواصل سيف الله مسيرته المباركة في العراق، ويسير بجيشه إلى الأبلّة، وبها جيش كثيف للفرس. وكان قد سبقه إليها «سويد بن قطبة» أحد

قواده، أرسله في جماعة من قواته إلى الأُبلة وعسكر حولها في انتظار أن يخرجوا فيقابلهم خارج مدينتهم المحصنة. ولما وصل خالد ووجد سويد على هذه الحالة فسأله عما يحدث؟ فقال له سويد: إن أهل الأُبلة قد جمعوا لي وهموا بالخروج، ولكنهم امتنعوا عن الخروج لما علموا بوجودك، خوفاً منك ولمكانك.

خطة عبقرية لسيف الله

وهناك رسم خالد خطته العبقرية ليخدع بها الفرس، حتى يأمنوا ويخرجوا لملاقاة سويد. فقرَّر الخروج من المعسكر نهاراً والعودة إليه ليلاً. فيعتقد الفرس أن خالدًا الذي بثَّ في قلوبهم الرعب بعد قتله هُرْمَز قد ترك معسكر سويد، وأنه لم يبقَ في الساحة إلا سويد فقط فيتشجعوا ويخرجوا لملاقاته.

ونفذ خالد خطته ليضلل حامية الأُبلة، فتوجَّه بمعظم قواته في وضح النهار في اتجاه الحيرة، فاطمأن الفرس إلى ترك خالد للمكان، ولكنه عاد بقواته إلى المعسكر ليلاً. وفي الصباح خرجت جيوش الفرس من الأُبلة قاصدين مهاجمة سويد. وما كادوا يصلون إليه حتى أسقط في أيديهم، لما رأوا الجند وخالد معهم على أهبة الاستعداد لملاقاتهم. فهَمُّوا بالفرار

والعودة إلى الأُبلة المحصنة، ولكن خالد حال بينهم وبين ذلك. فانفرط عقد جيش الأُبلة. ودخل خالد الأُبلة التي كانت خالية من المحاربين بلا قتال، وجمع ما بها من أسلحة وغنائم.

معركة المذار: قتل قواد الفرس

لما توالى الهزائم على الفرس، جهَّز ملكهم «شيرويه» جيشاً جراراً قوامه ثمانين ألفاً، وأعطى قيادته لأكبر قواده «قارن بن قرباس»، ويعاونه قائدان كبيران هما: «الأنوشجان» و«قباد»، ويصل هذا الجيش الجرار إلى المذار؛ حيث كان خالد مرابطاً هناك بجنوده الثمانية عشر. وهناك طلب «قارن» المبارزة قبل بداية القتال، فنهض إليه خالد ومعقل بن الأعشى يستبقان، وأراد معقل أن يحمي خالداً من مثل مكيدة هُرمز. فسبقه للمبارزة فقتل ابن الأعشى قارناً في الحال.

ثم برز عدي بن حاتم إلى القائد «قباد» فقتله، وهجم عاصم بن عمرو على الأنوشجان فقتله. وبعد مقتل القواد الثلاثة اشتبك الفريقان في ملحمة انتصر فيها جيش المسلمين. وقد بلغ قتلى الفرس فيها ثلاثون ألفاً، سوى من غرق بدجلة وهو يهيمُّ بالفرار.

معركة الوجة

ويتنقل خالد بالمسلمين من نصر إلى نصر، وكان كعادته في الحيلة والمبادرة، فكان يستبقي طائفة من جيشه في البلاد التي فتحها؛ حماية لظهره، وتقدم إلى الوجة، ثم فصل طائفتين من الجيش في أثناء الطريق، ليكمننا على مقربة من الوجة، ويلتفا في ساعة الحرج بالجيش الفارسي من ورائه. وبدأت المعركة وظنَّ الفرس أنهم أقرب إلى النصر، هنا ظهر أحد الكمينين، ثم ظهر الآخر قبل أن يفيق الفرس من دهشة الكمين الأول. فولَّوْا مدبرين، فكثُر منهم القتلى والأسرى. وبهذه الخطة الرائعة انتصر سيف الله في معركة الوجة.

معركة أليس

وجاءت بعد وقعة الوجة وقعة «أليس»، وهي أعجب الوقائع في حرب العراق. بما أنفق فيها من صنوف الحيلة وجبروت المقادير. فقد راع ملك الفرس «شيرويه» تلاحق الهزائم على جيوشه، كما غاظ العرب الموالين له أن يؤخذوا في حماهم، وأنفوا أن يُهانوا. فتلاقوا في الرقعة الوسطى بين ديارهم جميعاً وهي «أليس» وانتظروا المدد من الفرس والجحافل التي وعدهم بها ملك الفرس.

ويصل «جُبابان» قائد الفرس على رأس جيش كبير إلى «أليس»، وانضم إليهم العرب الموالين لهم، لتبلغ عدتهم أجمعين مائة وخمسين ألفاً. ويصل خالد بجيشه الذي لا يزيد عن ثمانية عشر ألفاً. (لاحظ: أن عدد جنود خالد لم يقل كثيراً منذ بداية حرب العراق «ثمانية عشر ألفاً»، وذلك لحيطته وذكائه، وحرصه على الوصول إلى هدفه بأقل الخسائر الممكنة).

فلما وصل سيف الله وجدهم مُقبلين على الطعام لا ينتظرون وصوله في هذه الساعة، فلبثوا على طعامهم، ولم يحفلوا بخالد - لعل ذلك استعلاء وغرور بقوتهم وعدتهم مقارنةً بخالد وقوته-، ولكن سيف الله لم يُمهلهم وضرب ضربته الأولى فشتت شملهم، فما كان إلا صحوة نهار حتى ولى الفرس الأدبار بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة.

فقسم خالد الغنائم وأرسل بالفتح والخمس إلى أبي بكر.

أعجزت النساء أن يلدن مثل خالد؟

كانت هذه الوقائع تتوالى يوماً بعد يوم والبشائر تصل إلى المدينة بأخبار النصر، فلا يفرغ الناس من حديث نصر حتى يتبعه نصر آخر.. فوقف أبو بكر بعد وقعة أليس يُبلغ الناس أنباء الظفر ليزفوا أخبارها إلى الجزيرة العربية، فقال: «لقد عدا أسدكم على الأسد فغلبه.. أعجزت النساء أن

يلدن مثل خالد؟».

من نصر إلى نصر

ويستمر الزحف المبارك من نصر إلى نصر، إما بقتال أو استسلام، حتى تحقق النصر المبين. فقد استطاع خالد -بعون من الله- أن يفتح الحيرة؛ عاصمة المناذرة، لتصبح تحت سيطرة المسلمين. ثم تبعها الأنبار ودومة الجندل.. وغيرها.

وهكذا دانت معظم أراضي العراق للمسلمين.

قضاء الشكر لله

بقي أسبوعان على موسم الحج، بعد تلك الفتوحات التي أمده الله فيها بنصره وعونه، أيفوت خالد بن الوليد الشكر لله وأداء فريضة الحج؟ وفي خطفة الريح العاصفة، خرج خالد من أعلى العراق إلى أقصى الحجاز. وأدَّى فريضة الحج وعاد إلى معسكره دون أن يعلم أحدٌ من الأعداء، ولا من خاصته المقربين.

فتوحات الشام

في الوقت الذي كانت فتوحات الفرس تمضي بقيادة خالد بن الوليد في

العراق، كان خليفة رسول الله ﷺ قد أرسل أربعة جيوش لملاقاة الروم في الشام. واختار لإمارتها نفرًا من القادة المهرة من كبار الصحابة:

* أبو عبيدة بن الجراح، ووجهه إلى حمص.

* عمرو بن العاص، ووجهه إلى فلسطين.

* شُرْحَيْل بن حسنة، ووجهه إلى الأردن.

* يزيد بن معاوية، ووجهه إلى البلقاء.

والله لأنسِين الروم وساوس الشيطان بخالد

وعندما نَمَتْ أخبار هذه الجيوش إلى إمبراطور الروم، عبَّأ جيشًا جرارًا قوامه مائتين وأربعين ألفًا - قرابة الربع مليون - ليقاتل جند المسلمين الذين لا يزيدون عن الثلاثين ألفًا. فأرسل قادة المسلمين إلى الخليفة بهذا الوضع الرهيب، وطلبوا منه المدد. فقال الصديق: «خالد لها، والله لأنسِين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد».

وأمر خالد أن يتوجه إلى الشام، فتلقى خالد أمر خليفة رسول الله ﷺ وترك على العراق «المثنى بن حارثة»، ومعه نصف قواته ليزحف هو إلى الشام بالنصف الآخر.

مسافة يومين في يوم واحد

وما كان خالد بن الوليد بالذي يُضيع وقتًا - قل أو كثر - إذا طُلب منه أمرٌ من الأمور. فلما أتاه أمر الخليفة بالتحرك إلى الشام. وكان بينه وبينها يومئذ حوالى ستمائة ميل، فقطع هذه المسافة في خمسة أيام، وهو الأمر الذي يحتاج إلى حوالى أسبوعين. فكان يطوي الأرض طيًّا، ويختار أقصر الطرق وإن كانت ليست بأيسرها، فكان يسير بجنده - كما يُقال - مسافة اليومين في يوم واحد.

في الشام: نُبل أخلاق صحابة رسول الله ﷺ

كان الصديق رضي الله عنه قد أرسل إلى أبي عبيدة بن الجراح يُخبره بقدوم خالد، وإنه ولآه قيادة جيوش المسلمين.

فلما وصل خالد بجنده إلى الشام، لقي أبا عبيدة وقال له: «أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالسير إلى الشام والقيام على جندها، والله ما طلبت ذلك قط، فأنت على حالك وأنت سيد المسلمين، لا يُنكر فضلك ولا يُستغنى عن رأيك». فإرد أبو عبيدة ويقول: «ولكنك أعلم بفنون القتال مني».

وعلى الرغم من أن الخليفة أمر خالدًا على رأس الجيش بكل أمرائه، إلا

أن خالداً لم يشأ أن يكون عوناً للشيطان على أنفُس أصحابه. فتنازل عن حقه الدائم في الإمارة وجعلها دُوْلَةً بينهم جميعاً، اليوم أمير، وغداً أمير، وهكذا. واتفق الجميع على أن يبدؤوا بإمارة خالد عليهم.. فما أروعها من أخلاق نبيلة، وإيثار، وإنكار للذات من هؤلاء «الصحب الكرام» الذين تربوا وتخرجوا من مدرسة الحبيب المصطفى ﷺ.

موقعة اليرموك

والآن عزيزي القارئ، أرجو أن تستمتع بقراءة الصفحات التالية مع هذه المعركة الحاسمة الفاصلة في الصراع مع الإمبراطورية الرومانية، والتي فيها من الأحداث والعبر، والرقي في التعامل بين أصحاب مُعَلِّم البشرية ﷺ الكثير والكثير.

الاستعداد للمعركة واللقاء غير المتكافئ

ويبدأ خالد في تنظيم صفوف جنوده الذين وصل عددهم بعد إضافة جند العراق إلى ستة وثلاثين ألفاً، للقاء هذا الجيش الجرار - مائتين وأربعين ألفاً - فكيف لهذه الفئة القليلة أن تغلب الفئة الكثيرة؟! ستعلم عزيزي القارئ بعد قليل الإجابة على هذا السؤال...

ليلة المعركة

وبعد أن نظَّم سيف الله الصفوف، ووضع الخطط، وقسم الجيش إلى ٣٦ فرقة، في كل فرقة ألف جندي، وجعلهم ميمنة وميسرة وقلب. وفي المساء وبعد هذا الإعداد العسكري.

بدأ خالد في الإعداد الروحي والنفسي لجنوده:

* فأمرهم بقراءة سورة الأنفال؛ لما فيها من عبر وأحداث، خاصة ما كان في يوم بدر.

* دعا كل قائد مجموعة أن يعظ جنوده.

* دعا كبار الصحابة أمثال معاذ بن جبل والقعقاع بن عمرو وغيرهما أن يعظوا الناس.

* نصح جنده بأن يقضوا ليلتهم بين قائم يصلي، وبين ذاكر لله يسبح بحمده، مع الدعاء والقنوت.

مشاهد من قلب المعركة

وفي الصباح اشتبك الجيشان، وتبدأ الملحمة التي وقف أمامها التاريخ مذهولاً، وأُفردت لها مجلدات تصف البطولات والمواقف الخارقة، بين هذه الفئة القليلة المؤمنة، وبين قوى الشر التي أقبلت في فيالق كالجبال، لكن بدا لهم من المسلمين ما لم يكونوا يحتسبون.

وهاك بعض من مشاهد هذه المعركة:

* هجوم فدائي من خالد

ولوى خالد زمام جواده، ورفع اللواء عالياً مؤذناً بالقتال. ولَبَّثَّ الروح في جنوده، قام بهجمة فدائية مفاجئة من القلب ومعه مئة فقط من الرجال، اختارهم بعناية للهجوم على ميسرة الروم وبها أربعين ألفاً. وقتل منهم خلقاً كثيراً. وكانت هذه هي الشرارة التي أشعلت المعركة، وفتَّتْ في عضد الرومان.

* هل لك من حاجة أبلغها رسول الله ﷺ؟

ويقترَب أحد الصحابة من أبي عبيدة بن الجراح والقتال دائر ويقول له: إني عزمت على الشهادة، فهل لك من حاجة إلى رسول الله أبلغها له حين ألقاه؟ فيجيب أبو عبيدة: نعم، قل له: يا رسول الله، إننا وجدنا ما وعد ربنا حقاً. ويندفع الرجل كالسهم يضرب بسيفه حتى يرتقي شهيداً.

* من يُبايع على الموت؟

وهذا عكرمة بن أبي جهل.. أجل ابن أبي جهل، أشد أعداء الإسلام، وهذا ابنه اليوم سند ودرع للإسلام والمسلمين..

ينادي عكرمة في المسلمين، وقد ثقلت وطأة الروم عليهم قائلاً: «لطالما قاتلت رسول الله ﷺ قبل أن يهديني الله إلى الإسلام، أفأفِرُّ من أعداء الله اليوم؟! ثم يصيح: مَنْ يُبايع على الموت؟». فيبايعه على الموت كوكبة من المسلمين. ثم ينطلقون معاً إلى قلب المعركة، يطلبون الشهادة، ويتقبل الله بيعتهم فيستشهدون، بعد أن قتلوا من الروم مقتلة كبيرة.

* يؤثرون على أنفسهم

وتلك لوحة أخرى من صور الفداء والإيثار، فهؤلاء مجموعة أُصيبوا بجروح أليمة، وجيء لهم بماء ليشربوا. فلما قُدِّم الماء إلى أولهم، أشار للساقى أن أعطِ أخي الذي بجواري، فجرحه أخطر وظمؤه أشد. فلما قدم الماء إلى جاره أشار به إلى جاره الآخر. وهكذا حتى فاضت أرواح أكثرهم ظمئة، ولكنها أنضرت ما تكون تفانياً وإيثاراً.

بِمَ سُميت سيف الله؟

ويستمر القتال، وتُبهر عبقرية خالد قوَّاد الروم وأمراء جيوشهم. مما حمل أحدهم واسمه «جُرْجة» أن يطلب لقاء خالد في إحدى فترات الراحة بين القتال. وحين يلتقيان يوجّه القائد الروماني حديثه إلى خالد قائلاً: يا

خالد اصدقني، ولا تكذبني، فإن الحُرَّ لا يكذب. هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاك إياه، فلا تَسْأَلُه على أحدٍ إلا هزمته؟
خالد: لا.

جُرْجَة: فِيمَ سُميت سيف الله؟

خالد: إن الله بعث فينا رسول الله ﷺ، فمننا من صدَّقه ومننا من كذَّبه، وكنت فيمن كذَّبه، حتى أخذ الله قلوبنا إلى الإسلام وهدانا فبايعناه. فدعا لي رسول الله ﷺ وقال: «أنت سيف من سيوف الله»؛ فهكذا سُميت سيف الله.

جُرْجَة: وإلامَ تدعون؟

خالد: إلى توحيد الله وإلى الإسلام.

جُرْجَة: هل لمن يدخل في الإسلام اليوم مثل ما لكم من المثوبة والأجر؟
خالد: نعم وأفضل.

جُرْجَة: علمني الإسلام يا خالد.

وأسلم جُرْجَة القائد الروماني وصلى ركعتين، لم يُصَلِّ سواهما وقاتل، ولكنه في هذه المرة قاتل في صفوف المسلمين ضد الرومان. ويقاقل قتالاً مستميتاً حتى نال الشهادة وظفر بها.

عطاء الفضل

وكان نصر الله للمؤمنين نصراً مبيناً، بالرغم من قلة العدد والعتاد (٣٦ ألفاً مقابل ٢٤٠ ألفاً)، فما كان ذلك إلا من فضل الله الذي يختص بفضله من يشاء من عباده.

يقول الشيخ الشعراوي - رحمه الله -: « إِنَّ عطاء الله لعباده نوعان؛ الأول، عطاء أسباب وهذا يمنحه لكل خلقه؛ مؤمنهم وكافرهم، كُلُّ حسب اجتهاده وحسب أخذه بأسباب النجاح. أما الثاني، فهو عطاء الفضل، وهو ما يختص الله به أوليائه. وهو عطاءً يمنحه الله من فضله وكرمه الواسع، ليس على قدر الجهد والقوة».

ويستدل الشيخ الشعراوي على ذلك بقوله تعالى لمريم: { **وَهَزِيْ اِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا** } [مريم: ٢٥]؛ فأى قوة لدى هذه السيدة الضعيفة، وهي في مخاضها تستطيع بها أن تهز جذع النخلة لتساقط عليها رُطْبًا جَنِيًّا؟ ... إنما هو عطاء الفضل ...

فكان هذا هو عطاء الفضل الذي مَنَّ الله به على هؤلاء «الصحب الكرام»، ونصرهم بفضله..

وفاة أبي بكر وعزل خالد

وهنا يخوض سيف الله معركة أخرى، ولكنها هذه المرة ليست ضد قواد الفرس ولا جحافل الرومان، إنما يخوضها ضد النفس والهوى.. وهي أشد وأكثر ضراوة من أي معركة أخرى. ولكنه البطل «سيف الله المسلول» ينتصر كذلك في هذه المعركة، كما هو عهده في كل معركة خاضها.

خطاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

وفي الوقت الذي كان خالد يقود جيش المسلمين في هذه المعركة الضارية، ويستل النصر من أنياب الروم. يأتي البريد بخطاب أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب»، وفيه نعيه خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق، ثم أمره بعزل خالد عن قيادة جيوش المسلمين، وتولية أبا عبيدة بن الجراح مكانه.

عقارب الساعة تتقدم ١٤٠٠ سنة

والآن عزيزي القارئ، فلنقف بالأحداث هنيهة عند هذا الموقف المهيّب. ولنُجري عقارب الساعة ألف وأربعمائة عام للأمام لتصل بنا إلى يومنا هذا...

فلنأخذ نفس هذا الموقف لنرى ردود الأفعال المحتملة لمثل هكذا موقف
لو حدث في أيامنا هذه:

* قائد عام للجيش، منتصر، ولا غبار عليه ولا على سيرته، ويأتي
الأمر من الحاكم بعزله من القيادة، وتحويله إلى جندي عادي.
* يُولي الحاكم قائداً آخر لقيادة الجيش مكانه.
فلنرى ما يمكن أن يحدث:

أولاً: القائد الذي تولى المنصب الجديد، ستجده يريد أن يتقلده بالأمس
قبل اليوم، وخاصة وأن المعركة في نهايتها، والنصر على الأبواب.
وذلك حتى يُنسب هذا النصر له، ويسجل التاريخ أنه تحت قيادة
الزعيم والقائد الملهم.. إلى آخر هذه الألقاب، قد تم النصر على يديه.
ثانياً: هذا القائد المعزول، ولو تخيلناه في أحسن الأحوال، وأنه رجل
غاية في الرُقي والأخلاق، سوف يقول: إخواني، قد قدمت كل ما في
وسعي، والآن لا حاجة لي بكم، فأروني كيف ستعملون بدوني؟ أنا منتظر
لأرى!!

وذلك بالطبع مع آمنياته بالفشل والتراجع لمن حَلَّ مكانه.
ناهيك عن تكوين ميلشيات وجماعات مسلحة مؤيدة له، ومناهضة
للحاكم. إلى آخر ما نراه في أيامنا هذه..

ثالثًا: الحاكم الذي أصدر هذا الأمر، غالبًا ما يكون عنده بعض الخلافات والمسائل الشخصية بينه وبين هذا القائد المعزول، مما دفعه لاتخاذ هذا القرار المفاجئ ضده..

ألا تتفقون معي... أليس الأمر كذلك، لو حدث مثل هذا الموقف في أيامنا هذه؟!!

والآن أعزائي، فلنعود إلى صحبة من تربوا وتعلمذوا على يد خير مُعَلِّم عرفته البشرية، أصحاب رسول الله ﷺ. لنرى كيف كانت ردة فعلهم لهذا الحدث الجلل.

زهد في الإمارة

* لما تلقى أمين الأمة «أبو عبيدة بن الجراح» هذا الخطاب، طلب من مبعوث عمر أن يستكنم هذا الخبر. وكنم أبو عبيدة الخبر في نفسه، طويًا عليه صدر زاهد، فطن، أمين.. فالنصر على الأبواب، وهو لا يريد ارتباك في صفوف الجند بتغير القيادات في هذا الوقت الحرج.

* ولما انتهت المعركة وأتمَّ القائد خالد بن الوليد فتحه العظيم، تقدم إليه أبو عبيدة في أدب جليل بكتاب عمر بن الخطاب ﷺ.

* فلما قرأ خالد الخطاب، قال لأبي عبيدة: «يرحمك الله يا أبا عبيدة،

أتاك كتاب أمير المؤمنين، ولم تخبرني وتصلي خلفي، وتأتمر بأوامري
والسلطان سلطانك؟»

وتقدم البطل من أبي عبيدة مؤدياً إليه تحية الجندي لقائده، وقال: «إنا
سنفتح الشام، إنا نفتحها لله، وليس لعمر بن الخطاب». واستمر خالد يعمل جندياً تحت إمرة أبي عبيدة حتى آخر أيامه.



ولعل في هذا الموقف عزيزي القارئ الإجابة على السؤال الذي طرحناه
من قبل: كيف لهذه الفئة القليلة أن تغلب فئة كثيرة؟
فلعلك أدركت الآن كيف لجيش قوامه ستة وثلاثين ألفاً يهزم جيشاً
قوامه قرابة الربع مليون.. فالجميع يعمل بإخلاص وجدِّ، لا لأجل
منصب، أو جاه، أو شهرة، إنما العمل كله خالص لوجه الله.
فالإمارة كالجندية في عقيدة أصحاب رسول الله ﷺ، كلاهما سبب
يؤدي به واجبه نحو الله الذي آمن به، ونحو رسوله الذي بايعه، ونحو
الدين الذي اعتنقه وسار تحت رايته.

فلعلنا أعزائي لو تحلينا بمثل هذه الأخلاق، واتبعنا هذه المثل، ووضعنا
حب الذات وشهوة السلطة جانباً، وأخلصنا العمل لله في كل مناحي

الحياة، لكان لهذه الأمة شأن آخر..

* لم أعزل خالدًا عن سخطه ولا خيانه

أما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي ملأ عدله وإخلاصه لدين الله كل الآفاق، فقد كانت قضية التوحيد والإيمان بالله وحده لا شريك له، هي شاغله الأول. فبعد عزل خالد، أرسل في الأمصار يأمر ولاته أن يعلنوا فيها باسمه: «أني لم أعزل خالدًا عن سخطه ولا خيانه، ولكن الناس فُتنوا به، فخشيت أن يوكلوا إليه. فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنة».

ليس ذلك فحسب، بل ذكر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خالدًا وهو يجود بأنفاسه الأخيرة، وقال: «لو أن خالدًا حيًّا لوليته عليكم، وإن سألتني ربي، سأقول: يا رب إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سيف من سيوف الله خالد بن الوليد».

فرحمة الله وبركاته عليكم يا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين، فكلكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم مُرتحق.

الفصل الأخير

فتح دمشق وحمص

واستمر خالد يعمل تحت إمرة أبي عبيدة بن الجراح، وتم فتح دمشق، ثم من بعدها حمص، وقد أبلى خالد بلاءً حسناً، وظل على عهده وطبائعه التي جُبل عليها من شجاعة وإقدام وذكاء، شهد به الأعداء قبل الأصدقاء. فلما كان أميراً كان يحمل شظف الجندي وتواضعه. ولما كان جندياً كان يحمل مسؤولية الأمير وقدرته.

حمص : المحطة الأخيرة

ويقضي البطل أيامه الأخيرة في حمص، ولم يغادرها إلا قليلاً ليعود إليها. خاصة لما تفشى وباء الطاعون بالبلاد. ف قضى بها آخر أربع سنوات من عمره.

مع البطل في أيامه الأخيرة

وبعد حياة طويلة مليئة بالجهاد والبذل والتضحية، أن لهذا الجسد المثقل بالآلام والجراح أن يستريح، أن لجسده أن ينام وهو الذي كان يصفه أصحابه وأعداؤه: «بالرجل الذي لا ينام، ولا يترك أحداً ينام».

فلا نامت أعين الجبناء!

فلم يُمهّل المرض بطلنا، فنام على فراش الموت. هنالك قال ودموعه تنحدر من مقلتيه: «لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة سيف، أو طعنة رمح، أو رمية سهم. ثم هاأنذا أموت على فراشي حتف أنفي، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء!»!

الوصية الأخيرة

وحين كان البطل يستقبل لحظات الرحيل، شرع يُملي وصيته.. أتدرون ماذا كانت تركته؟! كانت فرسه وسلاحه!!
وقد أوصى بها أن تكون وقفاً للجهاد في سبيل الله. فإن كان جسده سيغيب عن الجهاد، فليبقى فرسه وسلاحه للجهاد في سبيل الله.
ويجود البطل بآخر أنفاسه، وقد بلغ من العمر ٦٥ سنة، وكان ذلك في عام ٢٢ من الهجرة.

عمر يبكي خالداً

ولما نعى الناعي لعمر خبر وفاة خالد، وعلم بما أوصى به من فرسه وسلاحه.. بكى بكاءً شديداً، وقال: «رحم الله أبا سُلَيْمان، كان على ما ظنناه

منه». وقال: «كان والله سدَّاداً لنحور الأعداء، ميمون النقيية». ولما اجتمع بنات عم خالد يبيكين فقبل لعمر: أرسل إليهن فانهن، فقال: «دعهن يبيكين على أبي سُليمان، فعلى مثل أبي سُليمان تبكي البواكي».



وهكذا تُطوى هذه الصفحة الناصعة من تاريخنا، على بطل كان في التاريخ العسكري مكان الطليعة بين أكبر القواد الذين اشتهروا بالفن والعبقرية..

فرحمة الله وبركاته عليك يا أبا سُليمان

رحمة الله على سيف من سيوف الله

ورضي الله عنك وأرضاك يا «خالد بن الوليد»

سلمان الفارسي

والآن عزيزي القارئ، فلنهبط على بستان آخر من بساتين هذه الصحبة العطرة. فبطلنا هذه المرة يأتي من بلاد فارس، إنه الباحث عن الحقيقة الساعي وراءها. والذي ضحَّى في سبيلها بكلِّ غالٍ ونفيس. ففاز بصحبة «خير الأنام» ﷺ، ونال شرف الانتماء إلى أهل بيته الأطهار.. إنه «سلمان الفارسي» ﷺ.

نشأته

نشأ سلمان ﷺ في مدينة أصفهان أو أصبهان - مدينة بوسط إيران بين طهران وشيراز - من قرية يقال لها «جَيَّان». وكان أبوه رئيس هذه القرية - دهقانها -، وأكثر أهلها غنى، وأعلاهم منزلة. وكان أبوه كما كان سلمان قد توغل في المجوسية، حتى إنه كان المسؤول عن إشعال النار وبقائها مشتعلة ليلاً ونهاراً؛ ليعبدها الناس. وهو ما زاده شرفاً بين أهله. فنشأ سلمان ﷺ في ترفٍ من العيش وسط هذه الأسرة عالية الشرف، عزيزة المقام.

رحلة الباحث عن الحقيقة

وتبدأ رحلة الباحث عن الله مبكراً، وهو فتى صغير، فلم يكن عقل ولا قلب سلمان يرتاح لعبادة النار والأوثان التي يعبدها قومه، رغم أن أبوه كان قائدهم.

نفحات الإيمان تطرق الأبواب

لقد كان أبوه يحبه حباً جماً، حتى إنه كان يحبسه؛ خشيةً عليه، فلا يخرج ولا يخالط الناس. وكان لأبيه ضيعةً عظيمة خارج المدينة، وكان يقوم عليها بنفسه ويجني غلتها. وفي يوم شغله عن الذهاب إليها شاغل. فقال لسلمان: «يا بُنَيَّ إني قد شُغلت عن الضيعة فاذهب إليها وتولى عني شأنها». ويخرج سلمان قاصداً الضيعة، وفيها هو في بعض الطريق مرّاً بكنيسة من كنائس النصراني، فسمع أصواتهم وهم يصلون، فدخل لينظر أمرهم. فلما تأملهم أعجبتهم صلاتهم ورغب في دينهم. وكان نفحات الإيمان بدأت تطرق الأبواب. فقال في نفسه: «والله هذا خير من الذي نحن عليه».

أين أصل هذا الدين؟

وظل سلمان معهم طوال اليوم، حتى غربت الشمس ولم يذهب إلى ضيعة

أبيه. ثم سألهم: أين أصل هذا الدين؟ فقالوا: في بلاد الشام. فلما عاد إلى المنزل وحدث أباه بما رأى وما سمع، فخشى أباه عليه من أن يترد عن دينه. فحبسه ووضع قيداً في رجله.

بداية الرحلة

ومن محبسه بعث سلمان إلى النصارى يقول لهم: «إذا قدم عليكم ركب يريد الذهاب إلى الشام فأعلموني». فما هو إلا قليل حتى قدم عليهم ركب متَّجه إلى الشام فأخبروه. ونجح في الاحتيال على قيده، وخرج معهم متخفياً حتى بلغ بلاد الشام.

في الشام

ولما نزل بالشام سأل: مَنْ أفضل رجل من أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف راعي الكنيسة. فذهب إليه، وطلب منه أن يلزمه ويكون في خدمته، ويتعلم منه ويصلي معه. فوافق الأسقف وقضى سلمان معه بعض الوقت. ثم ما لبث أن عرف أنه رجل سوء، يأمر أتباعه بالصدقة ويرغبهم في ثوابها، فإذا أعطوه منها شيئاً اكتنزه لنفسه ولم يُعطِ الفقراء منها شيئاً. فأبغضه سلمان بغضاً شديداً. وما لبث أن مات هذا الأسقف، فلما اجتمعت النصارى

لدفنه قال لهم: إن صاحبكم كان رجلٌ سُوءٌ، يأمركم بالصدقة ويكتنزها لنفسه، ولا يُعطي المساكين منها شيئاً. قالوا: وما دليلك على هذا؟ قال: أنا أدلكم على كنزهِ. فدلهم عليه واستخرجوا سبع قِلال مملوءة ذهباً وفضة. فلما رأوها صلبوه ورجموه بالحجارة. وقالوا: «والله لا ندفنه». ونصبوا رجلاً آخر مكانه.

ولم تؤثر هذه الواقعة في فكر وعقل سلمان، فما زال متمسكاً بنصرانيته، وإن شذ بعض أهلها.

وظل ملازمًا للأسقف الجديد، وكان رجلاً زاهداً في الدنيا ومنقطعاً للعبادة، فأحبه سلمان حباً جمًّا وبقي معه زماناً. ولما حضرته الوفاة سأله سلمان: إلى مَنْ تُوصي بي، ومع مَنْ تنصحني أن أكون من بعدك؟ فقال له: لا أعرف أحداً على ما كنت عليه إلا رجلاً بالموصل. فالحق به، ودلّه على اسمه.

في الموصل

ولما مات صاحبه، ذهب سلمان إلى الرجل الذي أوصاه أن يلحق به في الموصل. فلما قدم عليه فقَصَّ عليه قصته، وأقام عنده ووجده على خير حالٍ. فلما حضرته الوفاة سأله سلمان: لقد جاءك من أمر الله ما ترى، وأنت

تعلم من أمري ما تعلم، فإلى مَنْ توصي بي؟، ومَنْ تأمرني باللحاق به؟ فقال له: أي بُني، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين - مدينة على طريق القوافل بين الموصل والشام - هو فلان، فالحق به.

في نصيبين وعمورية

ويستمر سلمان في رحلة البحث عن الحقيقة، ويذهب كما أوصاه صاحبه إلى نصيبين، وقضى بها ما قضى من الزمن، ولما حضرت الوفاة الرجل الذي يقيم عنده، سأله كما سأل من سبقوه، فأوصاه بالذهاب إلى عمورية. ويذهب سلمان إلى عمورية، فلما حضرت الوفاة أسقف عمورية فسأله سلمان: إلى من توصي بي، وما تأمرني أن أفعل؟

أظَلَّ زمان نبي يُبعث بدين إبراهيم

فقال الرجل: يا بُني والله ما أعلم أن هناك أحداً من الناس بقي على ظهر الأرض متمسكاً بما كنا عليه. ولكن أظَلَّ -أي: دنا وقرب- زمانٌ يخرج فيه بأرض العرب نبي يُبعث بدين إبراهيم، ثم يُهاجر إلى أرض ذات نخل بين حَرَّتَيْن، وله علامات ثلاثة لا تخفى:

* فهو لا يأكل الصدقة.

* ويأكل من الهدية.

* بين كتفيه خاتم النبوة.

فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. وما لبث الرجل أن وافاه الأجل، ومكث سلمان بعمورية وقتاً من الزمان، إلى أن مرَّ بها نفرٌ من تجار العرب.

الرحلة تقرب من مُنتهاها

فسألهم أن يحملوه معهم إلى أرض العرب، وقال لهم: إن حملتموني معكم، أعطيتكم بقراتي هذه وغنمي. فحملوه معهم، حتى إذا بلغوا «وادي القرى» - وادٍ بين المدينة والشام - غدروا به وباعوه عبداً إلى رجل من اليهود.

وهكذا أصبح من كان يوماً فتىً مُدلاً يعيش عيشة الترف والبذخ، أصبح عبداً يُباع ويُشترى.. لكنها الحقيقة والفوز بنور اليقين، التي لا بد لها من ثمن..

أما سلمان، فلم يُبالٍ فالتحق باليهودي، وظل في خدمته إلى أن زاره يوماً ابن عم له من بني قريظة. فأعجبه هذا العبد القوي فاشتراه منه. ونقله معه إلى يثرب.

في المدينة المنورة

وهكذا ظل سلمان رضي الله عنه باحثاً عن الحقيقة، وضحَّى من أجلها ما ضحى، وعانى ما عانى، حتى قاده القدر إلى مُنتهاه وغايته.

ويدخل سلمان يثرب، وما أن رأى النخل بين الحرتين حتى تذكَّر وصف صاحبه بعمورية لها. فأيقن أنه يقترب من غايته ومُنتهاه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ ما يزال بمكة، ثم ما لبث أن هاجر إلى يثرب.

وأثناء عمل سلمان عند اليهودي، وكان وقتها في أعلى نخلة، وسيده جالس تحتها إذ أتاه أحد أصدقائه اليهود وقال له: إن الناس مجتمعون بقباء على رجل قدم إليهم من مكة يزعم أنه نبي!!

وما أن سمع سلمان هذه المقالة، حتى مسَّه ما يشبه الحمَّى، وكاد يسقط من فوق النخلة، فبادر بالنزول، وجعل يسأل الرجل: ماذا تقول؟ أعد عليَّ الخبر. فغضب منه سيده ونهَّره قائلاً: ما لك ولهذا؟ عد إلى عملك.

لقاء الحبيب صلى الله عليه وسلم

وحان وقت اللقاء الذي سعى إليه سلمان رضي الله عنه سنوات وسنوات من عمره. ففي المساء أخذ شيئاً من تمر وتوجَّه به إلى قباء؛ حيث ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليه وقال له: «إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك

غرباء، ذُوو حاجة، وهذا شيء للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم»، فأخذه رسول الله ﷺ، وقال لأصحابه: «كلوا». وأمسك يده فلم يأكل منه شيئاً. فقال سلمان لنفسه: هذه واحدة.

ولما وصل رسول الله ﷺ من قباء إلى المدينة، أخذ سلمان بعض التمر وذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له: أني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. فأكل منها رسول الله ﷺ، وأمر أصحابه أن يأكلوا معه.. فقال سلمان في نفسه: وهذه الثانية، ثم ظل يزور رسول الله ﷺ آملاً أن يرى العلامة الثالثة؛ (خاتم النبوة)..

فجاء يوماً إلى رسول الله ﷺ وهو بالبقيع وهو يوارى أحد أصحابه فرآه جالساً وعليه شملتان، مؤتزراً بواحدة، ومرتدياً الأخرى. فسلم عليه ثم استدار ينظر إلى ظهره لعله يرى الخاتم الذي وصفه له صاحبه في عمورية. فلما رآه رسول الله ﷺ ينظر إلى ظهره عرف غرضه، فألقى رداءه عن ظهره، فإذا بالعلامة (خاتم النبوة) بين كتفيه.

فانكب سلمان على رسول الله ﷺ يقبله ويبكي. وقال له: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله».

سلمان منا أهل البيت

ولما قصَّ سلمان على رسول الله ﷺ قصته، أعجب بها وسرَّه أن يسمعها

أصحابه، فعجبوا أشد العجب، وقال الأنصار: سلمان منا- لأنه كان بالمدينة وقت وصول رسول الله ﷺ إليها-. وقال المهاجرون: سلمان منا-؛ لأنه هاجر من بلاد الفرس إلى الشام ثم إلى العراق حتى وصل المدينة-. وهنا ينال سلمان أكبر شرف، وأعلى وسام... فلما رأى رسول الله ﷺ احتجاج الأنصار والمهاجرين في سلمان قال: «سلمان منا أهل البيت». وهكذا كانت رحلة الباحث عن الحقيقة.. وإن كنا لا نعلم على وجه التحقيق الزمن الذي قضاه سلمان من وقت خروجه من قريته بأصفهان حتى وصوله إلى المدينة. يُقال عشر سنين، والبعض يقول إنها عشرون عاماً. وأياً كان الوقت والعمر الذي قضاه، فما يهمننا هو قضية الإصرار والسعي وراء الحقيقة، وبذل كل غالٍ ونفيس للفوز بهذا الدين الحنيف، الذي نحمد الله على أن هدانا إليه وإن كنا لم نبذل كل هذا الجهد وكل هذه التضحيات. فله المنَّة والفضل من قبلُ ومن بعدُ.



سلمان يُعتق من أسر العبودية

وشغل الرقُّ سلمان فلم يحضر بديراً ولا أحداً. فقال له رسول الله ﷺ: «كاتب صاحبك يا سلمان» -أي: اتفق معه على أن يعتقك مقابل قدر من المال-، فكتب سلمان اليهودي على ثلاثمائة نخلة يزرعها له، وأربعين أوقية

من الذهب. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أعينوا أخاكم»، فأعانوه بالنخل، فهذا يأتيه بثلاثين ودية - شتلة - وهذا يأتيه بعشرين، وهكذا حتى تجمع له الثلاثمائة ودية. فقال له رسول الله ﷺ: «أذهب يا سلمان فنقر لها - أي: جهز مكان غرسها-، فإذا فرغت فأتني أكون أنا أضعها بيدي». فذهب سلمان فنقر لها وأعانته أصحابه، فلما فرغ منها جاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فخرج معه رسول الله ﷺ ووضعها بيده الشريفة. يقول سلمان: «فوالذي نفس سلمان بيده، ما ماتت منها ودية واحدة». ويؤدي سلمان النخل، ويبقى المال - أربعين أوقية من الذهب - . فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب، وقال لسلمان: «خذ هذه يا سلمان فأدِّبها ما عليك». فأخذها سلمان وأوفى اليهودي حقه، وعتق من العبودية ليصبح حرًّا.

أعماله مع رسول الله ﷺ

شهد سلمان بعد أن أعتق كل المشاهد مع رسول الله ﷺ لم يفته منها شيء. ولقد أظهر من البطولات والشجاعة والذكاء الكثير، ليسطر التاريخ بأحرفٍ من نور كل هذه المواقف وتلك البطولات.

فكرة حفر الخندق

وتأتي موقعة الخندق - الأحزاب - والتي كان لسلمان فيها دور البطولة المطلقة. وقام بعمل عظيم لا ينساه التاريخ على مرِّ العصور والأزمان. فلما اجتمعت الأحزاب من قبائل قريش وغطفان وبنو سليم وبنو أسد وغيرهم، وقرروا غزو المدينة في عشرة آلاف يقودهم أبو سفيان. وكان هذا العدد كفيلاً بالقضاء على المدينة بكل من فيها. فاشتد الخطب على المسلمين، ورأوا أنفسهم في موقف صعب، فجمع رسول الله ﷺ أصحابه ليشاورهم في الأمر. وبالطبع أجمعوا على الدفاع والقتال، ولكن أتى لهم الدفاع مع هذا العدد الهائل الذي لم تعرف العرب مثله من قبل؟

هنا تقدم البطل «سلمان الفارسي» وألقى من فوق هضبة عالية نظرة فاحصة على المدينة، فألفاها مُحصنة بالجمال والصخور المحيطة بها. بيدَ أن هناك فجوة واسعة ومُهَيَّأة، يستطيع جيش الأعداء أن يقتحم منها في يسرٍ.

وكان سلمان قد علم الكثير من بلاده «فارس» من وسائل الحرب والخداع. فتقدم إلى رسول الله ﷺ وقال له: «يا رسول الله، إنا كنا بفارس إذا حُوصِرْنَا خَنَدَقْنَا علينا». وكان مقترحه العبقرى بحفر الخندق، ليغطي المنطقة المكشوفة حول المدينة. وهو أمرٌ لم تعهده العرب من قبل في حروبها.

الله أكبر.. أُعْطيت مفاتيح فارس

ويُقر رسول الله ﷺ خُطة سلمان، ويبدأ المسلمون ومعهم سلمان الذي كان قوي البينة، وكانت ضربة واحدة من ساعده القوي تفلق الصخر وتثره. ولكنه وقف أمام هذه الصخرة عاجزاً، وحاول هو ومن معه فلم يستطيعوا كسرها. فذهب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يغير مجرى الحفر تفادياً لتلك الصخرة العنيدة، ويذهب رسول الله ﷺ مع سلمان ليُعاین الصخرة، فدعا بمعول ورفع يده الشريفتين وهوى على الصخرة، فإذا بها تنكسر ويخرج من ثنايا صدعها الكبير وهج عالٍ مضيء. يقول سلمان: «لقد رأيت الوهج يضيء جوانب المدينة».

وهنا هتف رسول الله ﷺ مكبراً: «الله أكبر، أُعْطيت مفاتيح فارس»، وتكررت الظاهرة، ومع ثاني ضربة لرسول الله ﷺ برقت الصخرة المتصدعة بوهج مضيء مرتفع، وهلل رسول الله ﷺ مكبراً: «الله أكبر، أُعْطيت مفاتيح الروم»، ثم ضَرَب الثالثة فتفتت الصخرة وأضاء برقها الشديد الباهر. وهلل رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وأنبأهم أنه يُبصر قصور الشام وإيوان كسرى.. وقد صدق الله ورسوله وفتحت تلك البلاد. وكان سلمان ؓ صاحب مشورة حفر الخندق، وصاحب الصخرة التي تفجرت منها بعض أسرار الغيب والمصير حين استعان عليها برسول الله

وكان قائماً إلى جوار رسول الله ﷺ يرى الضوء ويسمع البُشرى.. وعاش حتى رأى البُشرى حقيقة يعيشها واقعاً يحياه. والله ﷻ وحده هو الذي يعلم ماذا كان المصير الذي ينتظر المسلمون في تلك الغزوة لو لم يحفروا الخندق، الذي لم تكد قريش وأحزابها تراه حتى أُسقط في أيديهم، وكاد صوابهم يطير من هول المفاجئة. فضلت قواتها جاثمة في خيامها شهراً، وهي عاجزة عن اقتحام المدينة، حتى أرسل الله عليها ريحاً صرصراً عاتية، اقتلعت خيامهم وبددت شملهم. فنادى أبو سفيان في جنوده أمراً بالرحيل، فولَّوا على أدبارهم منهزمين.

مع الخلفاء الراشدين

لقد عاش سلمان رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ منذ التقاه وآمن به مسلماً حرّاً، ومجاهداً وعابداً، وقد شهد معه المشاهد كلها، حتى مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنه. ثم عاش من بعدها مع خليفته «أبي بكر»، ثم مع أمير المؤمنين «عمر»، ثم مع أمير المؤمنين «عثمان» حتى لقي ربه.. وقد شهد مع الخلفاء الراشدين فتوحات الفرس والرومان، وقد أبلى بلاءً حسناً. وكان مثال الجندي المقاتل العابد الزاهد في كل الفتوحات.

أخلاقه وفضائله

كان لسلمان رضي الله عنه الكثير من الفضائل، والأخلاق الحميدة التي ما أحوجنا إلى الاقتداء بها واتباعها.

فلنعرض لبعض من هذه الفضائل:

١ - حب رسول الله صلى الله عليه وسلم له

لقد كان حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لسلمان رضي الله عنه حباً جمًّا، من يوم أن قصَّ عليه قصته وقبله وبكى وأسلم بين يديه.

بشرى بالجنة

وقد بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة فقال: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة؛ عليّ وعمار وسلمان». فما أعظمها من بشرى، وأي شرف أعظم من تلكم البشرى.

٢ - علمه

لقد امتنَّ الله تعالى على سلمان رضي الله عنه بسعة العلم ورجاحة العقل. وهاك بعض المشاهد من سعة علمه:

* لقد أشبعُ سلمانُ علمًا

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آخى بين سلمان وأبي الدرداء. فزار سلمان أبا الدرداء يومًا، وكان أبو الدرداء يقوم الليل كله، ويصوم النهار معظم أوقات السنة،

وكان سلمان يأخذ عليه مبالغته في العبادة على هذا النحو. فحاول سلمان أن يُثني عزمه عن تلك المبالغة، فقال له أبو الدرداء معاتبًا: «أتمنعي أن أصوم لربي وأصلي له؟ فأجابه سلمان قائلاً: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعطِ كل ذي حق حقه». فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «لقد أشبع سلمان علمًا».

* لقمان الحكيم

لما سُئل الإمام علي ؑ عن سلمان قال: «مَنْ لَكُمْ بمثل لقمان الحكيم، ذاك امرؤ منا وإلينا أهل البيت، أدرك العلم الأول، والعلم الآخر، بحر لا يُنزف».

* باقة من مآثراته ؑ

وهذه باقة من أقوال سلمان ؑ، وهي كلمات خرجت من قلب طاهر ولسان ذاكر؛ فهي كلمات من نور، وتدُّ على علم واسع وحكمة بالغة. يقول سلمان:

• «ثلاث أعجبتني حتى أضحكنتني:

- * مؤمِّل دنيا والموت يطلبه.
- * وغافل وليس بمغفول عنه.
- * وضاحك ملء فيه - فمه - لا يدري أساخط رب العالمين أم راضٍ عنه.
- . وثلاث أحزنتني حتى أبكتني:
- * فراق محمد وحزبه،
- * وهول المطلع.
- * والوقوف بين يدي ربي ولا أدري إلى الجنة أم إلى النار».
- . «يا أبا بني عباس، العلم كثير، والعمر قصير، فخذ من العلم ما تحتاج إليه في أمر دينك، ودع ما سواه فلا تُعَانِه».
- . دخل سلمان على صديق له يزوره في مرضه، فقال له: «إن الله ﷻ يبتي عبده المؤمن بالبلاء، ثم يعافيه كفارة لما مضى فيستعبت فيما بقي، وإن الله ﷻ يبتي الفاجر، ثم يعافيه، فيكون كالبعير عقَّله - أي: ربطه - أهله، ثم أطلقوه فلا يدري فيم عقَّله ولا فيم أطلقوه حين أطلقوه».
- . «إذا أسأت سيئة في سريرة، فأحسن حسنة في سريرة، وإذا أسأت سيئة

في علانية، فأحسن حسنة في علانية؛ لكي تكون هذه بهذه».

• جاء رجل إلى سلمان فقال له: أوصني. قال: لا تكلم الناس. فقال: لا يستطيع مَنْ عاش في الناس أن لا يتكلم معهم. قال: فإن تكلمت فتكلم بحق أو اسكت. قال: زدني، قال: لا تغضب. قال: إنه ليغشاني ما لا أملكه. قال: فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك. قال: زدني. قال: لا تُتَلَبَسْ الناس. قال: لا يستطيع مَنْ عاش في الناس أن لا يُتَلَبَسَهم. قال: فإن لا يستهم فاصدق القول في الحديث وأدِّ الأمانة.

• سُئِلَ يوماً: ما الذي يُبَغِّضُ الإمارة إلى نفسك؟ فأجاب: «حلاوة رضاعها ومرارة فطامها».

٣- زهده

وتمر السنين ورايات الإسلام تملأ الأفق، وكانت الأموال تُحْمَلُ إلى المدينة فيئاً وجزية، فتوزع على الناس في صورة أعطيات منتظمة ومرتببات ثابتة. وكثرت الأعمال والمناصب. فأين سلمان في هذا الخضم؟ وأين تجده في أيام الرخاء والثراء؟.. لقد ظل زاهداً عابداً جندياً مطيعاً، ولم تُغيِّرْه الأيام ولا الثراء ولا المناصب.

وهالك بعض من صور زهده:

صانع الخوص

ظل سلمان رضي الله عنه يعمل في صناعة الخوص يضفره ويجدله ويصنع منه أوعية ومكاتل. وظل هكذا يعمل بعد أن ولاه عمر بن الخطاب أميراً على المدائن.

راتب أمير المدائن

كان عطاء سلمان رضي الله عنه، أي: راتبه - بين أربعة آلاف وستة آلاف في العام. فماذا كان يصنع بهذه الأموال؟ قد كان يوزعها جميعاً، ويرفض أن يناله منها درهم واحد. ويقول: «أشترى خوصاً بدرهم، فأعمله ثم أبيع بثلاثة دراهم، فأعيد درهماً فيه، وأنفق درهماً على عيالي، وأتصدق بالثالث، ولو أن عمر بن الخطاب نهاني عن هذا ما انتهيت».

يهرب من الإمارة

وكان سلمان رضي الله عنه يهرب من الإمارة زاهداً فيها، ويقول: «إن استطعت أن تأكل التراب، ولا تكون أميراً على اثنين فافعل». ولما كانت الإمارة تُفرض عليه؛ لأنه لا يصلح لها سواه، فيمضي إليها

مُكرِّهاً باكيًا وجلاً، ولما بُلي بهذه الإمارة المفروضة عليه، يرفض أن يأخذ عطاءها الحلال - كما أسلفنا - .

روى هشام بن حسان عن الحسن: كان عطاء سلمان خمسة آلاف، وكان أميراً على ثلاثين ألفاً من الناس، يخطب في عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها.

بيت سلمان

لم يكن لسلمان ﷺ بيت، وكان يستظل بالنفيع. فلما همَّ ببناء بيت، سأل البناء: كيف ستبنيه؟ وكان البناء ذكياً يعرف زهد سلمان وورعه. فأجابه قائلاً: «لا تخف، إنها بناية تستظل بها من الحر، وتسكن فيها من البرد. إذا وقفت أصابت رأسك، وإذا اضطجعت فيها أصابت رجلك». فقال سلمان: نعم، هكذا فاصنع.

فما باله يصنع كل هذا الصنيع ويزهد كل هذا الزهد وهو الفارسي ابن النعمة وريبب الثراء ورغد العيش؟. إنها نعمة الإيمان التي لا تعدلها نعمة، والقرب من الله الذي لا يدانيه أي ثراء..

٤- تواضعه

كان سلمان رضي الله عنه قمة في التواضع، وظل على تواضعه، بل زاده لما كان أميراً على المدائن فلم يتغير من حاله شيء. فقد رفض - كما أسلفنا - أن يناله من راتب الإمارة درهم وظل يأكل من عمل الخوص، ولباسه ليس إلا عباءة تنافس ثوبه القديم في تواضعها. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «وما تواضع عبد لله إلا رفعه الله». لذلك رفع الله سلمان رضي الله عنه وأعلى من قدره في الدنيا والآخرة. وهاك بعض من صور تواضعه:

وعليك السلام يا أمير

في ذات يوم وهو سائر في الطريق لقيه رجل قادم من الشام ومعه حمل ثقيل يشق عليه حمله. فلم يكذب يبصر رجلاً يبذو عليه أنه من عامة الناس وفقراهم حتى ناداه وقال له: احمل عني هذا وسأعطيك شيئاً نظير حمله. فحمله ومضيا معاً.. وإذا هما في الطريق بلغا جماعة من الناس، فسلم عليهم فأجابوه واقفين: وعليك السلام يا أمير.. أي أمير يعنونه؟! هكذا سأل الشامي نفسه. وازدادت دهشته حين رأى بعض هؤلاء يسارع صوب سلمان ليحمل عنه قائلين: عنك أيها الأمير.

فعلم الشامي أن الرجل الذي استأجره ليحمل له كان صاحب رسول الله

ﷺ؛ «سلمان الفارسي»، فسُقط في يده، واعتذر لسلمان واقترَب ليرفع الحمل عنه، لكن سلمان رفض قائلاً: لا، حتى أبلغك منزلتك.

كرهنا أن نجمع عليه عمَلين

يدخل عليه صاحبه يوماً، فإذا هو يعجن - وكان أميراً للمدائن - فسأله صاحبه: أين الخادم؟ فيجيبه سلمان ﷺ: "لقد بعثته في حاجة فكرهنا أن نجمع عليه عمَلين".

لا يأكل وحده

كان سلمان ﷺ يعمل بيده، فإذا أصاب شيئاً اشترى به لحماً أو سمكاً، ثم يدعو الفقراء وجميع المحتاجين فيأكلون معه. كان هذا أعزائي بعض قليل من أمثلة تواضعه، لم يتسع المجال لذكرها جميعاً.

٥ - خفة ظله

والآن عزيزي القارئ، وقبل أن نودِّع هذا البطل العظيم فلنطرق جانباً آخر من شخصيته وهو خفة ظله؛ فقد كان سلمان ﷺ يتمتع بخفة ظل، فعلى

الرغم من أنه العابد التقي البكَّاء، إلا أنه كان يتحين الفرص ليُدخل البسمة والبهجة على قلوب أصحابه.

وهاك بعض الأمثلة:

لو قنعت لم تكن مطهري مرهونة

يزوره بعض أصحابه، فيقول لهم: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا عن التكلف لتكلفت لكم. ثم جاءهم بخبز وملح. فقال أحدهم: لو كان في الملح صعتر. فبعث سلمان رضي الله عنه بمطهرته فرهنها وجاء بالصعتر. فلما أكل أصحابه، قال صاحبه - الذي طلب الصعتر - : الحمد لله الذي قنَّعنا بما رزقنا. فقال له سلمان مُداعبًا: «لو قنعت لم تكن مطهري مرهونة»!

أين هديته؟

جاء الأشعث وجريير، فدخلوا على سلمان في خُصِّ له، فسلما وحيياه، ثم قالوا: أنت صاحب رسول الله ﷺ؟ قال: لا أدري، فارتابا، فقال: إنها صاحبه من دخل معه الجنة. قالوا: جئنا من عند أبي الدرداء، قال: فأين هديته؟ قالوا: ما معنا هدية. قال: اتقيا الله وأديا الأمانة، فما أتاني أحد من عنده إلا بهدية!! فقالوا: والله ما بعث معنا بشيء إلا أنه قال: إن فيكم رجلاً

إذا خلا به رسول الله ﷺ لم يبع غيره، فإذا أتيتاه فأقرئاه مني السلام. قال:
فأي هدية كنت أريد منكما غير هذه؟ وأي هدية أفضل منها؟

الفصل الأخير

ويعود العابد الزاهد الباحث عن الحقيقة إلى مدينة رسول الله ﷺ في عهد
عثمان؛ ليقضي آخر أيام حياته في جوار الحبيب.

عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لم نحفظه

وأن لهذا البطل أن يرتاح ويرحل عن الدنيا، ويرقد على فراش موته ليتيهاً
لللقاء ربه. فدخل عليه سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود. فوجداه
يبكي. فقال له سعد: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ لقد مات رسول الله ﷺ وهو
راضٍ عنك. فأجابه سلمان: والله ما أبكى جزعاً من الموت، ولا حرصاً على
الدنيا، لكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً ولم نحفظه. فقال: «ليكن حظُّ
أحدكم من الدنيا كزاد الراكب». وهأنذا أموت وحوالي هذه الأساود -
أي: الأشياء الكثيرة-.

يقول سعد: فنظرت فلم أر حوله إلا جفنة ومطهرة. فنظر سعد نظرة
إشفاق وبكى. وقال له: يا أبا عبد الله، اعهد إلينا بعهد نأخذك عنك، فقال:

«يا سعد، اذكر الله عند همِّك إذا هممت، وعند حُكْمك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت».

وهكذا حفظ سلمان رضي الله عنه العهد، ومع ذلك هطلت عيناه بالدمع؛ مخافة أن يكون قد جاوز المدى. فليس حوله إلا جفنة يأكل فيها، ومطهرة يشرب منها ويتوضأ. ومع هذا يحسب نفسه مترفاً! فأى نوع من البشر كنتم يا تلاميذ مُعلم البشرية؛ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم!! يا شرف الإنسانية في كل عصورها ومواطنها.

افتحي الأبواب للزَّوَار

وفي صبيحة اليوم الذي قُبض فيه ينادي سلمان رضي الله عنه زوجته «بُقيرة»، ويقول لها: افتحي الأبواب، فإنه يحضرني اليوم خلق من خلق الله، لا يأكلون ولا يشربون، ولكن يحبون الطيب. ثم دعا بمسك وقال لها: انضحيه حولي. فما أن فعلت ما أمرها به، حتى فاضت روحه الطاهرة، ولحق بالملأ الأعلى إلى الجنة المشتاقه إليه، كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم..

فسلام الله وبركاته عليك يا أبا عبد الله.

سلام عليك أيها الباحث عن الحقيقة.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «سلمان الفارسي».

بلال بن رباح

ونواصل رحلتنا مع هؤلاء «الصحب الكرام»، الذين اختارهم الله ﷺ ليكونوا في صحبة «خير الأنام» ﷺ. أما بطلنا هذه المرة فهو مَنْ علَّم البشرية معنى العزة والكرامة والثبات على الحق. وهو صوت الإسلام الأول؛ مؤذن رسول الله ﷺ «بلال بن رباح» ﷺ. فبين كل عشرة مسلمين منذ بدأ الإسلام وإلى اليوم وإلى ما شاء الله، ستلقى سبعة على الأقل يعرفون بلالاً، أينما كنت في أي بقعة على سطح الأرض. فمن هو بلال؟ وما سر خلود اسمه في ذاكرة الناس والتاريخ هكذا؟

نشأته

وُلد بلال في السَّراة بمكة لأب يُدعى «رباحاً»، أما أمه فكانت تُدعى «حمامة»، وهما من العبيد الحبشيين. ونشأ بلال في مكة، وكان مملوكاً لأيتام من بني عبد الدار. وكان أبوهم قد أوصى بهم إلى أمية بن خلف من بني جُمح. فلما مات أبوهم انتقل أبناؤه ومعهم بلال إلى أمية بن خلف، وكانت أمه «حمامة» إحدى إمائهم وجواريرهم.

وعاش بلال عيشة الرقيق، تمضي أيامه متشابهة قاحلة، لا حق له في يومه ولا أمل له في غده. فهو يروح ويغدو كما يجب سيده.

إسلامه

فلنستمع الآن أعزائي إلى قصة إسلامه، وتحديه الأعظم، وثباته على الحق. القصة التي وقف التاريخ أمامها مذهولاً، ليُخلد درسًا من الدروس التي علَّمها بلال للبشرية.

السابقون الأولون

لما أشرقت مكة بأنوار الدين الجديد، وبدأت أنباء رسول الله ﷺ تسري بين أهل مكة، وكانت محل اهتمامهم ومحور أحاديثهم خاصة الأشراف منهم، الذين وجدوا في هذا الدين الجديد تهديداً لهم وملكهم وشرفهم.

وكانت هذه الأنباء تتنامى إلى سمع بلال ؓ، وهو يُصغي إلى أحاديث سادته وأضيافهم، وخاصة سيده «أمية بن خلف»، ورغم أن أحاديثهم كانت تمتلئ غيظاً وغمًا ونقمة على رسول الله ﷺ، إلا أنها كانت لا تخلو من اعترافهم بشرف وصدق وأمانة رسول الله ﷺ. فما زادت أحاديثهم بلالاً إلا حباً وشوقاً إلى رسول الله ﷺ.

وذات يوم ينشرح صدره إلى نور الله، ويذهب إلى رسول الله ﷺ، ويشهد

بكلمة التوحيد بين يدي رسول الله ﷺ. ورغم الرقِّ والعبودية، إلا أنه أعلنها مُدوية أصمَّت آذان سادته.
وهكذا يُصبح بلال أول مَنْ أسلم من العبيد، وكان من السبع الأوائل الذين أشهروا إسلامهم وهم: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سُمية، وصُهيب، وبلال، والمقداد. فكان بحق من السابقين الأولين.

تعديبه

وما لبث خبر إسلام بلال يُذاع حتى استشاط سيده «أمية بن خلف» غيظًا لإسلام عبد من عبيده، وهو ما وضعه في موضع حرج، وأصبح مسار سخرية قومه.

ولما كان الأشراف من المسلمين أمثال أبي بكر وعليٍّ لهم عصبية تمنعهم، فما بال هؤلاء العبيد المُستضعفين، مَنْ لهم يمنعهم من بطش وغلظة هؤلاء المستكبرين؟

خطط شيطانية للتعديب

فكان هؤلاء العبيد المُستضعفين إذا اشتد عليهم العذاب وعجزت طاقتهم عن تحمُّله، يستجيون لجلادهم فيما يُريدونه وقلوبهم معلقة بالله ورسوله؛

إلا بلالاً رضي الله عنه فقد كانت نفسه تهون عليه في سبيل الله ﷻ، ويأبى أن يستجيب لهم.

فتولى تعذيبه كبيرهم «أمية بن خلف» الذي قال لمن يسخرون منه لا تباع عبد له الإسلام: «إن شمس هذا اليوم لن تغرب إلا ويغرب معها إسلام هذا العبد».

وبدأ أمية أولاً بالتهديد والوعيد لبلال إن لم يترك هذا الدين، وأنه سينال صنوفاً من العذاب. لكنَّ هذا التهديد والوعيد لم يحرِّك لبلال رضي الله عنه ساكناً. وتغرب الشمس وبلال على دينه، ويزداد أمية حُمقاً وغيظاً. ولما فشلت الخطة (أ)، لجأ إلى الخطة (ب)، وهي أن يربطه بحبل في عنقه ويجره في شوارع مكة، والأطفال والسفهاء يرمونه بالحجارة. وتفشل هذه الخطة كما فشلت سابقتها عن أن تُثنيه عن دينه.

أَحَدٌ أَحَدٌ

ولما استنفذ أمية كل ما لديه انطلق إلى الخطة (ج)، فكانوا ينتظرون حتى الظهيرة التي تتحول فيها الصحراء إلى جهنم قاتلة، فيطرحونه على حصاها الملتهب وهو عُريان، ثم يأتون بصخرة عظيمة فتوضع على صدره ويجلدونه.. ويصيح به جلاذوه، بل يتوسلون إليه أن يذكر آلهتهم بخير ولو

بكلمة واحدة تحفظ لهم كبرياءهم، وألا تتحدث قريش أنهم انهزموا صاغرين أمام صمود عبدهم وإصراره. فكان بلال ينظر إليهم بعين كلها تحدُّ وبقلب كله إيمان ويحيبهم: أحدٌ أحد.. أحدٌ أحد.

ويتكرر هذا العذاب الوحشي كل يوم، وفي كل يوم يتوسلون إليه قائلين: اذكر اللات والعزى. فيحيبهم أحدٌ أحد، فيقولون له: قُل كما نقول.

فيحيبهم في تهكم: «إن لساني لا يُحسنه».

وظل بلال على هذا الحال يستعذب العذاب في سبيل الله، ويردد على الدوام نشيده العلوي: أحدٌ أحد.. أحدٌ أحد.

فلا يَمَلُّ من تردادده ولا يشبع من إنشاده.

بل سَمِّمَ ومَلَّ جلدوه.

لهيب الصحراء برد وسلام على بلال!

ولما سُئِل بلال فيما بعد: كيف تحمَّل كل هذا العذاب دون أن يَكِلَّ أو يستسلم؟ فقال لسائليه: "إن حلاوة أحدٌ أحد قد أنستني كل عذاب".

وكان الله ﷻ، كما جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، جعل لهيب الصحراء المحرقة بردًا وسلامًا على بلال - فهو سبحانه ولي ذلك والقادر عليه -.

سيدنا أعتق سيدنا

وذاث مرة يمر أبو بكر رضي الله عنه، فيجد بلالاً رضي الله عنه يُعذَّب في رمضاء مكة وهو صابر ومحتسب. فيصيح في أمية بن خلف: خذ ما شئت من أموال واتركه حرًّا. وكأنها كان أمية يغرق وأدركه زورق النجاة، فما أن سمع عرض أبي بكر حتى طابت نفسه وسعدت، فقال: تشتريه بتسع أواق من ذهب؟ فوافق أبو بكر وبلا تردد ودفع لأمية الثمن وحرر بلالاً.

وحين انطلق أبو بكر ومعه بلال، قال أمية لأبي بكر: خذه فوالله لو أبيت إلا أن تشتريه بأوقية واحدة لبعناه لك. وفطن أبو بكر لما في هذه الكلمات من مرارة اليأس وخيبة الأمل لأمية، وكذلك لما فيها من مساس بكرامة بلال. فرد قائلاً: والله لو أبيتم إلا مئة لدفعتها.

وكان عمر بن الخطاب كلما رأى بلالاً وأباً بكر معاً يقول: «أبو بكر سيدنا وأعتق بلال سيدنا».

درسٌ للبشرية

ويُعطي بلال رضي الله عنه درسًا للبشرية، بصموده هذا لأقسى أنواع التعذيب، كأنها جعله الله مثلاً: أن سواد البشرية وعبودية الرق لا ينالون من عظمة الروح إن وجدت إيمانها واعتصمت برهبها.. وكان هذا الدرس فحواه: أن

حرية الضمير وسيادته لا يُباعان بملء الأرض ذهبًا، ولا بملئها عذابًا. ويظفر «سيدنا بلال» بموقفه هذا من الشرف والخلود ما لم يظفر بمعشاره الكثير من عليّة البشر وذوي الجاه والنفوذ والثروة. فلم يجرمه سواد بشرته، وتواضع حسبه ونسبه وهوانه على الناس كعبد رقيق، لم يجرمه حين آثر الإسلام دينًا أن يتبوأ المكان الرفيع الذي يؤهّله له صدقه وطهره وتفانيه.. فكان بحق كما قال عمر بن الخطاب: «سيدنا بلال»..

في المدينة

وينطلق بلال رضي الله عنه ليأخذ مكانه بين الرجال الأحرار، ويهاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحب الكرام إلى المدينة. وكان بلال متفرغًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يغدو معه إذا غدا، ويعود إذا عاد، حتى أصبح ألزم إليه من ظله.

الأذان

ولما استقر المسلمون في المدينة وبنوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي والمسلمون معه الصلوات لوقتها، وكان الناس يعرفون مواقيت الصلاة فيخرجون إليها. ولكن أناسًا من المسلمين كانت تفوتهم

صلاة الجماعة لانشغالهم في أعمالهم. فراح رسول الله ﷺ وأصحابه يتشاورون، كيف يُجمع الناس للصلاة؟

فاقترح بعضهم أن تُرفع راية إذا حان وقت الصلاة، وقال آخرون: نُشعل ناراً على مرتفع من الهضاب، وأشار البعض بالناقوس يُضرب وقت الصلاة. وكلها مقترحات لم تُلَقَّ قبولاً، وانتهى الأمر أن يقوم رجال ينادون الناس إذا حانت الصلاة.

وكان أحد المنادين «عبد الله بن زيد الأنصاري». فبينما هو نائم رأى في منامه رجلاً يعلمه صيغة الأذان: الله أكبر الله أكبر.. الله أكبر الله أكبر.. إلى آخر الأذان.

لَقَنَّ بِلَالاً فَإِنَّهُ أُنْدَى صَوْتًا مِنْكَ

ويذهب «عبد الله بن زيد» إلى رسول الله ﷺ، ويبلغه بما رأى. فقال له رسول الله ﷺ: «إنها رؤيا حق، لَقَنَّ ذلك بلالاً؛ فإنه أُنْدَى صَوْتًا مِنْكَ». ولما حانت الصلاة جعل عبد الله بن زيد يُلقِّن بلالاً كلمات الأذان، وبلال يُؤذِّن بها.

وهكذا أصبح بلال أول مؤذن للإسلام. وكان إذا فرغ من الأذان، وقف على باب رسول الله ﷺ وقال: حي على الصلاة، حي على الفلاح. فإذا

خرج رسول الله ﷺ من حجراته، ورآه بلال مُقبلاً ابتداءً في الإقامة.

فضل المؤذن:

يقول رسول الله ﷺ: «المؤذن يُغفر له قدر صوته، وأجره مثل أجر مَنْ صلى معه»، ويقول ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»؛ فهنيئاً لبلال، ولكل مَنْ نهج نهجه، وأذن للصلاة بهذا الفضل العظيم. فكم من مؤذن تبع خطى بلال؟ وكم من مُصلٍ صلى بعد أذان بلال؟ هذا فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء من عباده..

أخلاق الصحابة

لقد استوقفنا ما فعله الصحابي الجليل «عبد الله بن زيد»، الذي رأى الرؤيا، وأخبر بها رسول الله ﷺ، ويأمره رسول الله ﷺ أن يُلقن بلالاً بها. فلم يتأثر أو يغضب لنفسه أو تُصيبه أي غضاضة، من أنه هو مَنْ رأى الرؤيا، ومَنْ أخبر رسول الله ﷺ بها، ثم يؤذن بها رجل آخر. بل على العكس من ذلك، فقد لُقننا بلالاً بكل رضاً ورحابة.

تُرانا كيف ستكون ردة فعل أحدنا، لو حدث مثل هكذا موقف في أيامنا هذه؟.. ألا ترون معي أننا بصدد أناس يصعبُ الزمان أن يوجد بأمثالهم؟

إلا من رحم ربي.. فرضوان الله عليهم أجمعين.

يوم بدر: القصاص لبلال من جلاده

وتأتي موقعة بدر الكبرى، وفيها يُقاتل بلالٌ مع رسول الله ﷺ والمسلمين أهل الشرك المعتدين الذين أتوا إلى المدينة غزاة.

الأقدار تقود أمية بن خلف إلى مصرعه

ولما خرج أشراف قريش لغزو المسلمين، كان أمية بن خلف - الذي كان سيداً لبلال والذي كان يُعذِّبه في وحشية قاتلة - كان من القاعدين عن الخروج لولا أن أتاه صديقه «عُقبه بن أبي مُعيط» وألقى بين يديه مجمرة، وقال له: استجمر فإنك من النساء، فاستثار ذلك أمية، ولم يجد بُدًّا من الخروج مع الغزاة فخرج.

وكان الأقدار قادتة إلى مصرعه، فكان الله بالغ أمره، فليخرج أمية، فإن بينه وبين عبدي من عباد الله حساباً قديماً، جاء الوقت لتصفيته، وبيد من؟ بيد بلال نفسه.

وتلاحمت السيوف، وحمى القتال. وبينما المعركة تقترب من نهايتها، لمح بلال أمية بن خلف أسيراً مع عبد الرحمن بن عوف.

لا نجوتُ إن نجا

وما أن لمح بلال أمية، وكأنها استرجع شريط الذكريات المؤلم، فصاح: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. وهجم عليه بلال يريد قتله. لكن عبد الرحمن بن عوف حال دون ذلك، وقال له: إنه أسيري. فصرخ بلال بأعلى صوته: يا أنصار الله.. رأس الكفر أمية بن خلف.. لا نجوت إن نجا، واجتمع الناس ولم ينصرف بلال حتى قتل جلاده؛ «أمية بن خلف». ويسقط أمية صريعاً بيد بلال، تلك اليد التي طوقها أمية يوماً بالسلاسل وأوجع صاحبها ضرباً وعذاباً. فكانت هذه هي اليد التي خلصت الناس من جلاد قريش، الذي أذل المؤمنين بغياً وعدواناً. فالديان لا يموت، وكما تدين تُدان.



فتح مكة

ويأتي يوم الفتح العظيم، ويدخل رسول الله ﷺ مكة شاكراً مكبراً على رأس عشرة آلاف من المسلمين ويتوجه رأساً إلى الكعبة.

بلال يؤذن من فوق الكعبة

ويدخل رسول الله ﷺ الكعبة ليُحطم ما بها من أصنام، بعد أن حطَّم ما

حولها من أصنام، ولم يكن في صحبته إلا ثلاثة رجال هم: عثمان بن طلحة، وأسامة بن زيد، وبلال بن رباح.

ولما حانت صلاة الظهر، وكانت الألوف المؤلفة تُحيط برسول الله ﷺ. عند ذلك دعا رسول الله ﷺ بلالاً وأمره أن يصعد على ظهر الكعبة، ويُعلن من فوقها كلمة التوحيد ويؤذّن.. فما أعظمه من مشهد، وما أروعها من مناسبة. فهذا بلال يؤذّن وآلاف الأعناق تنظر إليه، وتردد في خشوع وهمس كلمات الأذان وراءه..

نشهد أنك رسول الله

أما المشركين فقد أصابهم الدهول، ولا يكادون يُصدقون. أهذا حقاً محمد وفقرائه الذين أخرجوا بالأمس من ديارهم؟ أهذا حقاً الذي كان يخاطبنا منذ لحظات، ورقابنا بيديه ويقول لنا: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»؟ أهذا بلال الذي كان عبداً بالأمس علا فوق الجميع وآلاف الأعناق تنظر إليه؟

ولكن ثلاثة من أشرف قريش كانوا جلوساً بفناء الكعبة، وكأنها يلفحهم مشهد بلال، وهو يدوس أصنامهم بقدميه، ويرسل من فوق ركامها صوته بالأذان لتنتشر في آفاق مكة كلها... أما هؤلاء الثلاثة فهم: أبو سفيان بن حرب، وكان قد أسلم منذ لحظات، وعتّاب بن أسيد، والحارث بن هشام،

وكانا لم يُسلما بعدُ.

فقال عتاب بن أُسيد: لقد أكرم الله أُسيداً ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يُغيظه.

وقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أن محمداً مُحَقَّق لا تبعته.

أما أبو سفيان فعقَّب على حديثهما فقال: إني لا أقول شيئاً، فإني لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى.

ويخرج رسول الله ﷺ من الكعبة ويتوجه إليهم ويقول: «قد علمت الذي قلمت»، ومضى يحدثهم بما قالوا، ثم قال: «كلكم من آدم، وآدم من تراب». فصاح الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما سمعنا أحد فنقول أنه أخبرك!!

واستقبلا بلالاً بقلوب وعقول جديدة، بعد أن محا نور الإيمان ما بها من ضلالة.

بشرى بالجنة

ويظل بلال بين يدي رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يأنس به وبأذانه، وكان يقول له كلما اشتد الخطب: «أرحنا بها يا بلال» أي: أرحنا بالصلاة وبالأذان لها.

وفي يوم وبعد صلاة الفجر قال رسول الله ﷺ لبلال: «يا بلال، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دَفَّ نعليك في الجنة». قال: يا رسول الله، ما عملت عملاً أرجى عندي من أني إذا أحدثت توضأت، وما توضأت إلا صليت بهذا الوضوء ركعتين.

وعلى الرغم من هذه المكانة الرفيعة، وهذه البشري الكريمة بالجنة. كان بلال دائماً متواضعاً. وكلما أطرى عليه الناس يقول: «ما أنا إلا حبشي كنت عبداً بالأمس».



وفاة رسول الله ﷺ

ويستمر بلال في صحبة رسول الله ﷺ يسعد بها ويأنس. إلى أن جاء اليوم الذي زلزل بلالاً وأصابه بأذى وحزن عميق، وبألم فاق كل الآلام التي أصابته من قبل.. إلا وهو وفاة رسول الله ﷺ؛ فقد كان يوماً عسيراً على كل صحابة رسول الله ﷺ، وخاصة بلال.

بلال تخنقه العبرات

ويحين وقت الصلاة، ويقوم بلال ليؤذن في الناس، ورسول الله ﷺ مُسَجَّى لم يُدْفَن بعدُ. فلما وصل إلى قوله: «أشهد أن محمداً رسول الله» خنقته

العبرات، واحتبسَّ صوته في حلقة. فأجهش المسلمون في البكاء وأغرقوا في النحيب.

ثم أذن بعد ذلك ثلاثة أيام. فكان كلما وصل إلى قوله «أشهد أن محمداً رسول الله» بكى وأبكى.

لا أؤذن لغير رسول الله ﷺ

بعد ذلك يذهب بلال إلى أبي بكر «خليفة رسول الله ﷺ»، ويقول له: لا أستطيع أن أؤذن لغير رسول الله ﷺ، وطلب من الخليفة أن يعفيه من الأذان. بعد أن أصبح لا يتحملة ولا يطيق أن يؤذن ثم يأتي إلى الصلاة ليجد أن رسول الله ﷺ غير موجود بينهم.. ليس ذلك فحسب، بل أصبح لا يستطيع العيش في المدينة وقد خلت من رسول الله ﷺ، فطلب من الخليفة أن يغادرها، ويذهب مع المجاهدين إلى أي مكان.

الرحيل عن المدينة

ويحاول أبو بكر أن يُثنيه عما انتوى القيام به، ولكن الأمر أصبح شديداً عليه ولا يطيقه. فقال لأبي بكر لما ألحَّ عليه في الطلب: إن كنت أعتقتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت قد أعتقتني لله فخلني لمن اعتقتني له. فقال أبو بكر: ما أعتقتك إلا في سبيل الله..

ويرحل بلال عن مدينة رسول الله ﷺ مع أول بعث من بعوث المسلمين إلى الشام، التي ظل بها مجاهداً في سبيل الله حتى وفاته.

الفصل الأخير

ويظل بلال مُمسكاً عن الأذان، حتى قدم عمر بن الخطاب إلى بلاد الشام، فلقي بلالاً بعد غياب طويل، وكان عمر شديد الشوق، عظيم الإجلال له. وهناك عزم الصحابة على بلال أن يؤذن في حضرة الفاروق، فوافق بلال وصعد للأذان، وما أن ارتفع صوته بالأذان حتى بكى عمر وبكى معه الصحابة حتى اخضلت اللحي بالدموع. فلقد أهاج أشواقهم إلى عهود المدينة وأيام رسول الله ﷺ.

غداً نلقى الأحبة : محمداً وصحبه

وظل داعي السماء، وصوت الإسلام الأول مقيماً في الشام حتى وافاه الأجل المحتوم، في عام ١٧ هجرياً. نام على فراش الموت، وكان عمره ستين عاماً. فلما رأته امرأته وقد حضره الموت فصاحت قائلة: واحزنه وامصيبتاه!! فيقول لها بلال: بل قولي: وافرحته.. غداً نلقى الأحبة... محمداً وصحبه..

وتنتهي حياة البطل ليلقى الأحبة، ويأنس بصحبة رسول الله ﷺ، كما كان
يأنس بها في الدنيا..

فرحمة الله وبركاته عليك يا مؤذن رسول الله ﷺ

يا داعي السماء، وصوت الإسلام الأول

ورضي الله عنك وأرضاك يا «بلال بن رباح».

مصعب بن عُمير

والآن أعزائي، فنحن على موعد مع زهرة أخرى من أزاهير الصحبة العطرة. فإذا وصفناه بأنه زهرة فإننا لا نجافي الحقيقة، فقد كان «أعطر أهل مكة»؛ فهو غرّة فتيان قريش وأوفاهم بهاءً وجمالاً.. أخلص دينه لله فنال أعلى المراتب.

إنه أول سفير للإسلام؛ «مصعب بن عُمير»، أو «مصعب الخير» كما لقبه بعض المسلمين.

نشأته

نشأ «مصعب بن عُمير» في رغد من العيش ورفاهية، فقد كان من أنعم فتيان مكة، فلم يكن هناك من يلبس مثل لباسه، ولا يتعطر مثل عطره. حتى إنه كان إذا مرَّ من طريق وجاء بعده أناس فيعرفون أنه قد مرَّ من هذا الطريق، لما يجدون من عطره الجميل.

إسلامه

سمع الفتى ما بدأ أهل مكة يسمعون عن الصادق الأمين ﷺ، الذي يقول: إن الله أرسله بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله الواحد الأحد. وكان فتى قريش

المدلل يتابع بشغفٍ أخبار رسول الله ﷺ، وما يُقال عنه.

فلما علم أن رسول الله ﷺ ومن آمن معه يجتمعون بعيداً عن فضول قريش وأذاها في دار «الأرقم بن أبي الأرقم»؛ فلم يتردد كثيراً، فصحب نفسه ذات مساء إلى هناك ليلقى رسول الله ﷺ، وما أن جلس معه، وسمع منه آيات من القرآن حتى انشرح صدره للإسلام، وبسط يده إلى رسول الله ﷺ ليشهد أن لا إله إلا الله، وأنه رسول الله.

ويأخذ مصعب رضي الله عنه مكانه بين السابقين الذين اختارهم الله ﷻ ليكونوا في صحبة رسول الله ﷺ. ومع هذه اللحظة الحاسمة، سيتحول هذا الفتى المدلل إلى أسطورة عظيمة من أساطير الدعوة والفداء والعطاء. ويكتم مصعب رضي الله عنه إسلامه خوفاً من بطش أمه «خناس بنت مالك»، التي كانت تتمتع بقوة فذة في شخصيتها تفوق كثيراً من الرجال. وكانت تُهابُّ إلى حد الرهبة. وما كان مصعب يخشى من أيِّ شيءٍ أكثر من خشيته من أمه.

كشف المستور

وظل مصعب رضي الله عنه يتردد على دار الأرقم، ويجلس إلى رسول الله ﷺ، وهو قير العين، لا يعلم عن إسلامه أحدٌ وخاصة أمه.

وفي يوم وهو في طريقه إلى دار الأرقم، وقع المحذور وكُشف المستور. فقد

أبصره «عثمان بن طلحة» وهو يدخل خفية دار الأرقم. ثم رآه مرة أخرى وهو يصلي كصلاة رسول الله ﷺ. ولم يكن عثمان بن طلحة قد أسلم بعد. فذهب إلى أمه ليكشف لها ما كان مستوراً عنها، وألقى إليها النبأ: «أن ابنك قد ترك دين آبائه وتبع دين محمد».

تعذيبه

وما أن علمت أمه بهذا الخبر حتى طار صوابها. فلما رآته همت بلطمه بضربة قاسية. ولكن ما لبثت أن تراجعت أمام إصراره والنور والبهاء الذي كسا وجهه. وتحت ضغط أمومتها، تعفيه من الضرب والأذى، ولكنها لجأت إلى أسلوب آخر من التعذيب وهو حبسه ووضع القيود في رجله داخل دارها.

الهجرة إلى الحبشة

وظل مصعب رضي الله عنه رهين محبسه، حتى جاءه نبي المؤمنين المهاجرين إلى الحبشة. فاحتال وغافل أمه وحراسه ومضى إلى الحبشة مهاجراً. ومكث بالحبشة فترة، ثم عاد إلى مكة ليهاجر للمرة الثانية مع من هاجروا

إلى الحبشة.

زهد في الدنيا وزينتها

ويعود مصعب رضي الله عنه إلى مكة، ولما يئست أمه من رده إليها وإلى عبادة الأوثان، حاولت حبسه مرة أخرى. فقرر إن هي فعلت ذلك ليقتلن كل من تستعين به على حبسه. وفي إصرار كبير على الكفر من جانب الأم، وإصرار أكبر على الإيمان من جانب الابن، تُقرر الأم منع ابنها من ثروتها، وتقول له: «اذهب لشأنك، لم أعد لك أمًّا، ولن ينالك من مالي درهم واحد». فيقول لها: «يا أمًّا إني لك ناصح عليك شفوق، اشهدي أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله». فتقول له: «واللات والعزى.. لا أدخل في دينك».

ويخرج فتى قريش المدلل من النعمة الوارفة التي كان يعيش فيها، مؤثرًا الشظف ويزهد في الدنيا ويترك زينتها. ويتفرغ للعبادة وطلب العلم.

يُشير شفق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه

وأصبح الفتى المتألق المعطر، لا يرى إلا مُرتديًا أحسن الثياب، يأكل يومًا ويجوع يومًا، لكن روحه المتألقة بنور الإيمان قد جعلت منه إنسانًا آخر،

يملاً الأعين جلالاً والأنفس روعة.

وكان حال مصعب رضي الله عنه يُثير شفق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه عليه، حتى كان الصحابة إذا رأوا مصعباً على هذا الحال يغضون أبصارهم ويبكون، وتعاودهم صورته الأولى قبل إسلامه من ترفٍ ورفاهية. وفي يوم رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بُردة له مُرقة بالية، فنظر إليه نظرة إشفاق وزرقت عيناه بالدمع وهو يقول: «لقد رأيت مصعباً هذا، وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، ثم ترك ذلك كله، حباً لله ورسوله».

أول سفير للإسلام

ويلازم مصعب رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويأنس ويتشرب من نهر أنواره، ويتخلق بأخلاقه. حتى قيل إنه أكثر الصحابة شبهاً برسول الله صلى الله عليه وسلم خلقاً وخلقاً. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم مقادير الرجال، ويضع كلاً في مكانه.

أول داعٍ إلى الله في المدينة

فلما كانت بيعة العقبة الأولى، وطلب الأنصار - الاثنا عشر - من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث معهم من يفقههم في الدين، ويدخل آخرين غيرهم في دين الله. فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل المناسب للمهمة المناسبة، اختار

«مصعب بن عمير» ﷺ ليكون أول سفير، وأول داعٍ إلى الله. ولقد كان في أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ من هم أكبر منه شأنًا وأكثر جاهًا. ولكن رسول الله ﷺ اختار «مصعب الخير»؛ لما له من أسلوب في الدعوة، ورجاحة في العقل، وخلق كريم يؤهله إلى هذه المهمة الكبيرة، ويُلقي بين يديه بمصير الإسلام في المدينة التي ستكون دار الهجرة ومُنطلق الدعوة والدعاة والمبشرين.

مصعب في المدينة

ويحمل مصعب ﷺ الأمانة، ويأتي إلى المدينة، وليس بها سوى اثنا عشر مسلمًا، هم الذين بايعوا رسول الله ﷺ، ولكنه ما لبث أن أقام فيهم بضعة أشهر حتى استجابوا لله وللرسول، وانشرح صدرهم للإسلام.

الداعية الرباني

إن الدعوة إلى الله ليست بكلمات مُنمَّقة ومواعظ مُحكمة، إنما هي منهاج حياة للداعية. تستقر في الوجدان، وتظهر في الجوارح والأبدان، فالداعية الرباني كله لله رب العالمين. ولقد كان مصعب بن عمير ﷺ واحدًا من هذا الطراز الفريد. فكان لأسلوبه الراقى وأخلاقه وحكمته وهدوؤه الفضل الكبير لنشر الدعوة في المدينة.

منهاج مصعب رضي الله عنه الدعوي

والآن أعزائي لنعرض لبعض الأمثلة لمنهاج مصعب رضي الله عنه في الدعوة، وكيف كان له أكبر الأثر في إسلام سادة الأوس والخزرج، وما تبعه من إسلام أهل المدينة.

سعد بن معاذ وبني عبد الأشهل

نزل مصعب رضي الله عنه في أسعد بن زُرارة، ومن هناك كانا يغشيان معًا القبائل والبيوت والمجالس، وكان مصعب يُعرف «بالمُقرئ» لجمال صوته عند قراءة القرآن. وفي يوم خرج أسعد بن زُرارة بمصعب إلى بئر يُقال له «مَرَق» في ديار بني عبد الأشهل.

فاجتمع إليهما رجال من المسلمين، وكان سعد بن مُعاذ وأسيد بن حُضَيْر سيدا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على دين قومهما. فقال سعد لأُسيد: اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، فإن أسعد بن زُرارة هو ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا..

ويمضي أُسيد متوشحًا سيفه، شاهراً حربته. وما أن وصل إليهما حتى وقف متشتتًا، ووجهه يكسوه غضب شديد، وقال لهما: ما جاء بكما إلى حيننا تُسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا، إن كنتم لا تريدان الخروج من الحياة.

وفي مثل هدوء البحر وقوته، انفرجت أسارير «مصعب الخير»، وبحديث طيب قال له: أولا تجلس فتستمع؟ فإن رضيت أمرنا قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره. فقال أسيد: أنصفت.

ويجلس أسيد ويُلقِي حربته إلى الأرض ليصغي، ولم يكد «مصعب الخير» يقرأ عليه القرآن، ويفسر له معانيه والدعوة التي جاء بها رسول الله ﷺ، حتى أخذت أسارير أسيد تنفرج حتى عُرف في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم. ثم قال أسيد: ما أحسن هذا القول وأصدقه! كيف يصنع من يريد أن يدخل في هذا الدين؟ فقال له مصعب: «يُطَهَّر ثوبه وبدنه، ويشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»؛ ففعل أسيد، ووقف يُعلن إسلامه بعد أن تتطهر.

ويذهب أسيد إلى سعد بن مُعَاذ، فلما كلمه غضب سعد وأخذ حربته وذهب مغضباً إلى مصعب وأسعد بن زُرارة. فما أن رآه أسعد حتى قال لمصعب: جاءك والله سيد قومه، إن يتبعك لن يتخلف عنك أحد منهم. فلما وقف سعد متشتماً قال له مصعب: أو تجلس فتسمع.. وكرر عليه ما فعل مع أسيد... وأسلم سيد بني الأشهل وأسلم من وراءه قومه كلهم.

إسلام سادة الأوس والخزرج

ويمضي مصعب رضي الله عنه بأسلوبه الراقي يدعو الناس للإسلام، حتى لم تبقَ دار

من دور المدينة إلا وبها رجال ونساء مسلمون. فأسلم سادة الأوس والخزرج أمثال: سعد بن عُبادة، وعمرو بن الجموح، وغيرهما..

المدينة تتهيأ للنور

ويمضي عام والمسلمون في المدينة يتزايدون كل يوم عدداً وسلطاناً. وفي العام التالي، ولما كان موسم الحج يحضر مصعب بن عُمير رضي الله عنه ومعه خمسة وسبعون مسلماً - ٧٣ رجلاً وامرأتان - ليُبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الثانية.

وتتهيأ المدينة لاستقبال النور الذي سيأتيها بعد قليل، ويهاجر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لله دَرْك يا مصعب!

لله دَرْك يا مصعب بن عُمير، فقد أسست للإسلام دولته، وأرسيت دعائمه في المدينة، وجعلتها مُهيأة لاستقبال نور الإيمان واليقين لتصبح بحق «المدينة المنورة».

ومن مركز الأنوار بالمدينة يشع نور الإيمان ليسطع على كل بقعة من بقاع الأرض.. فكم سيكون في ميزان حسناتك يا مصعب الخير؟ كل من شهد بالوحدانية من أهل المدينة، وتابعيهم وتابع التابعين إلى يوم الدين.

المجاهد في سبيل الله

وبعد أن نجح أول سفير من سفراء رسول الله ﷺ نجاحًا باهرًا في نشر دعوة الإسلام في المدينة. ويهاجر رسول الله ﷺ وصحبه إلى المدينة. وتواصل قريش مطاردتها لرسول الله ﷺ وتقوم بغزو المدينة.. فكانت غزوة بدر. ولم يقتصر دور «مصعب بن عمير» ﷺ على الدعوة للإسلام فحسب، بل كان مجاهدًا ومقاتلاً من الطراز الأول، فشهد بدرًا وقاتل قتالاً شديداً. حتى كان نصر الله للمؤمنين.

الفصل الأخير

وبعد حياة قصيرة في أعوامها، طويلة ممتدة بإنجازاتها. تأتي غزوة أحد، والتي ستشهد بطولة منقطعة النظير «لمصعب بن عمير» ﷺ، والتي ستنتهي باستشهاده.

حامل اللواء

ويغزو مشركو قريش المدينة للثأر مما حدث لهم في بدر. ويهيب المسلمون أنفسهم، ويقف رسول الله ﷺ يتفرس الوجوه المؤمنة ليختار من بينها من يحمل الراية. ويدعو «مصعب الخير» فيتقدم ليحمل لواء المسلمين.

يلفت أنظار الأعداء عن رسول الله ﷺ

وتبدأ المعركة ويحتمد القتال، ويخالف الرماة أوامر رسول الله ﷺ، ويغادروا مواقعهم أعلى الجبل بعد ما رأوا المشركين ينسحبون منهزمين. ولكن عملهم هذا ما لبث أن حوّل نصر المسلمين إلى هزيمة.

أما المشركون، فلما رأوا الفوضى والذعر في صفوف المسلمين ركّزوا على رسول الله ﷺ يريدون قتله..

وأدرك مصعب بن عمير - الذي كان شديد الشبه برسول الله ﷺ - أدرك الخطر الغادر، ومضى يصول ويجول، وكل همّه أن يلفت أنظار الأعداء عن رسول الله ﷺ. وبدأ الأعداء يتكاثرون عليه.

وأقبل عليه «ابن قمئة» ف ضرب يده اليمنى ف قطعها، ومصعب يقرأ: **{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ }** [آل عمران: ١٤٤]، ويأخذ مصعب اللواء بيده اليسرى وحنأ عليه، ف ضربها ابن قمئة ف قطعها، ف حنى مصعب على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره، وهو ما زال يقرأ: **{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ }** [آل عمران: ١٤٤]، ويقتله ابن قمئة، وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، ورجع إلى قريش، فقال لهم: قتلت محمداً. وهو ما جعل قريش تهدأ وتتوقف عن القتال ومهاجمة رسول الله ﷺ.

وهكذا يفدي مصعب بن عمير رسول الله ﷺ بجسده وبروحه ويفوز بالشهادة في سبيل الله.

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

وتنتهي المعركة، ويأتي رسول الله ﷺ ليتفقد أرض المعركة، ويودع الشهداء، وعندما رأى مصعب وقف عنده وقال وعيناه تفيضان بالدمع: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٢٣].

لم يأخذ من أجره في دنياه شيئاً

يقول خباب بن الأرت: «هاجرنا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله؛ فمننا من مضى ولم يأخذ من أجره في دنياه شيئاً، منهم «مصعب بن عمير»؛ قُتل يوم أُحُد فلم يوجد له شيء يُكفَّن فيه إلا نَمْرَةٌ. فكنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجلاه بدا رأسه. فقال رسول الله ﷺ: «اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجله من نبات الإذخر».

رسول الله ﷺ يشهد أنكم الشهداء

ويلقي رسول الله ﷺ نظرة الوداع على مصعب؛ فَوَقَّفَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي بُرْدَةٍ مَّقْتُولٍ، فَقَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُكَ بِمَكَّةَ وَمَا بِهَا أَحَدٌ أَرْقُ حُلَّةً، وَلَا

أَحْسَنُ لِمَّةٍ مِنْكَ، ثُمَّ أَنْتَ شَعِثُ الرَّأْسِ فِي بُرْدَةٍ»، وبكى رسول الله ﷺ
 وبكى من حوله، ثم وارى رسول الله ﷺ شهداء أحد وقال: «إن رسول الله
 يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة».
 «أيها الناس، زوروهم وأتوهم وسلموا عليهم، فوالذي نفسى بيده لا يُسَلَّمُ
 عليهم مُسَلَّمٌ إلا رُدُّوا عليه السلام».



ويظل مصعب بن عمير يذكره رسول الله ﷺ وصحبه الكرام في كل وقت
 وحين.

* انظر حياة «عبد الرحمن بن عوف»: الجزء الثاني من هذا الكتاب للمؤلف.

فسلام الله وبركاته عليك يا مصعب الخير

السلام عليك يا أول سفير لرسول الله ﷺ.

ورضى الله عنك وأرضاك يا «مصعب بن عمير».

أنس بن مالك

ومع ريجانة أخرى من رياحين الصحبة العطرة، نعيش من خلال الصفحات التالية مع هذا الصحابي الجليل، الذي لم يكن ملازمًا لرسول الله ﷺ فحسب، بل كان من المقربين إليه وعاش في خدمته عشر سنوات، كانت هي أبهى سنوات عمره. ثم عاش بعد وفاة رسول الله ﷺ عمرًا طويلاً، ملأ خلالها الدنيا علمًا من بحر رسول الله ﷺ..
إنه خادم رسول الله ﷺ، وراوية الإسلام «أنس بن مالك» رضي الله عنه.

نشأته

وُلد «أنس بن مالك» في المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ بعشر سنوات، وكانت أمه «أم سليم» - الغميصاء أو الرُميصاء بنت ملحان - كانت قد أسلمت لله ﷻ. أما زوجها «مالك بن النضر» - والد أنس - فقد ظل على دينه، وكان يريد منها أن تترك دينها وتبقى على دين الآباء. وفي يوم خرج مالك مغضبًا، فلقيه عدوُّ له فقتله.

فنشأ أنس يتيمًا منذ تلك اللحظة، ولكنه ظل في كنف أمه التي امتلأ قلبها

بنور الإيمان، وحب رسول الله ﷺ. فكانت تُلقن ابنها الشهادتين، وتغرس في قلبه محبة الله، ومحبة رسول الله ﷺ من قبل أن يراه. وهو ما زاد من شوقه لرؤية رسول الله ﷺ.

المدينة تُشرق بنور رسول الله ﷺ

فما أن علم أنس وأمه وكل أهل المدينة نبأ خروج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، حتى امتلأت قلوبهم فرحاً وبهجةً بمقدم رسول الله ﷺ. وكان الفتیان يُشيعون في كل صباح أن رسول الله ﷺ قد جاء، فكان يسعى إليه أنس مع الساعين من الصغار والكبار، لكنه لا يرى شيئاً فيعود كئيباً محزوناً.

وفي ذات صباح هتف رجال من المدينة أن رسول الله ﷺ وصاحبه غدوا قريبين من المدينة. فطفق الجميع رجال ونساء تتخللهم أسراب من صغار الفتیان يتسابقون إلى الطريق الذي سيحمل إليهم نبي الهدى والخير، وكان في طليعة هؤلاء الصبية «أنس بن مالك» رضي الله عنه، وكان في العاشرة من عمره. ويصل رسول الله ﷺ إلى المدينة لتُشرق بنور الإيمان، ونور رسول الله ﷺ.

أنس خادمٌ لرسول الله ﷺ

وما أن استقر رسول الله ﷺ بالمدينة حتى جاءته «الغُميصاء بنت ملحان» - أم أنس - ومعها غلامها الصغير يسعى بين يديها، وقالت: يا رسول الله، لم يبقَ رجل ولا امرأة بالمدينة إلا وقد أتخفك بتحفة، وإني لا أجد ما أتخفك به غير ابني هذا، فخذهُ ليخدمك ما شئت. ففرح رسول الله ﷺ بهذا وهشَّ -أي: أقبل بوجهه تطلق - للفتى الصغير ومسح رأسه بيده الشريفة، وضمه إلى أهله.

ويسعد أنس رضي الله عنه بخدمة رسول الله ﷺ من سنِّ العاشرة وظل يعيش في كنفه ورعايته إلى أن لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، وهو في العشرين من عمره.. عشر سنوات كانت هي أزهى وأبهى سنوات عمره.

حُسن معاملة رسول الله ﷺ لأنس

ويظل أنس رضي الله عنه في خدمة ورعاية مَنْ أرسله الله ﷻ رحمةً للعالمين ﷺ. فذاق من نُبل شئائله وجليل خصاله، ما تغبطه عليه الدنيا ويعجز القلم عن وصفه.

وهاك بعض الأمثلة:

* يقول أنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلُقًا،

وأرحبهم صدرًا، وأوفرهم حنانًا. فقد أرسلني يومًا لحاجة له فخرجت، وقصدت صبيانا يلعبون في السوق لألعب معهم. ولم أذهب إلى ما أمرني به، فلما صرت إليهم، شعرت بإنسان يقف خلفي ويربت على كتفي، فالتفت فإذا برسول الله ﷺ يتسم ويقول: «يا أنيس أذهبت حيث أمرتك؟». فارتبكت وقلت: نعم إني ذاهب يا رسول الله. والله لقد خدمته عشر سنين، فما قال لي شيء صنعته: لم صنعته؟. ولا لشيء تركته: لم تركته؟.

* كان رسول الله ﷺ إذا نادى أنسًا يناديه تارة: يا أنيس. وأخرى: يا بُني... تحببًا وتدليلاً..

نصائح رسول الله ﷺ لأنس

كان رسول الله ﷺ يُغدق على أنس ﷺ من نصائحه ومواعظه فملا قلبه وعقله..

ومن ذلك قوله ﷺ له:

• «يا بُني إن قدرت أن تُصبح ومُسي، وليس في قلبك غش لأحد فافعل».

• «يا بُني إن ذلك من سُنتي، ومن أحيا سُنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة».

• «يا بني إذا دخلت على أهلِكَ فسلم، يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك».

دعوة رسول الله ﷺ له

يقول أنس بن مالك: «دخل رسول الله ﷺ علينا، وما هو إلا أنا وأمي وأم حرام - خالة أنس - فقال: «قوموا فلأصلي بكم»، فصلى بنا، ثم دعا لنا بكل خير من خير الدنيا والآخرة. فقالت أمي: يا رسول الله، خُويِدْمُك أنيس ادع الله له. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أكثر ماله وولده، وأطل حياته».

وقد استجاب الله ﷻ لدعاء رسول الله ﷺ، فكان أنس رضي الله عنه أكثر الأنصار مالا، حتى إن شجر بستانه ليثمر في العام مرتين. وكان أوفرهم ذرية، حتى إنه رأى من أولاده وحفدته ما يزيد عن المائة، وقد أمدَّ الله في عمره فعاش قرناً كاملاً.

أظلمت الدنيا بوفاة رسول الله ﷺ

ظل أنسٌ في صحبة رسول الله ﷺ، ولازمه أكمل ملازمة منذ أن هاجر وحتى وفاته. وغزا معه غير مرة، وكان من الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة - بيعة الرضوان -.

وبعد عشرة سنوات قضاهَا أنس في خدمة رسول الله ﷺ، يرحل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى. فحزن أنس حزناً شديداً، وأحسَّ أن الدنيا كلها قد أظلمت من حوله.

* يقول أنس رضي عنه: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء فيها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم فيها كل شيء».

* ويقول: «كان آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ يوم الاثنين، حين كشفت الستارة عن حجرته، فرأيت وجهه كأنه ورقة مُصحف».

وكان الناس يومئذ وقوفاً يصلون خلف أبي بكر، ينظرون إليه. وقد كادوا أن يضطربوا فأشار إليهم أن اثبتوا. ثم توفي رسول الله ﷺ في آخر ذلك اليوم. فما نظرنا منظرًا كان أعجب إلينا من وجهه رضي عنه حين واريناه تراه».

ثمانين عامًا يُحيي فيها القلوب

ويستجيب الله تعالى لدعاء رسول الله ﷺ بأن يُطيل الله في حياته، ويعيش

أنس رضي الله عنه ثمانين عامًا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ليملاً الصدور علمًا من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُحيي القلوب من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد غدا أنس على طول عمره المديد مرجعًا للمسلمين، يفزعون إليه كلما أشكل عليهم أمرًا، ويُعولون عليه كلما استغلق على أفهامهم حُكم. فقد كان ثالث اثنين في رواية الحديث هما: أبو هريرة، وعبد الله بن عمرو. والآن أعزائي، فلنعيش لحظات مع بعض من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كما رسمها لنا أنس بن مالك رضي الله عنه؛ فقد وصف الكثير والكثير من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

- * «ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شممت ريحاً قط، أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم».
- * «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استقبله الرجل فصافحه، لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده. ولا يصرف وجهه عن وجهه، حتى يكون الرجل هو يصرفه. ولم يُر مُقدماً ركبته بين يدي جليس له».
- * «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له: أبو

عُمير. وكان رسول الله ﷺ يقول له مُدَاعِبًا: يا أبا عُمير، ما فعل النُّغير». النُّغير: طائر صغير كان يلعب به.

* للاستزادة من شمائل رسول الله ﷺ: ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب «حياة خير الأنام ﷺ» للمؤلف.

فضائله ومناقبه

ولأنس رضي الله عنه الكثير من الفضائل والمناقب، نذكر منها:

عبادته

يقول أبو هريرة: «ما رأيت أحداً أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من ابن أم سليم» - يعنى أنسًا -

ويقول ثُمَامَة: «كان أنس يُصلي حتى تفتّر قدماه دمًا، مما يطيل القيام». ويقول ثابت: «كان أنس إذا ختم القرآن، جمع ولده وأهل بيته ودعا لهم».

كراماته

عن ثابت قال: «جاء أنس أكار بستانه -أي: القائم على أعمال بستانه - في الصيف فقال له: عطشت أرضك، فدعا أنس بقاء فتوضأ ثم صلى ودعا. فثارت سحابة وغشيت أرضه ومطرت حتى ملأت صهريجه -وكان

الوقت صيفًا، لا مطر فيه-. فأرسل أنس ببعض أهله فقال: انظر أين بلغت؟ فإذا هي لم تعد أرضه إلا يسيرًا».

حُبُّه لرسول الله ﷺ؛ يراه كل ليلة في منامه

ظل أنس رضي الله عنه يعيش مع ذكرى رسول الله ﷺ ما امتدت به الحياة، فكان شديد البهجة بيوم لقائه، سخي الدمعة على يوم فراقه، كثير التردد لكلماته. وكان أكثر ما يذكر من أيام حياته يومان؛ يوم لقائه مع رسول الله ﷺ أول مرة، ويوم مفارقتة له آخر مرة.

فإذا ذكر الأول سَعِدَ به وانتشى، وإذا ذكر الثاني انتحب وبكى وأبكى مَنْ حوله.

وكثيراً ما كان يقول: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يوم دخل علينا، ورأيتُه يوم قُبِضَ منا. فلم أرى يومين يُشبهانها».

ومن شدة حبه وشغفه برسول الله ﷺ، كان يراه في منامه كل ليلة.. يقول أنس: «ما من ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبي»، ثم يبكي.



الفصل الأخير

وبعد حياة طويلة - امتدت إلى قرن من الزمان - مليئة بالسعادة والسرور لصحبة رسول الله ﷺ. وبالتضحية والبذل والعطاء ينام أنس رضي الله عنه على فراش الموت.

هذا خُوَيْدَمُكَ أَنَيْسُ

وقد كان شديد الرجاء لشفاعة رسول الله ﷺ يوم القيامة. فكثيراً ما كان يقول: «إني لأرجو أن ألقى رسول الله ﷺ في يوم القامة، فأقول له: يا رسول الله هذا خُوَيْدَمُكَ أَنَيْسُ».

عمامة رسول الله ﷺ تُدْفَنُ مَعَهُ

ولما أحسَّ أنس بدنو أجله، قال لأهله: «لَقِّنُونِي: لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ثم ظل يرددُها حتى فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها. وكان قد أوصى بعُصبة - أي: عمامة - كانت لرسول الله ﷺ بأن تُدْفَنَ مَعَهُ. فَوُضِعَتْ بين جنبه وقميصه.

ويُنْتَقَل أنس من هذه الدنيا إلى دار الخلود ليلحق بحبيبه ومعلمه رسول

الله ﷺ.

فرحمة الله وبركاته عليك يا خادم رسول الله ﷺ

ورضي الله عنك وأرضاك يا «أنس بن مالك».

جعفر بن أبي طالب

والآن أعزائي، نحن على موعد مع أسطورة أخرى من أساطير الصحابة الأطهار، مثال للتضحية والفداء. أشبه الناس خَلْقًا وُخْلَقًا برسول الله ﷺ، لَقَّبَهُ رسول الله ﷺ بأبي المساكين.. إنه الشهيد الطائر، ابن عم رسول الله ﷺ «جعفر بن أبي طالب» ﷺ.

نسبه ونشأته

إنه جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف. أبوه أبو طالب عم رسول الله ﷺ، وهو الأخ الأكبر للإمام علي بن أبي طالب ﷺ. كان أبوه «أبو طالب» رغم سمو شرفه في قريش، إلا أنه كان رقيق الحال كثير العيال، وخاصة بعد كبر سنّه وقلة دخله.

ولم يكن في بني هاشم يومئذ أيسر من رسول الله ﷺ وعمه العباس. فقال رسول الله ﷺ للعباس: «إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصابه ما ترى، فانطلق بنا نحمل عنه بعض عياله، فأخذ أنا فتى وتأخذ أنت فتى آخر فنكفيهما عنه». ثم انطلقا حتى أتيا أبا طالب وعرضا عليه الأمر. فقال لهما: إن تركتما «عقيلًا» - ابنه الأكبر - فاصنعا ما شئتما. فأخذ رسول الله ﷺ

عليّاً، وأخذ العباس جعفرًا، وجعله في عياله.. وظل جعفر مع عمه العباس، حتى شبَّ وبدأ يستغني عنه.

إسلامه وتعذبه

ولما بدأت الدعوة المحمدية، انضم جعفر إلى ركب النور، وأسلم على يد أبي بكر الصديق، وفي ذات اليوم أسلمت زوجته «أسما بنت عميس». وكان إسلامهما مبكرًا قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم. ولقي الفتى الهاشمي هو وزوجته من أذى قريش ونكالها ما لقيه إخوانهما من المسلمين.

الهجرة إلى الحبشة

وتحت وطأة بطش قريش واضطهادها لمن آمنوا بالله ورسوله، يأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، ويخرج جعفر هو وزوجته مع الذين هاجروا.

قريش تطارد المهاجرين

فما كادت قريش تعلم أمر الهجرة، ورحيل هؤلاء النفر من المسلمين إلى الحبشة، حتى هبَّت ثورتها وزاد غيظها، وخشيت أن يقوى هناك بأس

المسلمين ويتكاثر جمعهم، خاصة بعد ما علموا ما نالوه من حمى ملكهم، ومن الأمن والأمان على أنفسهم وعلى عقيدتهم. هنالك قرّر سادات قريش إرسال مبعوثين من أقوى رجالها إلى النجاشي، يحملان الهدايا النفيسة؛ أملاً في أن يُخرج هؤلاء المسلمين من دياره، ويُعيدهم إلى بطش وقهر قريش. وكان هذان المبعوثان هما: عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، وكانا لم يسلمًا بعد.

خطة قريش

أوصى زعماء قريش مبعوثيهم إلا يقابلا النجاشي قبل أن يُعطيا الهدايا للبطارقة أولاً، حتى يُقنعوهم بوجهه نظرهما، وليكونا لهما عوناً عند النجاشي. ويصل المبعوثان إلى الحبشة، ويقابلا البطارقة وينثرا بين أيديهم الهدايا التي حملها إليهم. ومضياً يُوغران صدورهم ضد المسلمين، ويستنجدان بهم لحمل النجاشي على طردهم من بلاده. وكان أخوف ما يخافه هذان المبعوثان هو أن يتكلم المسلمون أمام النجاشي.

الملك العادل

ثم أتيا النجاشي بعد أن اتفقت البطارقة أن يُشيروا على النجاشي بطرد المسلمين من أرضه. وقدما الهدايا إلى النجاشي، ثم كلماه فقالا: أيها الملك إنه قد ضوى-أي: أوى- إلى مملكتك طائفة من أشرار غلماننا، قد جاءوا بدينٍ ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، ففارقوا ديننا ولم يدخلوا في دينك. وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلم الناس بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيهم. فنظر الملك إلى بطارقتهم، فقال البطارقة: صدقا أيها الملك، فإن قومهم أبصر بهم وأعلم بما صنعوا، فُرِّدَّهم إليهم ليروا رأيهم فيهم.

وهنا غضب الملك العادل غضباً شديداً من كلام بطارقتهم، وقال: لا والله لا أسلمهم حتى أدعوهم ونسألهم عما نُسب إليهم.

جعفر مُتحدث رسمي عن المسلمين

ويرسل النجاشي إلى المسلمين ليدعوهم للقاءه، فاجتمعوا قبل الذهاب إليه، وقرَّروا أن يتمسكوا بما يؤمنون به كائناً ما كان. وفوضوا جعفر بن أبي طالب ليكون هو المتحدث الرسمي، وليتكلم عنهم ولا يتكلم أحدٌ غيره. وكان هذا الاختيار لجعفر لما عرفوا عنه من لباقة وكياسة وعلم وحُسن خطاب.

الحوار التاريخي

ويدخل المسلمون على النجاشي، فوجدوه على عرشه والبطارقة من حوله، وعندهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة. ويدور هذا الحوار التاريخي بين النجاشي، والمتحدث الرسمي باسم المسلمين «جعفر بن أبي طالب».

ويلتفت النجاشي إلى المسلمين ويقول: «ما هذا الدين الذي استحدثتموه لأنفسكم، وفارقتم به دين قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أي من هذه الملل؟»

فيتقدم جعفر بن أبي طالب ويقول: «أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. وبقينا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه».

جعفر يعرض الإسلام

ويستطرد جعفر في حديثه وبعد أن قدّم للنجاشي صورة كاملة عن أوضاعهم قبل الإسلام، فيعرض لمبادئ الإسلام ويقول:

* «فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه

من الحجارة والأوثان».

* «وقد أمرنا: بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم، وحقن الدماء، ونهانا: عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات».

* «وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وأن نقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان. فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فحللنا ما أحلّ لنا وحرمنا ما حرم علينا».

* «فما كان من قومنا أيها الملك، إلا أن عدوا علينا فعذبونا أشد العذاب، ليفتنونا عن ديننا ويردونا إلى عبادة الأوثان».

* «فلما ظلمونا وقهرونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، أمرنا نبينا بالهجرة إلى بلادك وقال: «إن فيها ملكاً عادلاً» فخرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا إلا نُظلم عندك».

وبهذا الأسلوب الراقي الهادئ، تُضيء كلمات جعفر عليه السلام في نفس النجاشي. ويقول لجعفر: «هل معك شيء مما جاء به نبيكم عن الله؟ قال: نعم. قال:

فاقرأ عليّ. فمضى جعفر يتلو في أداء عذب وخشوع بعض آيات من صدر

سورة مريم: { كَهَيْعِص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً

خَفِيًّا } [مريم: ١-٣]، واستمر حتى قوله: { وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ

يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا { [مريم: ١٥].

فبكى النجاشي، وبكى معه أساقفته جميعاً، ولما كَفَّفَ دموعه الغزيرة، التفت إلى جعفر والمسلمين من حوله، وقال: «والله، إن هذا الذي جاء به نبيكم والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. ثم التفت إلى عمرو وصاحبه، مبعوثا قريش، وقال لهما: «انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما أبداً».

محاولة أخيرة يائسة من مبعوثي قريش

وينفضُّ الجميع وقد نصر الله عباده وأزرهم، وابتلى مندوبا قريش بهزيمة منكرة. لكنَّ عمرو بن العاص، وقد كان داهيةً واسع الحيلة لا يتجرع الهزيمة ولا يُدْعِن لليأس، فقال لصاحبه: «والله لآتين الملك غداً، ولأذكرن له من أمرهم بما يستأصلهم من جذورهم». فقال له عبد الله بن ربيعة، وكان أتقى الرجلين: «لا تفعل فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا». قال: «والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبْدٌ».

فلما كان الغد، دخل عمرو على النجاشي، وقال له: «أيها الملك، إن هؤلاء الذين أويتهم، يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً. فأرسل إليهم، وسلهم عما يقولون فيه».

ويرسل النجاشي للمسلمين مرة أخرى، فلما علموا بهذه المؤامرة الجديدة، نزل بهم الهَمُّ والغَمُّ ما لم يتعرضوا لمثله قط. وجلسوا يتشاورون، فيما يقولون في عيسى ابن مريم؟ واتفقوا على ألا يقولوا إلا ما قال الله ﷻ، وجاء به رسوله ﷺ وليكن ما يكون. واتفقوا على أن يتولى الكلام عنهم «جعفر بن أبي طالب» أيضاً.

ويلتقي الجمع مرة أخرى في حضرة الملك. فما أن جاء المسلمون إليه حتى بادرهم بقوله: «ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟». فوقف ممثل المسلمين والمتحدث عنهم «جعفر بن أبي طالب» وقال: «إنما نقول فيه ما جاء به نبينا ﷺ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

وما أن سمع النجاشي قول جعفر، حتى ضرب بيده الأرض وأخذ منها عوداً وقال: «والله، ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود».

وهو إعلان صريح من النجاشي بأن هذا هو نفس ما قاله المسيح عن نفسه. وتخرج أصوات من صفوف البطارقة من حوله استنكاراً لما سمعوه.

ويمضي النجاشي ويلتفت إلى المسلمين، ويقول لهم: «اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي، ومن سبكم أو آذاكم فعليه غرم -أي: عقاب - والله ما أحب أن يكون لي جبل من ذهب وأن يُصاب أحد منكم بسوء». ثم يلتفت إلى

حاشيته ويقول لهم مُشيراً إلى مبعوثي قريش: «رُدُّوا عليها هدايتها، فلا حاجة لي بها».

ويخرج عمرو وصاحبه مكسورين مقهورين، يجران أذيال الخيبة.

دروس من حوار جعفر للنجاشي

لقد استوقفنا هذا الحوار الراقى، والأسلوب الذي عرض به «جعفر بن أبي طالب» ﷺ الإسلام على النجاشي. وهو ما يجب أن نتأمله ونتدارسه؛ لأنه يصلح أن يكون مرجعاً مهماً لكل داعية للإسلام في كل زمان ومكان.. فقد تمحور عرضه في الآتي:

١- إبراز مساوئ الجاهلية، والأوضاع المتردية التي كانوا عليها قبل الإسلام: «كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام..».

٢- تعريف برسول الله ﷺ وبعض شمائله: «رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته..».

٣- عرض لمبادئ الإسلام «أصول الدين»:

أ- العقيدة: «دعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده..».

ب- المعاملات: «أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة..».

- ج- العبادات: «نقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة...».
- ٤- عرض للظلم والقهر الذي تعرَّضوا له بسبب إسلامهم: «فما كان من قومنا إلا أن عدوا علينا...».
- ٥- مدح النجاشي ولكن بدون نفاق: «أمرنا نبينا بالهجرة إلى بلادك، وقال: إن فيها ملكاً عادلاً...».
- ٦- فطنته واختياره الموفق لصدر سورة مريم ليتلوها على النجاشي، لما طلب منه بعض مما أنزل على رسول الله ﷺ. ففيها ذكر لقصة زكريا ويحيى وهما النبيان اللذان عاصرا المسيح -عليه السلام-، ولا اختلاف بين ما قصته التوراة وما جاء في القرآن عنهما. لذلك ما أن سمع النجاشي بهذه الآيات حتى بكى واخضلت لحيته - كما أسلفنا -.
- فما أحوجنا اليوم لمثل هذا الرُّقي، وهذا الطرح في الدعوة، وخاصة مع ما تتعرض له الأمة هذه الأيام من فتن وتحديات جسام..

عودة إلى المدينة

ويقضي جعفر رضي الله عنه وزوجته «أسماء بنت عميس» عشر سنوات في رحاب النجاشي، آمنين مطمئنين يعبدون الله بلا قيود، ولا عذاب يُسلط عليهم من كفار قريش. وقد رزقهما الله في هذه الفترة بأولادهما الثلاثة؛ محمد، وعبد الله، وعوف.

وكان مهاجرو الحبشة يتابعون ما يحدث في مكة، فبلغهم هجرة رسول الله ﷺ والمسلمين إلى المدينة، وسرَّهم انتصار المسلمين ببدر، وكذلك لما علموا بصلح الحديبية وما أضفاه من صبغة الندية بين قريش والمسلمين.

ولما رأى رسول الله ﷺ أنه لا داعي لبقاء المسلمين أكثر من ذلك في الحبشة، وقد تغيرت الأحوال إلى الأفضل، فأرسل إلى النجاشي يطلب منه السماح لهم بالعودة. فأرسلهم النجاشي في سفينتين، ونزلوا بميناء ينبع ثم ساروا إلى المدينة.

بأيها أفرح: بفتح خبير أم بقدوم جعفر؟

ويعود جعفر رضي الله عنه إلى المدينة، ويمضي وأقدامه تسابق الريح شوقاً لرؤية الحبيب صلى الله عليه وسلم. وما أن وصل حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عائداً من فتح خيبر. وكما كانت غبطة وسعادة جعفر برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كانت غبطة وسعادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدوم جعفر. فما أن رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى عانقه وهو يقول: «والله ما أدري بأيها أفرح: بفتح خبير أم بقدوم جعفر؟».

أبو المساكين

لم تكن فرحة المسلمين عامة، والفقراء خاصة، بعودة جعفر بأقل من فرحة

رسول الله ﷺ؛ فقد كان جعفر شديد العطف والبر على الفقراء والضعفاء، حتى إنه كان يُلقَّب بـ«أبو المساكين». يقول أبو هريرة: «كان أخير الناس لنا معشر المساكين جعفر بن أبي طالب، فقد كان يمضي بنا إلى بيته، فيُطعمنا ما يكون عنده، حتى إذا نفذ طعامه أخرج لنا العُكَّة - أي: قربة صغيرة يوضع فيها السمن - وليس فيها شيء فنشقتها ونلحق ما علق بداخلها».

الفصل الأخير

الشوق للجهاد والشهادة

ويعود جعفر رضي الله عنه إلى رحاب رسول الله ﷺ، بعد غياب دام عشر سنوات، يلزمه في حله وترحاله. ويخرج رسول الله ﷺ وصحبه ومعهم جعفر إلى مكة؛ حيث اعتمروا عمرة القضاء، وعادوا إلى المدينة. وفي الطريق امتلأت نفس جعفر روعةً بما سمع من أبناء إخوانه المؤمنين الذين خاضوا مع رسول الله ﷺ غزوتي بدر وأُحد وغيرهما من المشاهد. وفاضت عيناه بالدمع على الذين قضوا نحبتهم شهداء أبراراً. وهو ما جعله يتلهف شوقاً للجهاد في سبيل الله والفوز بالشهادة.

معركة مؤتة

لم يطل انتظار جعفر طويلاً، فكانت معركة مؤتة - أسلفنا الحديث عنها تفصيلاً، - انظر حياة خالد بن الوليد-.

ويجهز رسول الله ﷺ جيشاً لمنازلة الروم في بلاد الشام، واستعمل عليهم «زيد بن حارثة»، وقال ﷺ: «إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة». ويمضي جيش المسلمين الذي كان قوامه ثلاثة آلاف، حتى وصلوا إلى مؤتة. وهناك وجدوا الروم قد أعدوا لهم مائة ألف، يساندهم مائة أخرى من القبائل المناصرة لهم. وتبدأ المعركة ويلتقي الجمعان. ويصاب زيد بن حارثة ويسقط شهيداً.

بطولة وإقدام جعفر

فما كادت الراية توشك على السقوط من يمين زيد حتى تلقاها جعفر ومضى يقاتل في إقدام خارق. فتكاثر عليه الروم، ولما رأى فرسه تعوق حركته، نزل عنها، ثم عقرها - أي: ضرب قوائمها بسيفه - حتى لا تنفع الأعداء من بعده.

وأدرك الروم مقدرة الرجل الذي يقاتل وكأنه جيش كامل، فأحاطوا به في إصرار على قتله. فضربوا بالسيوف يمينه فقطعت، وقبل أن تسقط الراية

على الأرض تلقاها بشماله، فضربوا شماله فُقطعت، فاحتضن الراية بصدرة وعضديه.

وفي هذه اللحظة تركزت كل مسئوليته في ألا يدع راية رسول الله ﷺ تلامس التراب وهو حيّ. وظل هكذا يقاتل حتى نال ما كان يصبو إليه، وهو الفوز بالشهادة. وحين سقط شهيداً كانت سارية الراية مغروسة في عضدي جثمانه، مرفوعة خفاقة حتى أخذها «عبد الله بن رواحة». يقول عبد الله بن عمر: «كنت مع جعفر في مؤتة، فالتمسناه وبه بضع وتسعون ما بين طعنة رمح أو ضربة سيف ما منها شيء في دُبره - أي: ظهره -».

الشهيد الطائر

وينعي رسول الله ﷺ لصحبه وللأمة الشهداء، فصعد المنبر وقال: «ألا أخبركم عن جيشكم؛ إنهم لقوا العدو فأصيب زيد، فاستغفروا له. ثم أخذ الراية جعفر فشَدَّ على الناس فُقطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله فُقطعت شماله فاحتضنها بعضديه وقاتل حتى قُتل، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة، فأثبت قدميه حتى أُصيب شهيداً».

وقال رسول الله ﷺ: «رأيت جعفر بن أبي طالب، عَوْضه الله عن ذراعيه

بجناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة»، ولذلك لُقِّب جعفر بن أبي طالب بـ«الشهيد الطائر».

رسول الله ﷺ يبكي جعفرًا

وقام رسول الله ﷺ إلى بيت ابن عمه، فلما أقبل عليهم رأت زوجته «أسماء بنت عميس» على وجه رسول الله ﷺ الحزن، فحيا وقال: «ائتني بأولاد جعفر» فجاءوه فأكب عليهم وأخذ يشمهم وعيناه تذرفان من الدمع. فقالت له أسماء: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وصاحبيه شيء؟ قال: «نعم، لقد استشهدوا اليوم»، فبكت بكاءً شديدًا وبكى أطفالها.

فمضى رسول الله ﷺ وهو يكفكف عبراته ويقول: «اللهم أخلف جعفرًا في أهله». وقال: «لا تُغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعامًا؛ فإنهم سُغِلوا بأمرٍ صاحبهم».

مصعب بن عمير وجعفر بن أبي طالب

لقد استوقفنا هذا التشابه بل قُل التطابق بين هذين الصحابييين الجليلين: مصعب بن عمير وجعفر بن أبي طالب.

فلقد كان بينهما تشابهٌ في عدة مناحي:

- ١- فكلاهما شديد الشَّبه برسول الله ﷺ خَلَقًا وَخُلُقًا.
- ٢- كلاهما عنده من حسن الأداء وبلاغة الخطاب ما يأخذ بالألباب. فمصعب بن عُمير كان أول سفير للإسلام، وبأسلوبه الراقي في الدعوة؛ أسلم على يديه أهل المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ إليها. وكذلك كان أسلوب جعفر بن أبي طالب في عرض الإسلام على النجاشي، وما تلاه من قناعة للنجاشي وخذلان لمبعوثي قريش.
- ٣- كلاهما استشهد بنفس الطريقة: كان مصعب حامل اللواء في الأُحد، فُقُطعت يمينه فحمله بيساره، ثم قُطعت يساره فحمله بعضديه حتى استشهد. وكذلك كان جعفر لما كان حامل اللواء في مؤتة، وقُطعت يمينه، فحمل اللواء بيساره، فقطعت يساره فحمله بعضديه حتى استشهد..
- ٤ - كلاهما استشهد وهو في الثلاثينيات من عمره. يالها من مصادفة يعلم الله وحده مُرادها ومغزاها..



وهكذا أعزائي وبعد حياة قصيرة في أعوامها (ثلاثة وثلاثون عامًا)، طويلة بإنجازاتها تنتهي حياة هذا البطل كأحسن نهاية. ويلحق بركب الصالحين

والشهداء الأبرار.

فرحمة الله وبركاته عليك أيها «الشهيد الطائر»

يا «أبا المساكين» .

ورضي الله عنك وأرضاك يا «جعفر بن أبي طالب» .

أبو هريرة

ولنستمع الآن أعزائي بهذا الضيف العزيز من هذه الباقية العطرة من «الصحب الكرام». فضيفنا هو ذاكرة عصر الوحي والنبوة؛ إنه الإمام الفقيه المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ «أبو هريرة». فهو أكثر الصحابة ذكراً، فلا يمر يوماً إلا وتسمع أو تقرأ تلك العبارة المأثورة: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ...». فلنعيش مع هذا الصحابي الجليل؛ صاحب الموهبة الفذة في سعة الذاكرة وقوتها، وأكثر الأصحاب قدرة على نقلك إلى أيام الوحي وصحبة رسول الله ﷺ.

نسبه

هو عبد شمس (سماه رسول الله ﷺ «عبد الرحمن») بن صخر الدوسي اليماني. وكُنيتُه «أبو هريرة»؛ لأنه كان عطوفاً على الحيوان، وكانت له في طفولته هرة صغيرة يُطعمها ويُنظفها ودائماً يحملها، فجعل أقرانه ينادونه «أبا هريرة».

إسلامه

أسلم أبو هريرة على يد الطفيل بن عمرو الدوسي، وظل في أرض قومه «دوس» ست سنوات حتى وفد مع جموع من قومه على رسول الله ﷺ بالمدينة، وكان ذلك بعد خيبر.

إسلام أمه

وما أن وطئت قدما أبي هريرة المدينة حتى انقطع لصحبة رسول الله ﷺ، ولازمه ملازمة الظل لصاحبه، وسعد بهذه الصحبة، إلا أنه كان يُضنيه مشكلة واحدة وهي أمه، فكان لا يفتأ يدعوها إلى الإسلام إشفاقاً عليها وبراً بها، فتنفر منه فيتركها والحزن يملأ قلبه، وفي ذات يوم دعاها للإسلام فرفضت، ليس ذلك فحسب، بل قالت في رسول الله ﷺ قولاً أحزنه وأوجعه، فمضى إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي.

يقول أبو هريرة: فجئت إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله، كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليّ، وقد دعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة للإسلام. فدعا لها رسول الله ﷺ. يقول أبو هريرة: فمضيت إلى البيت، فإذا الباب قد رُدّ، وسمعت خضخضة الماء. فلما هممت بالدخول، قالت أمي: مكانك - أي: لا تدخل - يا أبا هريرة، ثم لبست ثوبها وقالت: ادخل، فدخلت فقالت: أشهد أن لا

إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فعدت أسعى إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكي من الفرح، كما بكيت قبل ساعة من الحزن وقلت: أبشريا رسول الله؛ فقد استجاب الله دعوتك، وهدى أم أبي هريرة للإسلام.

اللهم حَبِّ عُبَيْدِكَ هَذَا إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ

ثم قال أبو هريرة: يا رسول الله، ادع الله أن يُحِبِّني وأمي إلى المؤمنين والمؤمنات. فقال ﷺ: «اللهم حَبِّ عُبَيْدِكَ هَذَا وَأُمِّهِ إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ»، وقد استجاب الله ﷺ دعاء رسول الله ﷺ فأصبح أبو هريرة محبباً إلى كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم الدين.

أعماله

ويظل أبو هريرة ملازماً لرسول الله ﷺ لا يفارقه قط إلا ساعات النوم. فكان يُقيم في المسجد مع أهل الصُّفَّة، فحمل عنه علماً كثيراً طيباً. وأدرك أبو هريرة بفطرته السديدة الدور الكبير الذي يستطيع أن يخدم به دين الله. فإن أبطال الحرب من الصحابة كثيرون، والفقهاء والدعاة كثيرون. لكنَّ البيئة والجماعة تفتقد الكتاب والكتاب، فأدرك أبو هريرة حاجة المجتمع الجديد الذي بينه الإسلام إلى مَنْ يحفظون تراثه وتعاليمه.

أربع سنوات كانت عُمرًا وحدها

قضى أبو هريرة منذ قدومه إلى المدينة إلى أن انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى أربع سنوات فقط، وعلى الرغم من قصرها إلا أنها كانت عُمرًا وحدها. فكانت طويلة عريضة ممتلئة بكل صالح من القول والعمل والإصغاء. فقد أصبح أبو هريرة من أكثر الصحابة رواية لحديث رسول الله ﷺ. وما زال هذا العلم ينتقل إلى الأمة حتى يومنا هذا، وإلى يوم الدين. فما من يوم يمر علينا، إلا ونسمع اسم أبي هريرة رضي الله عنه... فالعبرة بالعمل المخلص، لا بالسبق.

رحلته في طلب العلم

والآن أعزائي فلنعيش مع هذا الصحابي الجليل رحلته في طلب العلم، لنرى كيف كان له هذا الجهد الكبير والعمل الجليل في تلك الفترة القصيرة؟

كيف أوظف قدراتي لخدمة دين الله؟

أدرك أبو هريرة بفطرته - كما أسلفنا - حاجة الدين لمن يحفظ له تراثه، وقد رأى أنه لحق برسول الله ﷺ متأخرًا. فعزم أن يعوّض ما فاتته، وذلك بأن

يواظب على متابعة رسول الله ﷺ ومجالسته. ثم إنه يعرف في نفسه ذاكرته الرحبة القوية التي أنعم الله بها عليه. وزادت رحابتها بدعاء رسول الله ﷺ أن يبارك الله له فيها - كما سيأتي ذكره لاحقاً - . فعكف على ملاحظة رسول الله ﷺ في كل أقواله وأفعاله، وحفظها في ذاكرته الرحبة لينقلها عنه.

وعليه أعزائي.. يجب على كل منا أن يبحث في نفسه، كيف أخدم ديني؟ وأي قدرات أو مزايا منحني الله إياها؟ وكيف أوظفها لخدمة دين الله؟

انقطاع لخدمة رسول الله ﷺ

لم تكن لأبي هريرة تجارة ينشغل بها، ولا أرض يقوم برعايتها، فكان منقطعاً تماماً لخدمة رسول الله ﷺ. وكان حبه لرسول الله ﷺ حباً خالصاً خالط لحمه ودمه، فكان لا يشبع من النظر إليه ويقول: «ما رأيت شيئاً أملك ولا أصبح من رسول الله ﷺ، حتى لكأن الشمس تتلأأ "تجري" على وجهه». ويقول حامداً الله على صحبة رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي علّم أبا هريرة القرآن. الحمد لله الذي منّ على أبي هريرة بصحبة محمد ﷺ».

الولع بالعلم والتعلم

وكما أولع أبو هريرة برسول الله ﷺ، فقد أولع بالعلم والتعلم. فحرص

على مراقبة رسول الله ﷺ - كما أسلفنا - في كل أقواله وأفعاله، وحفظها ونقلها عنه.

مثال ذلك: أنه لاحظ رسول الله ﷺ يصمت قليلاً ولا يرتفع صوته بعد تكبيرة الإحرام وقبل بداية القراءة. فسأله أبو هريرة عن ذلك فقال: «إني أقول: اللهم باعد بيننا وبين خطايانا كما باعدت بين المشرق والمغرب». وهكذا تعلمنا نحن ذلك عن رسول الله ﷺ بفضل حرص أبي هريرة على العلم والتعلم.

رسول الله ﷺ يشهد بحرصه على العلم

ويشهد رسول الله ﷺ لأبي هريرة بحرصه على العلم والتعلم. يقول أبو هريرة: سألت رسول الله ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا أحدٌ أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ونفسه».

معاناته في سبيل طلب العلم

لم يكن حرص أبي هريرة وولعه في طلب العلم بالأمر اليسير، فقد عانى

بسبب انصرافه للعلم وانقطاعه لمجالس رسول الله ﷺ ما لم يُعَانِه أحد من الجوع وخشونة العيش.

* روى أبو هريرة عن نفسه فقال: «إني كنت أسأل الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ عن الآية من القرآن وأنا أعلمها، كي يصحبني إلى بيته ليطعمني القبضة من التمر أو الشقة من السويق أسدَّ بها جوعي».

وما يفعل هذا اللبن مع أهل الصُّفَّة؟!

يقول أبو هريرة: «وإن كنت لأشد الحजर على بطني من الجوع. فقعدت في طريق الصحابة، فمر بي أبو بكر فسألته عن آية في كتاب الله، وما سألته إلا ليدعوني، فما دعاني. فمر بي عمر بن الخطاب فسألته عن آية فلم يدعني أيضًا. حتى مر بي رسول الله ﷺ، فعرف ما بي من جوع، فقال: «أبو هريرة؟». قلت: لبيك يا رسول الله. وتبعته فدخلت معه البيت، فوجد قدحًا فيه لبن، فقال لأهله: «من أين لكم هذا؟» قالوا: أرسل به فلان إليك. فقال: «يا أبا هريرة، انطلق إلى أهل الصُّفَّة فادعهم».

فسأني إرساله إياي لدعوتهم، وقلت في نفسي: ما يفعل هذا اللبن مع أهل الصُّفَّة؟، وكنت أرجو أن أنال منه شربة أتقوى بها، ثم أذهب إليهم. ولم يكن من طاعة الله ورسوله بُدَّ، فأتيت أهل الصُّفَّة ودعوتهم فأقبلوا مجيبين.

فلما جلسوا عند رسول الله ﷺ قال: «خذ يا أبا هريرة فأعطهم»، فجعلت أُعطي الرجل فيشرب حتى يَروى إلى أن شربوا جميعاً، فناولت القدح لرسول الله ﷺ فرفع رأسه مبتسماً وقال: «بقيت أنا وأنت». قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «فاشرب»، فشربت. ثم قال: «اشرب» فشربت. فما زال يقول اشرب فأشرب، حتى قلت: «والذي بعثك بالحق لا أجد له مساعفاً- أي: لا أجد له مكاناً لأشربه-». فأخذ رسول الله ﷺ الإناء وشرب الفضلة. تذكر بعض الروايات: أن عدد أهل الصُّفَّة كان يربو على أربعمائة. وهذه معجزة من معجزات رسول الله ﷺ ومثلها كثير.. (انظر موقعة الخندق «حياة خير الأنام» للمؤلف).

* لم يكن أبو هريرة ليسأل الناس. يقول عن نفسه: «ما أحد من الناس يهدي لي هدية إلا قبلتها، فأما أن أسأل، فلم أكن لأسأل».

* وكان ﷺ يعمل أجيراً عند امرأة يُقال لها «بُصرة بنت غزوان»، وكان راتبه طعام بطنه.

رسول الله ﷺ يدعو له: لا ينسى حديثاً قط

لما كان هذا الجهد، وذلك العناء من أبي هريرة في سبيل تحصيله للعلم، فقد منَّ الله عليه بهذه المنحة وهذا الفضل ونال دعاء رسول الله ﷺ له.

* سبقكم بها الغلام الدوسي

يقول زيد بن ثابت: بينما أنا وأبو هريرة وصاحب لي في المسجد ندعو الله تعالى ونذكره؛ إذ طلع علينا رسول الله ﷺ، وأقبل نحونا حتى جلس بيننا، فسكتنا فقال ﷺ: «عودوا إلى ما كنتم فيه»، فدعوت الله أنا وصاحبي - قبل أبي هريرة - وجعل رسول الله ﷺ يؤمِّن على دعائنا. ثم دعا أبو هريرة فقال: «اللهم إني أسألك ما سألك صاحبي، وأسألك علمًا لا يُنسى»، فقال رسول الله ﷺ: «آمين». فقلنا: ونحن يا رسول الله، نسأل الله علمًا لا يُنسى. فقال ﷺ: سبقكم بها الغلام الدوسي».

* ما نسيت شيئاً بعده

يقول أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، أسمع منك حديثاً كثيراً وأنساه. فقال ﷺ: «ابسط رداءك» فبسطته، فغرف ﷺ بيده ثم قال: «ضُمَّه» فضممته. فما نسيت شيئاً بعده. وفي رواية: والذي بعثه بالحق، ما نسيت من مقالته تلك إلى يومي هذا شيئاً.

أكثر الصحابة حفظاً لأحاديث رسول الله ﷺ

وهكذا كان أبو هريرة رضي الله عنه يُكرِّس نفسه وذاكرته القوية لحفظ أحاديث

رسول الله ﷺ، فكان من أكثر الصحابة روايةً لأحاديث رسول الله ﷺ. فقد روى أكثر من ثلاثة آلاف حديث عن رسول الله ﷺ.

* يقول أبو هريرة عن نفسه: «ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه يكتب ولا أكتب».

* ويقول الإمام البخاري: «روى عن أبي هريرة نحو ثمان مئة أو أكثر من الصحابة والتابعين وأهل العلم».

وهكذا كان أبو هريرة مدرسة كبيرة كُنِبَ لها البقاء والخلود.

سرّ تفرد به كثرة الرواية عن رسول الله ﷺ

لما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، راح أبو هريرة يحدث ويحدث، مما جعل بعض أصحابه يعجبون من كثرة روايته على الرغم من أنه لم يصحب رسول الله ﷺ إلا أربع سنوات. فكانوا يقولون: أنى له كل هذه الأحاديث؟ ومتى سمعها ووعاها؟

ويُلقي أبو هريرة الضوء على هذه الظاهرة، ليُفصح عن سرّ هذه المنحة التي امتنَّ الله عليه بها.

يقول أبو هريرة: «إنكم لتقولون: أكثر أبو هريرة في حديثه عن النبي ﷺ، وتقولون: ما للمهاجرين والأنصار الذين سبقوه إلى الإسلام لا يحدثون

هذه الأحاديث؟ إلا أن إخواني المهاجرين كانت تشغلهم تجارتهم، وإخواني الأنصار تشغلهم أراضيتهم. وإني كنت امرأ مسكيناً، ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأحضر إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا.

وأيم الله، لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم بشيء أبداً: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

وهكذا يُفسِّر أبو هريرة سر تفرُّده بكثرة الحديث عن رسول الله ﷺ فهو: أولاً: كان متفرغاً لصحبة رسول الله ﷺ.

ثانياً: كان يحمل ذاكرة قوية باركها رسول الله ﷺ فزادت قوة.

ثالثاً: أنه كان لا يُحدث رغبةً في الحديث، بل لأن تبليغ هذه الأحاديث مسئولية، وإلا كان كاتماً للخير والحق.

مروان بن الحكم يختبر قوة ذاكرته

وظل أبو هريرة يحتفظ بقوة ذاكرته ما طالت به الحياة. فأراد مروان بن الحكم يوماً أن يختبر قدرته على الحفظ، فدعاه إليه وأجلسه معه وطلب منه أن يحدثه عن رسول الله ﷺ في حين أجلس كاتبه وراء حجاب وأمره أن

يكتب كل ما يقول أبو هريرة.. وبعد مرور عام، دعاه مروان بن الحكم مرة أخرى، وأخذ يستقرئه نفس الأحاديث التي كان سَطَّرها كاتبه، فما نسي أبو هريرة منها كلمة واحدة.

طريقته في الدعوة

وكما أحبَّ أبو هريرة العلم لنفسه، فقد أحبَّه لغيره. وكان يريد من إخوانه أن يحرصوا على طلب العلم وتبليغه كما يفعل هو، فكان يبتكر أساليب جديدة وطيبة في الدعوة إلى الله. ومن ذلك أنه مرَّ ذات يوم بسوق المدينة، فوجد الناس قد انشغلوا بالبيع والشراء، فخاف عليهم من إقبال الدنيا عليهم وانصرافهم عن طلب العلم. فوقف عليهم وقال: ما أعجزكم يا أهل المدينة. قالوا: وما رأيت من عجزنا يا أبا هريرة؟ قال: ميراث رسول الله ﷺ وأنتم هاهنا، ألا تذهبون وتأخذون نصيبكم! قالوا: وأين هو يا أبا هريرة؟ قال: في المسجد.

فخرجوا سراعاً، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فلما رأوه قالوا: يا أبا هريرة لقد أتينا المسجد فدخلنا فيه فلم نجد شيئاً يُقسَّم. فقال لهم: أما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى، رأينا قوماً يُصلون، وقوماً يقرءون القرآن، وقوماً يتذكرون في الحلال والحرام. فقال لهم: ويحكم.. ذلك هو ميراث نبيكم ﷺ.

وهكذا أعزائي يكون الداعية إلى الله، دائماً يبتكر أساليب حديثة في الدعوة، ودائماً يبحث عن كل ما هو جديد ويوظفه لخدمة الدعوة.

مناقبه وفضائله

١ - قوة الذاكرة والحرص على العلم

كان أهم ما يتميز به أبو هريرة رضي الله عنه هو حرصه على العلم والتعلم، وقوة الذاكرة التي وهبها الله إياها، وزادها قوة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له - كما أسلفنا.

٢ - عبادته

* كان أبو هريرة من العابدين الأوابين، فكان يصوم النهار ويتناوب مع زوجته وابنته قيام الليل كله، فيقوم هو ثلثه، ثم يوقظ زوجته فتقوم ثلثه الثاني، ثم توقظ زوجته ابتها فتقوم ثلثه الأخير. وهكذا لا يمر من الليل ساعة واحدة إلا وفي بيت أبي هريرة عبادة وذكر وصلاة.

* لما علم أبو هريرة أن دية القتيل اثني عشر ألف درهم. فكان يسبِّح كل يوم اثني عشر ألف تسيحة، ويقول: «أُسبِّح بقدر ديتي، عسى أن أعتق من النار».

٣- بره بأمه: حرصه على بر الوالدين

* كان أبو هريرة شديد البر بوالدته. ومن شدة بره بها أنه كان شديد الحرص على هدايتها، وسأل رسول الله ﷺ أن يدعو لها ويهديها، حتى أسلمت - كما أسلفنا -.

وقد ظل أبو هريرة بارًّا بأمه ما امتدت به الحياة. فكان كلما أراد الخروج من البيت، وقف على باب حجرتها وقال: السلام عليك يا أمتاه ورحمة الله وبركاته. فتقول: وعليك السلام يا بُني ورحمة الله وبركاته. فيقول: رحمك الله كما ربيتني صغيراً. فتقول: ورحمك الله، كما بررت بي كبيراً. ثم إذا عاد إلى البيت فعل مثل ذلك.

* لم يكن بره بأمه فحسب، بل كان يحرص أشد الحرص على دعوة الناس إلى بر آبائهم وصلة أرحامهم.

فقد رأى ذات يوم رجلين أحدهما أسن - أي: أكبر سنًا - من الآخر يمشيان معًا، فقال لأصغرهما: ما يكون هذا الرجل منك؟ فقال هذا أبي. فقال له: لا تُسمِّه باسمه، ولا تمشِ أمامه، ولا تجلس قبله.

فما أحوجنا هذه الأيام لتعليم هذه المبادئ والأخلاق لأبنائنا. فمتى احترم صغيرنا كبيرنا، ورحم كبيرنا صغيرنا - كما قال رسول الله ﷺ - استقامت الأمة وصلح حالها.

٤- تواضعه وخفة ظله

لما فاضت الخيرات على المسلمين، وتدفقت عليهم غنائم الفتح، فصار لأبي هريرة مال ومنزل ومتاع، وزوج وولد. غير أن هذا كله لم يغير من نفسه الكريمة شيئاً، ولم يُنسه أيامه الخالية. بل زاده تواضعاً وحمداً لله على نعمه التي منَّ بها عليه.

* يقول أبو هريرة عن نفسه: «نشأت يتيمًا، وهاجرت مسكينًا، وكنت أجيرًا «لبُصرة بنت غزوان» بطعام بطني. فكنت أخدم القوم إذا نزلوا، وأحدوا لهم -أي: أسوق إبلهم- إذا ركبوا. فزوجنيها الله، فهي امرأتي؛ -إشارة إلى بُصرة التي كان يخدمها وأصبحت زوجته-.

* صلى أبو هريرة يومًا بالناس، فلما سلم رفع صوته وقال: «الحمد لله الذي جعل الدين قوامًا، وجعل أبو هريرة إمامًا».

* وقد ولي أبو هريرة المدينة من قبل معاوية بن أبي سفيان، فلم تبدل الولاية من ساحة طبعه وخفة ظله شيئًا. فقد مر بأحد طرق المدينة - وهو واليًا عليها - وكان يحمل الخطب على ظهره لأهل بيته، فمر بثعلبة بن مالك، فقال له: أوسع الطريق للأمير يا ابن مالك، فقال له: يرحمك الله، ما يكفيك هذا المجال كله؟ فقال له: أوسع الطريق للأمير وللحزمة على ظهره.

٥- حلمه

كان لأبي هريرة جارية أسأت إليه وغمت أهله، فرفع السوط عليها ليضربها، ثم توقف وقال: "لولا القصاص يوم القيامة لأوجعتك كما أذيتنا، ولكن سأبيعك مَن يوفيك ثمنك، وأنا أحوج إليه. اذهبي فأنت حُرَّة لله ﷻ". وباعها لمن سيوفيه أجرها؛ الله ﷻ.

٦- زهده وكرمه

* لقد كان أبو هريرة ﷺ لا تطمع نفسه شيئاً من حطام الدنيا الفانية؛ فقد عاش حياته عابداً زاهداً ومجاهداً وطالباً للعلم. لكنه إذا كُلف بالولاية فإنه كان يقبلها على مضض وكُرِه ويعلم أن ذلك تكليف لا تشريف.

* كانت ابنته تقول له: يا أبت إن البنات يُعيرنني فيقلن: لم لا يُجْلِك أبوك بالذهب؟ فيقول لها: "يا بُنية، قولي لهن: إن أبي يخشى عليَّ حرَّ الذهب - أي: حر جهنم -".

* ولم يكن امتناع أبي هريرة عن تحلية ابنته بخلاً بالمال، وحرصاً عليه؛ إذ كان جواداً سخياً اليد في سبيل الله؛ فقد بعث إليه مروان بن الحكم مائة دينار ذهباً، فلما كان الغد أرسل إليه يقول له: إن خادمي أخطأ فأعطاك الدنانير، وأنا لم أُردك بها، وإنما أردت غيرك.

فأخذت أبو هريرة الحيرة والندم وقال: أخرجتها في سبيل الله، ولم يبت عندي منها دينار. فإذا خرج عطائي فخذها منه.
فلما تحرَّى مروان الأمر وجدته صحيحًا وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئًا.

الفصل الأخير

دائم الحنين لرسول الله ﷺ

بعد وفاة رسول الله ﷺ كانت صورته لا تفارق أبا هريرة. فقد كان يحبه حبًّا جمًّا على الرغم من أنه لم يصاحبه إلا سنوات معدودة، لا تتعدى الأربع سنوات. فكان إذا ذُكِرَ رسول الله ﷺ تتوق نفسه إليه فيجهد بالبكاء شوقًا لرؤيته. فكان يجلس في المسجد والناس حوله يحدثهم فيقول: حدثني خليلي أبو القاسم ﷺ فيبكي ويجهد في البكاء، حتى يُبكي من حوله.

اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي

وبعد حياة طويلة مليئة بالكفاح والتضحية، يرقد أبو هريرة على فراش الموت. وبينما يدخل عليه عواده فوجدوه يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا هريرة؟ فقال: ما أبكي على دنياكم هذه، ولكن على بُعد السفر وقلة الزاد. وقد بلغت نهاية الطريق، فيأخذني إلى الجنة أو إلى النار.. ولا أدري في أيهما أكون؟

وقد عادهُ مروان بن الحكم، فقال له: شفاك الله يا أبا هريرة. فقال أبو هريرة: «اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي وعجّل لي فيه». فما كاد يغادر مروان حتى فارق أبو هريرة الحياة، ليلحق بمن اشتاق لرؤيته حبيبه رضي الله عنه. وقد بلغ من العمر ثمانية وسبعين عامًا، وكان ذلك في عام ٥٩ هجرية.

وبين ساكني البقيع تبوأ جثمانه الطاهر الوديع مكانًا مباركًا.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من حفظت للأمة علم رسول الله صلى الله عليه وسلم

ورضي الله عنك وأرضاك يا «أبا هريرة».

زيد بن حارثة

وها نحن أعزائي على موعد مع زهرةٍ أخرى من أزاهير الصحبة العطرة.. فهو صحابي جليل تأتي به الأقدار ليكون في صحبة خير الأنام ﷺ.
وينفرد بشرفٍ لم يناله أحدٌ غيره من صحابة رسول الله ﷺ؛ فهو الوحيد الذي انتسب إلى رسول الله ﷺ وحمل اسمه. وهو الوحيد الذي ذُكر اسمه صريحاً في القرآن الكريم.. إنه حُبُّ رسول الله ﷺ؛ الأمير الشهيد؛ «زيد بن حارثة».

نسبه ونشأته

هو زيد بن حارثة بن شراحبيل الكعبي، وأمه سُعدى بنت ثعلبة بن عامر، نشأ زيد بين أبويه وإخوته في معيشة طيبة.
ولما كان في الثامنة من عمره، أرادت أمه زيارة قومها «بني مَعْنٍ»، فمضت وفي صحبتها غلامها «زيد»، ومكثت سُعدى في قومها ما شاء الله أن تمكث.
وفي ذات يوم فوجئ الحي - حي بني مَعْن - بقبيلة «بني القَيْن» تُغير عليهم بخيلها، وتُنزل بهم الهزيمة، فأخذوا المال، واستاقوا الإبل وسَبَّوا الذراري.

وكان من جملة من احتملوا معهم ولدها «زيد بن حارثة»، وعادت الأم إلى زوجها وحيدة حزينة.
ولم يكد «حارثة» يعرف هذا النبأ حتى خرَّ صعقاً من هول ما سمع.
ومضى يجوب الديار، ويقطع الصحاري، ويسأل القبائل والقوافل عن ولده.

الأقدار تسوق زيداً لصُحبة الحبيب

أما زيد فقد أتوا به إلى سوق عُكاظ، وعرضوه للبيع فاشتراه حكيم بن حزام بن خويلد - ابن أخي السيدة خديجة بنت خويلد - اشتراه بأربعمائة درهم، واشترى معه طائفة من الغلمان، وعاد بهم إلى مكة.
فلما زارته عمته - السيدة خديجة - عرض عليها أن تختار واحداً من هؤلاء الغلمان ليهديه إليها. ففرست السيدة خديجة وجوه الغلمان، واختارت «زيد بن حارثة».

وما هو إلا قليل حتى تزوجت السيدة خديجة من رسول الله ﷺ، فأرادت أن تهدي له هدية. فلم تجد خيراً من هذا الغلام الذي بدت عليه علامات النجابة، فأهدت زيداً لرسول الله ﷺ، لينعم بصحبة ورعاية رحمة الله للعالمين ﷺ.

ولقد استوقفنا: أن هؤلاء «الصحب الكرام» الذين اختارهم الله ﷺ لصحبة «خير الأنام» ﷺ، دائماً ما تسوقهم أقدارهم لهذه الصحبة العطرة حتى ولو أصبحوا عبيداً ونالوا ما نالوا.. فيها هو «زيد بن حارثة» يُباع عبداً، لكي يصل إلى رعاية وصحبة رسول الله ﷺ. وكذلك كان الأمر مع سلمان الفارسي - كما أسلفنا - وغيرهما.

فكثير من الأحيان تأتي الأمور بما لا تشتهي الأنفس، وتبدو وكأنها شرٌّ كبير، ولكنها ما تلبث أن تصبح خيراً عظيماً، لا يعلمه إلا الله ﷻ. فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

ما أنا بالذي أختار عليك أحداً

وبينما كان الغلام المحظوظ يتقلب في رعاية رسول الله ﷺ، ويحظى بكرم صحبته، كانت أمه المفجوعة لا تهدأ لها لوعة، فهي لا تعرف إن كان حياً فترجوه أو ميتاً فتياس منه. أما أبوه فما زال يتحراه في كل أرض ويسائل عنه كل راكب.

وفي موسم من مواسم الحج، قصد البيت الحرام نفرٌ من قوم «زيد»، فعرفهم وعرفوه ونقلوا إليه لوعة والديه، فقال لهم: أعلم أنهم جزعوا عليّ، فأخبروهم أنني بحمد الله في خير أسرة، مع أكرم والد.

وما أن علم حارثة مستقر ولده حتى أسرع وأعدَّ راحلته، وحمل من المال ما يُفدي به فلذة كبده، وصحب معه أخاه كعباً، وانطلقا معاً يستبقان الريح نحو مكة. وما أن وصلا إلى مكة حتى قابلا رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه.

تفكون العاني -أي: المستجير- وتطعمون الجائع، وتغيثون الملهوف. قد جئناك في ابنا الذي عندك، فامنن علينا وأحسن فداءه. فقال: ومن ابنكما؟ فقالا: غلامك «زيد بن حارثة»، وكان رسول الله ﷺ يعلم تعلق زيد به، وكان في نفس الوقت يُقدِّر حق أبيه فيه. فقال لهما: «وهل لكما بما هو خير من الفداء؟ قالوا: وما هو؟ فقال: أدعوه لكما فخيروه بيني وبينكم فإن اختاركم، فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني، فوالله ما أنا بالذي يرغب عن مختاره. فقالا: لقد أنصفت وبالغت في الإنصاف.

فدعا رسول الله ﷺ زيدا، ولما جاء سأله: هل تعرف هؤلاء؟ قال: نعم، هذا أبي شراحيل، وهذا عمي كعب. فقال له: قد خيرتكَ: إن شئت مضيت معها، وإن شئت أقمت معي. فقال زيد من غير أبطأ: بل، أقيم معك، فما أنا بالذي أختار عليك أحداً. فقال أبوه: ويحك يا زيد، أنتختار العبودية على أبيك وعمك؟ فقال: إني رأيت من هذا الرجل شيئاً، فهو الأب والعم.

زيد بن محمد

ولما رأى رسول الله ﷺ من زيد ما رأى نديت عيناه، ثم أمسك بيد زيد، وخرج إلى فناء الكعبة؛ حيث قريش مجتمعة، ونادى: «يا معشر قريش، اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأرثه».

وعاد حارثة وأخيه فرحين مطمئنين، فابنهما لم يعد حراً فحسب، بل وابناً لرجل تُسميه قريش الصادق الأمين وسليل بني هاشم. ومنذ ذلك اليوم أصبح «زيد بن حارثة» يُدعى «زيد بن محمد».

ولم يكن زيد يعلم أي غنيمة غنمها باختياره هذا. ولم يكن يدري أن سيده الذي آثره على أهله وعشيرته، هو سيد الأولين والآخرين، ورسوله إلى خلقه أجمعين. فلم يكن شيء من ذلك يدور في خلد زيد، إنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم.

إسلامه

لم يمض على حادثة التخيير هذه إلا بضع سنين، حتى بعث الله نبيه محمداً ﷺ بدين الهدى والحق. فكان «زيد بن حارثة» أول من أسلم من الموالي، وثاني من أسلم من الرجال، بل قيل أول من أسلم من الرجال. فكان بحق من السابقين الأولين للإسلام.

إلى الطائف في صحبة رسول الله ﷺ

وينال زيداً من العذاب ما نال أقرانه من المسلمين. وتمضي الدعوة إلى الله ﷺ إلى أن كان العام العاشر من البعثة، ويفقد رسول الله ﷺ أبو طالب وخديجة، وأخذ المشركون ينالون من رسول الله ﷺ بعد موتها. فخرج إلى الطائف ومعه مولاه «زيد بن حارثة»، فأقام بها يدعو بني ثقيف إلى دين الهدى والحق، فلم يجد منهم أذناً صاغية. ولم يكتفوا بالإعراض عن الدعوة، إنما أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويرمون به بالحجارة. ويقف زيد ليدراً عن رسول الله ﷺ ويدفع عنه الأذى. فوقف متجهماً بوجهه إلى رسول الله ﷺ ويحيط به ليحجب عنه هذه الحجارة، لتناله هو في رأسه وقدمه حتى أصيب بجروح كثيرة. وما زالوا بها حتى دخلا بستاناً لعُتْبة وشيبة ابني ربيعة. وعندها رجع سفهاء بني ثقيف. وبعدها عاد رسول الله ﷺ ومولاه «زيد» إلى مكة، وظل بها حتى أذن الله لرسوله والمؤمنين بالهجرة.

الهجرة

لما اشتد أذى الكفار على المسلمين بمكة، فأذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة. وكان «زيد بن حارثة» في طليعة المهاجرين.

وفي المدينة آخى رسول الله ﷺ بين «زيد بن حارثة» وبين عمه «حمزة بن عبد المطلب»، وعندما استشهد حمزة يوم أحد آخى رسول الله ﷺ بين زيد وبين «أسيد بن حضير».

ادعوهم لأبائهم

كان رسول الله ﷺ قد زوّج زيدا من ابنة عمته «زينب بنت جحش»، وكانت قد قبلته تحت وطأة حياتها أن ترفض شفاعة رسول الله ﷺ. ولكن هذا الزواج تعرّض، واستنفذ عوامل بقائه، فطلقها زيد. وحمل رسول الله ﷺ مسئوليته تجاه هذا الزواج الذي كان مسئولا عن إمضائه، والذي انتهى بالانفصال. فضم ابنة عمته إليه وتزوجها بعد أن قضت عدتها. ثم اختار لزيد زوجة جديدة وهي بركة «أم أيمن»، ومنها رزقه الله بابنه «أسامة بن زيد».

وذهب المنافقون يُرجفون في المدينة، كيف يتزوج مُطلقة ابنه زيد؟ فكان الرد الإلهي، مفرقا بين الأدياء والأبناء وبين التبني والبنوة، ومُعلنًا إلغاء التبني.. فكان قوله تعالى: **{ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ**

أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتِهِمْ وَأَوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا { [الأحزاب: ٥-٦].

وكان زيد قد ظل يُدعى «زيد بن محمد» حتى نزلت هذه الآيات فأصبح يُدعى «زيد بن حارثة»، وعاد لاسمه الأول.

تخليد اسمه في القرآن

لما نُزِعَ هذا الشرف عن زيد، أصابه حزنٌ كبير، فأراد الله ﷻ أن يعوّضه عن هذا الشرف، فخصه بخصيصة لم يختص بها أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ. وهي أن سماه الله ﷻ في القرآن: {فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} [الأحزاب: ٣٧]. فأصبح اسم زيد مخلداً في قرآن يُتلى ويُتعبّد به إلى يوم الدين. وهو شرفٌ تفرّد به زيد ﷺ، وعوّضه عن الفخر بأبوة رسول الله ﷺ.

حُبُّ رسول الله ﷺ

وكما أحب زيد رسول الله ﷺ وآثره على أمه وأبيه، أحبه رسول الله ﷺ حباً عظيماً.

فكان يشاقق إليه إذا غاب عنه، ويفرح بقدمه إذا عاد إليه. ويلقاه لقاءً لا يحظى بمثله أحد سواه.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «قدم زيد بن حارثة للمدينة ورسول الله ﷺ في بيتي. ففرع الباب فعرفه رسول الله ﷺ فقام مهرولاً ومضى إلى الباب يجر ثوبه، فاعتنقه وقبله. والله ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك قبله ولا بعده».

وقد شاع أمر حُبِّ رسول الله ﷺ لزيد بين المسلمين، فدعوه بـ«زيد الحَبِّ»، وأطلقوا عليه حِبِّ رسول الله ﷺ.

جهاده في سبيل الله

وظل حِبِّ رسول الله ﷺ في خدمته. أما في الغزوات فكان مثال الجندي المخلص والمحارب الشجاع. فشهد بدرًا، ولما انتصر المسلمون أرسله رسول الله ﷺ على ناقته القصواء ليُبشِّر أهل المدينة بنصر المسلمين. وشهد كذلك أُحدًا والخندق والحديبية وخيبر. واستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة حين خرج إلى المُرَيْسِع. وخرج زيدٌ أميرًا في تسع سرايا.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة

في جيش قط إلا أمره عليهم، ولو بقي حياً بعد رسول الله لاستخلفه». وعن سلمة بن الأكوع قال: «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، ومع زيد بن حارثة تسع مرات، كان يؤمّره رسول الله ﷺ علينا».

الفصل الأخير

معركة مؤتة

وفي السنة الثامنة من الهجرة شاء الله تباركت حكمته أن يُمتحن الحبيب بفراق حبيبه.

فلما كانت معركة مؤتة - أسلفنا ذكرها تفصيلاً، انظر حياة خالد بن الوليد -

ويختار رسول الله ﷺ زيد بن حارثة لإمارة هذا الجيش، وقال: «إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة». وعلى الرغم من أن جعفر بن أبي طالب كان أقرب الناس إلى قلب ابن عمه رسول الله ﷺ، وعلى الرغم من شجاعته وجسارته ونسبه؛ فقد جعله رسول الله ﷺ الأمير الثاني لزيد، وجعل زيداُ الأمير الأول للجيش.

وهكذا وجد «زيد بن حارثة» في الإسلام وفي قلب رسول الله ﷺ أعلى منزلة وأرفع مكانة. فلا الإسلام ولا رسوله يعبأ لحظة بجاه النسب ولا

بوجاهة المظهر.

ففي رحاب هذا الدين يتألق «بلال»، ويتألق «صُهيب»، ويتألق «عمار»،
«وزيد» «وأسامة»، وغيرهم من المستضعفين. يتألقون جميعاً كأبرار وقادة.

الأمير الشهيد

ويقود زيد المعركة، ويحمل راية رسول الله ﷺ. ثم التقى الجمعان في مؤتة، فقاتل المسلمون قتالاً أذهل الروم، وملاً قلوبهم الرعب لهذه الآلاف الثلاثة التي تصدّت لجيشهم البالغ مائتي ألف. وأقدموا ولم يُبالوا، وأمامهم قائدهم «زيد بن حارثة» حاملاً راية رسول الله ﷺ، مقتحمًا رماح العدو ونباله وسيوفه.

وجالد زيد عن راية رسول الله ﷺ جلاذاً لم يعرف مثله تاريخ البطولات، حتى خرقت جسده مئات الرماح.

ويسقط أمير الجيش شهيداً، ويأخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى استشهد، فأخذها عبد الله بن رواحة فقاتل حتى استشهد.

بكاء الحبيب على حبيبه

وفي المدينة صعد رسول الله ﷺ على المنبر، وأمر فنودي ليجتمع الناس

ليخبرهم عن جيش المسلمين قبل أن يأتي الخبر من ساحة القتال، مخبرًا بالوحي فقال: «أخبركم عن جيشكم هذا، إنهم انطلقوا فلقوا العدو؛ أخذ الراية زيد فقاتل حتى قُتل شهيداً فاستغفروا الله له. ثم أخذ الراية جعفر فشَدَّ على القوم حتى قُتل شهيداً. ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فأثبت قدمه حتى قُتل شهيداً». وحزن رسول الله ﷺ على مصرع قادته الثلاثة حزناً شديداً لم يحزن مثله قط، ومضى إلى أهلهم ليعزيهم.

فلما بلغ بيت «زيد بن حارثة» لاذت إليه ابنته الصغيرة، وهي مُجهشة بالبكاء. فبكى رسول الله ﷺ حتى انتحب - أي: ارتفع صوته بالبكاء - ، فقال سعد بن عبادة مُهَوَّناً على رسول الله ﷺ: ما هذا يا رسول الله؟ فقال: «هذا بكاء الحبيب على حبيبه».

وهكذا كانت خاتمة حياة «زيد بن حارثة» بالفوز بالشهادة وبحب رسول الله ﷺ.

فرحمة الله وبركاته عليك يا حب رسول الله ﷺ

ورضي الله عنك وأرضاك يا «زيد بن حارثة».

أسامة بن زيد

والآن أعزائي، وبعد أن عشنا لحظات مع حِبِّ رسول الله ﷺ فلنَعِشْ مع واحد من ذريته. إنه ابن من أبناء الإسلام الحنفاء الذين وُلِدُوا فيه، وتلقوا رضاعتهم الأولى من فطرته النقية، دون أن يدركهم من غبار الجاهلية المظلمة شيءٌ. إنه أصغر مَنْ أَمَرَهُ رسول الله ﷺ، إنه الحِبُّ بن الحِبِّ؛ «أسامة بن زيد».

نسبه ونشأته

هو أسامة بن زيد بن حارثة، وأمه بركة الحبشية «أم أيمن»؛ ففي يوم من الأيام رأى المسلمون بشائر الفرحة والسرور على وجه رسول الله ﷺ، فعلموا أن «أم أيمن» أنجبت غلامًا، وهو ما أدخل البهجة والسرور على قلب رسول الله ﷺ.

فكان هذا المولود الذي أدخل البهجة والسرور على رسول الله ﷺ، هو بطلنا «أسامة بن زيد». فهو ابن مُسَلِّمَيْنِ كريمين من أوائل المسلمين سبقًا إلى الإسلام وأكثرهم قربًا إلى رسول الله ﷺ.

فأبوه هو حب رسول الله ﷺ؛ «زيد بن حارثة»، وابنه بالتبني قبل الإسلام، والذي أثر رسول الله ﷺ على أهله وعشيرته. أما أمه فهي بركة الحبشية «أم أيمن»، وقد كانت مملوكة لأم رسول الله ﷺ «أمّانة بنت وهب»، فرَبَّته في حياتها، وحضنته بعد وفاتها. وفتح رسول الله ﷺ عينيه على الدنيا وهو لا يعرف لنفسه أمًّا غيرها. فأحبَّها حبًّا كبيراً، وكثيراً ما كان يقول عنها: «هي أمي بعد أمي، وبقية أهل بيتي». وقد فرح المسلمون بمولد «أسامة بن زيد» كما لم يفرحوا بمولود سواه؛ لأن كل ما يُفرح رسول الله ﷺ يفرحهم، وكل ما يُدخل السرور على قلبه يسرُّهم.

الحبُّ بن الحبِّ

وقد بلغت محبة رسول الله ﷺ لأسامة مبلغاً كبيراً، تغبطه عليه الدنيا كلها. حتى أطلق المسلمون عليه «الحبُّ بن الحبِّ». ولم يكن المسلمون مبالغين حين أطلقوا هذا اللقب على الصبي الصغير.

وإليك عزيزي القارئ بعض المشاهد لتتأمل ما بها من حُبِّ رسول الله ﷺ لأسامة.

*** اللهم أني أحبُّهما فأحبهما:**

كان «أسامة بن زيد» مقارباً في السن لسبط رسول الله ﷺ؛ «الحسن بن

عليّ» ابن ابنته فاطمة الزهراء. وكان الحسن أبيض أزهر رائع الحُسن، شديد الشَّبه بجده رسول الله ﷺ. وكان أسامة أسود البشرة، أفتس الأنف شديد الشبه بأمه «بركة الحبشية»، لكن رسول الله ﷺ ما كان يُفرِّق بينهما في الحب. فكان يأخذ أسامة فيضعه على إحدى فخذيه، ويأخذ الحسن فيضعه على فخذيه الآخر، ثم يضمهما إليه معًا ويقول: «اللهم إني أحبُّهما فأحبُّهما».

* رسول الله ﷺ يداوي جراح أسامة بنفسه

بلغ من حب رسول الله ﷺ لأسامة أنه عثر ذات مرة بعتبة الباب فُشِّجَتْ جبهته وسال دمه، فقام رسول الله ﷺ وجعل يمسح الدم عن وجهه ويداويه ويطيِّب خاطره بكلمات كلها عطف وحنان.

* أسامة يشفع للمخزومية عند رسول الله ﷺ.

لما أهدم قريشاً أمرُ المرأة المخزومية التي سرقت وسيُقام عليها الحدُّ، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فلما علموا مكانة أسامة عند رسول الله ﷺ، وأنه لن يجترئ عليه إلا أسامة فسألوه أن يشفع لها عند رسول الله ﷺ، فكلَّم أسامة رسول الله ﷺ في أمرها، فقال له رسول الله ﷺ: «أتشفع في حدٍ من حدود الله؟» ثم قام فخطب في الناس وقال: «أيها الناس إنما ضل

من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطع محمد يدها».

* من كان يُحب الله ورسوله فليُحب أسامة

تقول السيدة عائشة: ما ينبغي لأحد أن يُبغض أسامة بعد ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «من كان يحب الله ورسوله فليحب أسامة».

* لو رآه رسول الله ﷺ لأحبه

إن من يختار رسول الله ﷺ ويفضله على أهله وعشيرته، يختاره الله على من سواه بل ويبارك فيه وفي ذريته ويؤثرهم على من سواهم. وقد أثر «زيد بن حارثة» رسول الله ﷺ على أهله، فكان حب رسول الله ﷺ، ليس ذلك فحسب بل استمر هذا الحب للأبناء بل وللأحفاد. يقول عبد الله بن دينار: "نظر ابن عمر يوماً وهو في المسجد إلى رجل يسحب ثيابه من ناحية المسجد فقال: انظر من هذا؟ ليت هذا عندي. قيل له: أما تعرف هذا؟ إنه محمد بن أسامة، فطأ ابن عمر رأسه ونقر بيده في الأرض ثم قال: "لو رآه رسول الله ﷺ لأحبه".

شبابه ومواقفه مع رسول الله ﷺ

والآن أعزائي، فلنقترب أكثر من الحَبِّ بن الحَبِّ الذي نال هذا الحب والقرب من قلب رسول الله ﷺ.

فقد كان «أسامة بن زيد» رغم حداثة سنه، مؤمناً صلباً، عظيم الذكاء، كثير التواضع، شجاعاً خارق الشجاعة، حكيمًا يضع الأمور في مواضعها، عفيفاً يأنف الدنيا، إلفاً مألوفاً يحبه الناس.

حُلة حكيم بن حزام

وكما كان رسول الله ﷺ يحب أسامة في طفولته فقد أحبه في شبابه. فقد أهدى حكيم بن حزام إلى رسول الله ﷺ حُلة ثمينه كان قد اشتراها من اليمن بخمسين دينار ذهباً، وكانت لأحد ملوكهم. فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يأخذها بثمنها. وقد لبسها رسول الله ﷺ مرة واحدة في يوم الجمعة، ثم خلعها على «أسامة بن زيد»، فكان يروح ويغدو بين أترابه من شباب الأنصار والمهاجرين، وهو يرتديها.

جهاده في سبيل الله

* بدر وأُحد

لم يشهد «أسامة بن زيد» غزوتي بدر وأُحد، فلم يُجزه رسول الله ﷺ وردّه لصغر سنّه.

* غزوة الخندق

وفي غزوة الخندق أجازه رسول الله ﷺ وكان عمره خمس عشرة سنة.

* معركة مؤتة

جاهد أسامة تحت لواء أبيه «زيد بن حارثة» وكان عمره وقتها دون الثامنة عشر. وهناك رأى بعينه مصرع أبيه، فلم يهن ولم يتضعض، إنما ظل يقاتل تحت لواء «جعفر بن أبي طالب» حتى استشهد، ثم تحت لواء «عبد الله بن رواحة» حتى استشهد، ثم تحت لواء سيف الله «خالد بن الوليد»؛ حتى استطاع الانسحاب الآمن، وأنقذ الجيش من براثن الروم. ويعود أسامة إلى المدينة وقد احتسب أباه عند الله، تاركًا جسده الطاهر عند تخوم الشام، وراكبًا جواده الذي استشهد عليه. فلما لقي رسول الله ﷺ دمعت عيناه فاعتنقه رسول الله ﷺ وبكى.

* فتح مكة

ويأتي يوم الفتح العظيم ويدخل رسول الله ﷺ مكة ورديفه - يركب خلفه على ناقته - «أسامة بن زيد»، ثم يدخل الكعبة ومعه أسامة بن زيد وبلال بن رباح؛ رجلان تكسوهما البشرة السوداء، ولكن كلمة الله التي يحملونها

في قلبهما الكبيرين أضفت عليهما كل النور وكل الشرف والرفعة.

* يوم حنين

حين انهزم المسلمون في عمارة الصبح؛ حيث كان المشركون قد كمنوا لهم. ووقف رسول الله ﷺ ينادي في الناس: «هلموا إليّ، أنا رسول الله» فانطلق الناس إلا فئة قليلة ثبتت مع رسول الله ﷺ، وكان ممن ثبتوا «أسامة بن زيد» مع العباس عم رسول الله وأبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب وأبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ. فاستطاع رسول الله ﷺ بثباته وثبات هذه الفئة القليلة المؤمنة أن يُحوّل هزيمة أصحابه إلى نصر وأن يحمي المسلمين الفارين من أن يفتك بهم المشركون.

* أول إمارة ودرس لا يُنسى

وقبل وفاته بعامين، بعث رسول الله ﷺ أسامة أميرًا على سرية خرجت للقاء بعض المشركين الذين يناوئون الإسلام والمسلمين، وتلك كانت أول إمارة يتولاها أسامة، ولقد أحرز مهمته بنجاح سرَّ به رسول الله ﷺ، لكن رسول الله ﷺ أعطى أسامة درسًا لم ينسه أبدًا.. فلنستمع لبقية النبأ.. يقول أسامة بن زيد: «أتيت رسول الله ﷺ، وقد أتاه البشير بالفتح، فإذا هو

مُتهللاً وجهه، فأدنانى منه ثم قال: حدثني. فجعلت أحدثه، وذكرت له: لما انهزم القوم، أدركت رجلاً كان قد أوجع في المسلمين، وقتل منهم خلقاً كثيراً، فلما حملت عليه ورأى السيف قال: «لا إله إلا الله» فطعته وقتلته. فتغيّر وجه رسول الله وقال: «ويحك يا أسامة! فكيف لك بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» فلم يزل يرددّها عليّ حتى لوددت أنى انسلخت من كل عمل عملته واستقبلت الإسلام يومئذ من جديد...»

كان هذا هو الدرس الذي تلقاه أسامة من رسول الله ﷺ وعاشه ووعاه إلى منتهاه منذ أن سمعه من رسول الله ﷺ حتى لقي أسامة ربه.

درس يكشف عن إنسانية رسول الله ﷺ وعدله وسموّ مبادئه. فهذا الرجل الذي أنكر رسول الله ﷺ على أسامة قتله، كان محارباً وسيفه ما زال في يمينه مُلوّثاً بدماء المسلمين، وقد قالها لينجو بها من ضربة قاتلة، أو ليُهيئ لنفسه فرصة يغيّر فيها اتجاهه ثم يعاود القتال من جديد. ومع هذا فلاّنه قال كلمة التوحيد ونطق بها لسانه، يصير دمه حراماً وحياته آمنة في نفس اللحظة مهما كانت طويته وسريرته ونواياه.

* بعث أسامة

وفي السنة الحادية عشرة للهجرة، أمر رسول الله ﷺ أسامة على رأس

جيش، وكان في سنِّ مبكرة لم يتجاوز العشرين. وأمره أن يوطئ الخيل تحوم
 البلقاء من بلاد الروم إلى حيث قُتِلَ أبوه. وكان من بين أفراد هذا الجيش
 وتحت إمرة أسامة كبار الصحابة مثل أبي بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص
 وأبو عبيدة بن الجراح، وغيرهم.
 وسرت مهمة من نفر من المسلمين استنكروا على الفتى الشاب «أسامة بن
 زيد» إمارة جيش فيه شيوخ الأنصار والمهاجرين، ولما بلغ همسهم رسول
 الله ﷺ صعد المنبر، وحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: «إن بعض الناس يطعنون
 في إمارة أسامة بن زيد، ولقد طعنوا في إمارة أبيه من قبل وإن كان أبوه
 لخليقًا بالإمارة، وإن أسامة لخليق بها. وإنه لمن أحب الناس إلى بعد أبيه.
 أنفذوا بعث أسامة.. أنفذوا بعث أسامة».

مع الخلفاء الراشدين

إنفاذ بعث أسامة

وقبل أن يتحرك الجيش، مرض رسول الله ﷺ مرضًا شديدًا، فتوقف عن
 السير انتظارًا لما تُسْفِر عنه حال رسول الله ﷺ، وينتقل رسول الله ﷺ إلى
 الرفيق الأعلى، ويتولى أبو بكر الصديق الخلافة.

استعمله رسول الله وتأمروني أن أنزعه؟!

وعلى الرغم من الظروف الجديدة التي خلَّفتها وفاة رسول الله ﷺ، فإن خليفة رسول الله ﷺ أمر بإنفاذ بعث أسامة، ولكنَّ فئة من المسلمين رأَت أن يؤخَّر البعث، وأن يتولى الإمارة رجلٌ أقدم سنًّا من أسامة. وهنا يقف خليفة رسول الله ﷺ موقفًا صلبًا، ويقول لمعارضيه: استعمله رسول الله ﷺ، وتأمروني أن أنزعه؟

وينطلق الجيش بقيادة قائده الشاب، ويشيعه خليفة رسول الله ﷺ ماشيًا وأسامة راكب. فقال أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن. فقال أبو بكر: والله لا تنزل ولا أركب، وما عليَّ أن أُعبرَ قدمي ساعة في سبيل الله؟ وقال لأسامة: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك، وأوصيك بإنفاذ ما أمرك به رسول الله ﷺ، ثم استأذنه في أن يُبقي عمره ليكون بجواره في المدينة، فأذن أسامة لعمر بالبقاء.

ما رأينا جيشًا أسلم وأغنم من جيش أسامة بن زيد

ومضى أسامة بجيشه، وأنفذ كلَّ ما أمره به رسول الله ﷺ، فأوطأ خيل المسلمين تخوم البلقاء. وبينما كان إمبراطور الروم يتلقى خبر وفاة رسول الله ﷺ، تلقى في نفس الوقت خبر الجيش الذي يُغير على تخوم الشام.

فحيَّره أن يكون المسلمون من القوة التي لم تتأثر بموت رسولهم. فانكمش الروم، ونزعت هيبتهم من قلوب المسلمين. فمهَّد بذلك جيش أسامة الطريق أمام المسلمين لفتح ديار الشام ومصر والشمال الإفريقي كله. ويعود أسامة بن زيد إلى المدينة، ممتطيًا الجواد الذي استشهد عليه أبوه حاملاً من الغنائم ما زاد عن كل تقدير وبلا ضحايا. حتى قال المسلمون عنه: «ما رأينا جيشاً أسلم ولا أغنم من جيش أسامة بن زيد».

كان أحبَّ إلى رسول الله منك

وظل أسامة بن زيد ما امتدت به الحياة موضع احترام وإجلال المسلمين وقد انتقل حُب رسول الله ﷺ لأسامة إلى الخلفاء من بعده أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، حتى إن عمر بن الخطاب كان إذا لقي أسامة قال: «مرحباً بأميري»، فإذا رأى أحداً يعجب من هذا قال: «لقد أمره عليّ رسول الله ﷺ».

وكان عمر وهو يُقسم أموال بيت المال يعطي الناس وفق فضلهم وبلائهم في الإسلام، فلما جاء دور عبد الله بن عمر فأعطاه عمر نصيبه، ثم جاء دور أسامة بن زيد فأعطاه عمر ضعف ما أعطى ولده عبد الله.

فخشى عبد الله بن عمر أن يكون مكانه في الإسلام متأخراً. وهو الذي

يرجو من الله أن يكون من السابقين.

هنالك سأل أباه: لقد فضلت عليَّ أسامة، ولقد شهدت مع رسول الله ما لم يشهد.

فقال عمر: «إن أسامة كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك، وكان أبوه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك».

اعتزاله الفتنة

ولما كانت الفتنة بين الإمام عليٍّ ومعاوية بن أبي سفيان التزم أسامة بن زيد الحياد المطلق واعتزل الفتنة. فقد وعى درس رسول الله ﷺ له لما أنكر عليه قتل هذا المشرك لمجرد أنه قال قبل أن يُقتل: «لا إله إلا الله»؛ فكيف بالذين يؤمنون حقًا ومسلمون حقًا؟!

فلما جاءه بعض الصحابة يسألونه عن موقفه من الفتنة قال: لا والله لا أقاتل أحداً يقول: «لا إله إلا الله» أبداً بعد ما سمعت من رسول الله ﷺ.

الفصل الأخير

وبعد حياة مليئة بالحب والبذل والعطاء والتضحية، وفي عام ٥٤ من هجرة رسول الله ﷺ، يرقد أسامة على فراش الموت، فلقد اشتاق الحبيب للقاء حبيبه، وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها ليلقى حبيبه رسول الله ﷺ.

فسلام الله وبركاته عليك أيها «الحبّ بن الحبّ».

ورضي الله عنك وأرضاك يا «أسامة بن زيد».

عبد الله بن رواحة

والآن أعزائي فلنرتق من ريحانة أخرى من رياحين «الصحبة العطرة»؛ إنه أحد شعراء رسول الله ﷺ، وأحد النقباء الاثني عشر، إنه كان يقاتل بسيفه، ولسانه، وقلمه؛ إنه الأمير الشاعر الشهيد «عبد الله بن رواحة».

نسبه ونشأته

هو: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن ثعلبة. أبو عمرو الأنصاري الخزرجي.

نشأ «ابن رواحة» في أسرة كريمة، فكان يكتب ويقرأ في بيئة لا عهد لها بالكتابة إلا يسيراً. وفي بيئة خصبة من الزرع والخضرة، تعايش «ابن رواحة» مع الشعر إلى أن أصبح شاعراً ينطلق الشعر من بين ثناياه عذباً قوياً.

ولم يكن شاعراً فحسب، بل كان شاعراً وفارساً مغواراً، يعتمد عليه قومه الخزرج ضد الأوس لما كان العداء بينهما مشتعلًا.

إسلامه

لما كان رسول الله ﷺ يُعاني هو والذين آمنوا معه من بطش قريش وقهرها، هبَّت نسمات من طيبة «المدينة المنورة»؛ إذ أتى إلى مكة اثنا عشر رجلاً من الأنصار ليبايعوا رسول الله ﷺ «بيعة العقبة الأولى»، وكان عبد الله بن رواحة واحداً من هؤلاء الاثني عشر.

وفي العام التالي لما كانت «بيعة العقبة الثانية»، وأتى إلى مكة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ليبايعوا رسول الله ﷺ كان «ابن رواحة» واحداً منهم. وقد اختاره رسول الله ﷺ واحداً من النقباء الاثني عشر في تلك البيعة. ويعود «ابن رواحة» إلى المدينة ليبدأ مشواره مع الدعوة إلى الله. فكان بحق من السابقين الأولين للإسلام.

أعماله ومناقبه

١ - الدعوة إلى الله

ويعود «ابن رواحة» إلى المدينة، وقد امتلأ قلبه نوراً، وبدأ رحلته مع الدعوة إلى الله. فلم يدخر جهداً ولا حيلة إلا ودلَّ الناس بها إلى طريق الحق.

إسلام أبي الدرداء

فهذا صديقه «أبو الدرداء» الذي تربطه به صداقة وأخوة في الجاهلية. فلما جاء الإسلام اعتنقه «ابن رواحة»، وأعرض عنه «أبو الدرداء». ولكن ذلك لم يقطع ما بينهما من وُدِّ وأخوة.

فقد كان «ابن رواحة» ينظر إلى أصدقائه ورفاقه فيراهم يعبدون الأصنام من دون الله فيغار لدين الله، ويتمنى لو آمن الناس أجمعون بدين الإسلام، خاصة المقربين منه. ومن أقرب من صديقه وأخاه في الجاهلية «أبو الدرداء»؟ فأراد به خيراً وقرَّر أن يدعوه إلى الإسلام بطريقة عملية، لا تُدخل عليه شكٌ ولا لبسٌ.

فدخل يوماً بيت أبي الدرداء وسأل امرأته: أين أبو الدرداء؟ فقالت: خرج أخوك آنفاً، فدخل وتوجَّه إلى الصنم الذي كان أبو الدرداء يعبده ويصلي له. فأخذ معول وكسره. فلما دخلت امرأة أبي الدرداء ووجدت الصنم هكذا؛ فقالت: أهلكني يا ابن رواحة، وخرج ابن رواحة من البيت.

وما أن عاد أبو الدرداء إلى بيته فوجد امرأته تبكي شفقاً منه. فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك «عبد الله بن رواحة» دخل عليّ فصنع ما ترى.

فغضب أبو الدرداء غضباً شديداً لما أصاب إلهه، ولكنه ما لبث أن فكر في نفسه فقال: لو كان هذا ينفع أو يدفع عن أحد لدفع عن نفسه ونفعها.

وُشرق أنوار الإيمان في نفس أبي الدرداء، فيغتسل ويلبس حُلته، ويتوجه إلى رسول الله ﷺ ليجد عنده «ابن رواحة» الذي ما أن رأى أبا الدرداء مُقبلاً حتى قال: يا رسول الله، هذا أبو الدرداء، وما أراه إلا جاء في طلبنا. فقال رسول الله ﷺ: «إنما جاء ليُسلم، إن ربي وعدني بأبي الدرداء أن يُسلم».

وبالفعل وقف أبو الدرداء بين يدي رسول الله ﷺ ليُعلن كلمة التوحيد ويشهد بأنه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. وظل أبو الدرداء يحمل في نفسه كل الحبِّ والعرفان لأخيه «عبد الله بن رواحة» أن هداه الله إلى الإسلام على يديه. فكان كثيراً ما يقول: أعوذ بالله أن يأتي عليّ يوم لا أذكر فيه «عبد الله بن رواحة».

٢- المجاهد بسيفه وقلمه

ويظل «ابن رواحة» ملازماً لرسول الله ﷺ ليشهد معه المشاهد كلها. ففي بدر وبعد أن تم نصر الله للمسلمين، أرسله رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة ليبشرا أهل المدينة بالنصر المبين. وشهد كذلك غزوات أُحد والخندق والحديبية وخيبر وغيرها من المشاهد. وقد بعثه رسول الله ﷺ أميراً على سرية من ثلاثين راكباً إلى أسير بن رزام

بخيبر.

واستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة في غزوة «بدر الموعد» التي تواعد عليها أبو سفيان بعد أُحد، وخرج إليه رسول الله ﷺ، لكن أبا سفيان رجع بجيشه.

أبواق الإعلام

لعلنا نرى في أيامنا هذه ما للإعلام وأبواقه من تأثير كبير في مجريات الأحداث، حتى أصبح له من القوة والنفوذ ما يفوق قوة السلاح. وفي عصر النبوة لم يكن هناك هذا النوع من الإعلام، فكان الشعر والشعراء هم من يقومون بهذا الدور الإعلامي المهم. وقد كان بطلنا واحداً من ثلاثة شعراء لرسول الله ﷺ: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة.

وقد امتاز ابن رواحة بأنه كان مقاتلاً شجاعاً في ميادين القتال إلى جانب قتاله بقلمه ولسانه في ميادين الشعر والشعراء. فكان بحق مقاتلاً بسيفه وقلمه.

وهاك بعض الأمثلة على روعة شعره وتأثيره على الأعداء:

* يوم أُحُد

لما استشهد حمزة عم رسول الله ﷺ قام ابن رواحة فنعاه بقصيدة، قال فيها:

بكت عيني وحق لها بكائها وما يُغني البكاء ولا العويل
على أسد الإله غداة قالوا أحمزة ذاكم الرجل القاتل
أصيب المسلمون به جميعاً هناك وقد أُصيب به الرسول

* كلامه عليهم أشد من وقع النبيل

يقول أنس بن مالك: دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء وابن رواحة بين يديه يقول:

خَلُّوا بني الكفَّارِ عن سبيله خَلُّوا فكلُّ الخيرِ في رسوله

فقال عمر: يا ابن رواحة! أفي حرم الله وبين يدي رسول الله تقول الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ: «خَلِّ يا عمر، فوالذي نفسي بيده لكلامه عليهم أشد من وقع النبيل».

* الشعر وسيلة لحث المسلمين على الجهاد

قال قيس بن أبي حازم: قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن رواحة: «أنزل فحرِّك بنا الركاب». فنزل وهو يقول:

يا ربِّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزلن سكينه علينا وثبَّت الأقدام إن لاقينا
إن الكفار قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنةً أبينا

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحمه». فقال عمر: «وجبت»؛ أي: وجبت له الرحمة، ووجبت له الجنة. فكان المسلمون يرددون شعره، وهو ما كان يُلهب حماسهم للقتال والدفاع عن دين الله.

٣- ورعه وخوفه من الله

* كان «عبد الله بن رواحة» يتلذذ بطاعة الله، فكان ينتقل بين أصحابه يدعوهم إلى زيادة الإيمان؛ فعن أنس قال: كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: «تعال نؤمن بربنا ساعة»، فقال ذلك ذات يوم لرجل، فغضب الرجل وجاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة. فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله ابن رواحة، إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة عليهم السلام».

* تقول زوجة ابن رواحة: كان إذا أراد أن يخرج من بيته صلى ركعتين، وإذا دخل صلى ركعتين، ولا يدع ذلك أبداً.

* وكما كان ابن رواحة نشيطاً في الصلاة، كان نشيطاً في الصيام. يقول أبو الدرداء: «خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره في يوم حار، حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر، وما منا صائم إلا النبي ﷺ وابن رواحة».

* حرصه على طاعة الله ورسوله

روى ابن أبي ليلي: أن عبد الله بن رواحة أتى رسول الله ﷺ وهو يخطب فسمعه يقول: «اجلسوا»، فجلس مكانه خارج المسجد حتى فرغ رسول الله ﷺ من خطبته. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «زادك الله حرصاً على طاعة الله ورسوله يا ابن رواحة».

* خوفه من الله

قال عروة: لما نزلت: {وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} [الشعراء: ٢٢٤]، فقال ابن رواحة: أنا فيهم يا رسول الله؟ فأنزل الله: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [الشعراء: ٢٢٧].

الفصل الأخير

معركة مؤتة

ما يبكيك يا ابن رواحة؟

وتأتي معركة مؤتة -أسلفنا ذكرها تفصيلاً في حياة خالد بن الوليد - ويُجهز رسول الله ﷺ الجيش، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: «إِنْ أُصِيبَ زيد فجعفر بن أبي طالب، وَإِنْ أُصِيبَ جعفر فعبد الله بن رواحة»، وتهايأ الجيش للخروج وهم ثلاثة آلاف.

وحضر الناس ليوذِّعوا أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم، فلما وُدِّعَ عبد الله بن رواحة مع من وُدِّعَ بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي من حُبِّ الدنيا، ولا صباة بكم، لكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آيات من كتاب الله يذكر فيها النار: **{وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}** [مريم: ٧١]. فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟

يعني: كيف لي بالخروج منها بعد الورود إليها؟

فقال المسلمون: صحبكم الله، ودفَع عنكم، وردكم إلينا صالحين.

ولما وُدِّعَ ابن رواحة رسول الله ﷺ قال:

فَثَّبْتُ اللهُ مَا أَتَاكَ مِنْ حُسْنٍ تَثْبِيتِ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا

إني تفرّست فيك الخيرَ نافلة الله يعلم أني ثابت البصرُ
أنت الرسول فمن يُحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدرُ

التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون!

ثم مضى الجيش حتى نزلوا «معان» من أرض الشام، ليجدوا الروم قد حشدوا لهم مائتي ألف مقاتل. فلما بلغ المسلمين ذلك أقاموا بمعان ليلتين ينظرون أمرهم، وكيف لثلاثة آلاف أن يقاتلوا مائتي ألف؟ فوجهوا وقال بعضهم لبعض: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا، فإما يمدنا بالرجال، وإما يأمرنا بالزحف فنطيع.

وهنا نهض ابن رواحة وسط صفوف المسلمين ليُشجعهم ويشحذ الهمم فقال: يا قوم إنَّ التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة. وما نقاتل عدونا بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا به الله. فانطلقوا، فإنها هي إحدى الحسينين: إما النصر أو الشهادة.

فكان لهذه الكلمات من ابن رواحة أكبر الأثر في نفوس المسلمين الأقلون عدداً، الأكثرون إيماناً.. فهبوا قائلين: صدق والله ابن رواحة.

أقسمت يا نفس لتنزلنه

ثم التقى الجيشان - كما أسلفنا - وسقط الأمير الأول «زيد بن حارثة»، وتلاه الأمير الثاني «جعفر بن أبي طالب»، ويحمل الراية «عبد الله بن رواحة»، وكان القتال قد بلغ ضراوته. وحين كان ابن رواحة يقاتل كجندي كان يصول ويجول في غير تردُّد ولا مبالاة، أما الآن وقد صار أمير الجيش ومسئولاً عن كل فرد فيه، فقد بدا أمام الروم وكأنها مرت به لمسة تردد وتهيب. لكنه ما لبث أن استجمع كل قوى المخاطرة في نفسه وبدأ يقول مشجعاً نفسه:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ما لي أراك تكرهين الجنة؟
يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حَمَام الموت قد صَلبت
وما تمنيت فقد أُعطيت إن تفعلي فعلها هُديت

يقصد صاحبا الذين سبقاه للشهادة «زيد وجعفر» «إن تفعلي فعلها هُديت».

أما زلت في الدنيا؟

وبهذا الحماس ومقاومته لنفسه، ينزل ابن رواحة ساحة المعركة، وبدأ يعصف بالروم عصفاً. ويأتيه ابن عم له بقطع من اللحم وقال له: شدَّ بهذا

صلبك، فإنك لقيت من أيامك هذه ما لقيت. فأخذه فانتهش منه نهشة، ثم سمع الحُطمة - صوت الفرسان والأسلحة - من ناحية الناس. فقال لنفسه: أما زلت في الدنيا؟ ثم ألقاه من يده وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتل. فهوى جسده، لتصعد روحه الطاهرة إلى بارئها، ويحقق أعلى أمانيه؛ الفوز بالشهادة.

لقد رُفِعوا إلى الجنة

وفي المدينة ينعى رسول الله ﷺ للمسلمين أمراءه، قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «أخذ الراية زيد فقاتل حتى قُتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً»، ثم صمت قليلاً وعيناه تذر فان بالدمع. ثم قال: «لقد رُفِعوا إلى الجنة». وهكذا رحل ابن رواحة بعد رحلة كفاح طويلة في نصره دين الحق، مجاهداً بسيفه وبقلمه ولسانه حتى فاز بالشهادة.

فرحمة الله وبركاته عليك أيها الأمير الشاعر الشهيد..

ورضي الله عنك وأرضاك يا «عبد الله بن رواحة».

أبو ذر الغفاري

والآن أعزائي فلنفتح صفحة نقية بيضاء، نتعرف فيها على هذا الصحابي الجليل من هذه «الصحبة العطرة»، إنه أحد السابقين الأولين في الإسلام، الذي كان لا يخشى في الله لومة لائم؛ إنه الزاهد الأواب «أبو ذر الغفاري».

نسبه ونشأته

هو جُندب بن جُنادة، المكنى بأبي ذر، من قبيلة غِفار في وادي «وَدَّان»، وتقع على الطريق الذي يصل مكة بالشام. وكانت غفار تعيش على النذر اليسير الذي تبذله القوافل التي تسعى بتجارة قريش بين مكة والشام. واشتهر عنها قطع الطرق عن هذه القوافل؛ إذا هي لم تُعْطها ما يُرضيها.

وكان أبو ذر من هذه القبيلة لكنه كان يمتاز بجرأة قلب ورجاحة عقل وبعْد نظر. وكان كذلك يضيق أشد الضيق بهذه الأوثان التي بعدها قومه من دون الله. فكان كثيراً ما يجلس وحده يتفكر في الإله الخالق لهذا الكون. لكن كيف الطريق إليه؟

فكان دائماً يبحث عن فجر قريب يُضيء الكون ويُبدد ظلمات الجاهلية. وما هي إلا فترة يسيرة حتى وجد ضالته.

إسلامه

فما أن تناهت إلى أبي ذر أخبار النبي الجديد الذي ظهر في مكة. فقال لأخيه «أنيس»: انطلق إلى مكة وقف على أخبار هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي. فذهب أنيس إلى مكة، والتقى برسول الله ﷺ، ثم عاد إلى أبي ذر وقال له: لقد رأيت والله رجلاً يدعو إلى مكارم الأخلاق، يأمر بالخير، وينهى عن الشر.

فقال أبو ذر له: وماذا يقول الناس فيه؟. فقال: يقولون: إنه ساحر وكاهن وشاعر. فلم يكتف أبو ذر بما سمع من أخيه وقال: والله ما شفيت لي غليلاً. اكفني في عيالي حتى أنطلق فأنظر في أمره.

رحلة البحث عن الحقيقة

فتزود أبو ذر لنفسه، وحمل معه عصاه وقربة ماء صغيرة. واتجه إلى مكة يريد لقاء رسول الله ﷺ ويقف على خبره بنفسه، وبلغ مكة وهو متوجس خيفة من أهلها، لما عرف من غضبهم لأهتهم وتنكيلهم بكل من تبع هذا الدين.

لذلك أثر البحث عن رسول الله ﷺ في صمت دون أن يسأل عنه أحدًا.

في ضيافة عليّ

ولما أقبل الليل اضطجع في المسجد فمر به عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: هذا رجل غريب؟ فقال أبو ذر: نعم. فقال: انطلق معنا أيها الرجل. ومضى معه وبات ليلته عنده حتى الصباح. فحمل قريته وذهب إلى المسجد دون أن يسأل أحدًا منها صاحبه عن شيء. ومضى أبو ذر يومه الثاني دون أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فلما أمسى أخذ مضجعه من المسجد، فمر به عليّ رضي الله عنه فقال له: أما آن للرجل أن يعود إلى منزله؟ - يقصد منزل عليّ بن أبي طالب - ثم اضطجبه معه، فبات عنده ليلته الثانية. وكما حدث بالأمس لم يسأل أحد منها صاحبه عن شيء. فلما كانت الليلة الثالثة قال عليّ لصاحبه: ألا تخبرني عما أقدمك إلى مكة لعليّ أجد لك عونًا؟ فقال أبو ذر: إن كتمت عليّ وأعطيني ميثاقًا أخبرتك. فأعطاه عليّ ما أراد من ميثاق. فقال أبو ذر: لقد قصدت مكة أبتغي لقاء الرجل الذي يقول إنه نبي، وسماع شيء مما يقول. فانفرت سرائر عليّ وقال: والله إنه لرسول الله حقًا. فإذا أصبحنا فاتبعني حيثما سرت، فإني إن رأيت شيئًا أخافه عليك، قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي وامنض أنت.

أول من حيًّا بتحيةة الإسلام

وفي الصباح مضى عليّ بضيفه إلى رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت إلى شيء، حتى دخلا على رسول الله ﷺ فما أن رآه أبو ذر وكأنها أنوار الإيمان قد أشرقت في قلبه، فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «وعليك سلام الله ورحمته وبركاته». فكان أبو ذر أول من حيا رسول الله ﷺ بتحيةة الإسلام، ثم شاعت وعمَّت بعد ذلك.

فقال أبو ذر: يا رسول الله اعرض عليّ الإسلام، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه آيات من القرآن. فما لبث أن أعلن كلمة الحق ودخل في دين الله قبل أن يبرح مكانه. فكان رابع ثلاثة أو خامس أربعة في الإسلام.

إيذاءات قريش

وبقي أبو ذر مع رسول الله ﷺ يعلمه الإسلام، ويقرأ عليه شيئاً من القرآن. ثم قال له: «يا أبا ذر، اكنم هذا الأمر ولا تُخبر أحداً في مكة، فإني أخاف عليك أن يقتلوك».

ولكن أبا ذر الذي خُلق ليتمرد على الباطل أبى أن يخرج من مكة دون صيحة يصيحها هذا الثائر قبل أن يرحل. فقال لرسول الله ﷺ: «والذي بعثك بالحق لأخرجن بها بين أظهرهم». فسكت رسول الله ﷺ.

فجاء أبو ذر إلى المسجد وقريش جلوس يتحدثون، فنادى بأعلى صوته: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فما كادت كلماته تصل إلى أسماعهم حتى هبوا مغاضبين، وأحاطوا به وضربوه ليموت. لولا أن أدركه العباس بن عبد المطلب «عم رسول الله ﷺ»، وأكب عليه ليحميه منهم، ثم أقبل عليهم، وقال: ويلكم تقتلون رجلاً من غفار وتمر قوافلكم عليهم؟ فأقلعوا عنه. ولما أفاق ذهب إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى ما به قال: «ألم أنك عن إعلان إسلامك؟» فقال: يا رسول الله، كانت حاجة في نفسي فقضيتها. فأدرك رسول الله ﷺ طبيعة تلميذه الجديد الوافد وقدرته على مواجهة الباطل، بيد أن وقته لم يأت بعد. فقال له رسول الله ﷺ: «الحق بقومك وخبرهم بما رأيت وما سمعت وادعهم إلى الله، لعل الله ينفعهم بك ويؤجرك فيهم، فإذا بلغك أني ظهرت فتعال إليّ».

أعماله ومناقبه

١ - الدعوة إلى الله

ويعود أبو ذر إلى قومه ليبدأ رحلة الدعوة إلى الله. وأول مَنْ دعا كان أخاه أنيساً، فلما عرض عليه الإسلام قال أنيس: إني أسلمت وصدقت أيضاً. ثم ذهباً معاً إلى أمهما يدعوناها إلى الإسلام فقالت لهما: إني أسلمت أيضاً.

غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله

وتنطلق هذه الأسرة المؤمنة تدعو إلى الله في قومها غفار، حتى أسلم نصفهم، وقال نصفهم الآخر: إذا قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة أسلمنا. ولم يكتف أبو ذر بقبيلته «غفار» بل انتقل إلى قبيلة أسلم ليدعوهم للإسلام.

ويهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ويستقر بها هو والمسلمون معه. وذات يوم تستقبل المدينة صفوفاً طويلة من المشاة والركبان. ويتوجهون إلى رسول الله ﷺ، فلقد كان هذا الموكب قبيلتي غفار وأسلم. جاء بهما أبو ذر مسلمين

جميعاً. ويلقى رسول الله ﷺ على وجوههم نظرات تفيض غبطة وحناناً. ونظر إلى قبيلة غفار وقال: «غفار غفر الله لها»، ثم نظر إلى قبيلة أسلم وقال: «أسلم سالمها الله». فكم من الأجر والفضل نلت يا أبا ذر بإسلام هؤلاء

القوم؟!

ويبقى أبو ذر في المدينة، ويستأذن رسول الله ﷺ أن يكون في خدمته.

٢- جهاده

لم يشهد أبو ذر بدرًا وأحدًا والخندق؛ حيث كان في باديته يدعو إلى الله - كما أسلفنا -.

غزوة تبوك

ولما كانت غزوة تبوك، سنة تسع هجرية. وقد أمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لملاقاة الروم الذين شرعوا يكيدون للإسلام، وكانت أيام حر وقيلظ، والمسافة بعيدة، والعدو خطير. وقد تقاعس عن الخروج نفرٌ من المسلمين تعللوا بمختلف المعاذير. وخرج رسول الله ﷺ وصحبه وفي الطريق جعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «دعوه فإن يك فيه خير سيُلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه».

وتلفت القوم فلم يجدوا أبا ذر، فقالوا لرسول الله ﷺ: لقد تخلف أبو ذر، فأعاد عليهم رسول الله ﷺ مقالته الأولى. وكان بعير أبي ذر قد ضعف تحت وطأة الجوع والظما، فتعثرت خطاه، وحاول أبو ذر أن يدفعه للسير بلا جدوى، فلم يستطع السير.

فرأى أبو ذر أنه بهذا سيتخلف عن رسول الله ﷺ، فنزل من فوق ظهر بعيره، وأخذ متاعه وحمله على ظهره وظل يهرول وسط الصحراء الملتهبة لعله يدرك رسول الله ﷺ.

كن أبا ذر

ولما نزل رسول الله ﷺ في بعض منازلهم، ووضع المسلمون متاعهم ليستريحوا، فرأى أحد المسلمين رجلاً يمشي في الصحراء تحفه سحابة من الغبار، فقال: يا رسول الله، هذا رجل يمشي على الطريق وحده. فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر». وأخذ المسافر وحده يقترب منهم رويداً. وحين بلغ أول القافلة وتأمله القوم، قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر. فلما رآه رسول الله ﷺ تألقت على وجهه ابتسامة وقال: «يرحم الله أبا ذر! يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده».

لقد كان عند أبي ذر فرصة للتخلف، وكان معه عذر قوي. إلا أنه أثر أن يأخذ الطريق الأصعب ويمشي على قدميه وسط الصحراء الملتهبة ليلحق برسول الله ﷺ. إنه الحُبّ والطاعة لرسول الله ﷺ.

٣- حب رسول الله ﷺ له

كما كان هذا الحب من أبي ذر لرسول الله ﷺ، كان رسول الله ﷺ يحبه حباً جماً.

* يقول رسول الله ﷺ: «ما أقلت الخضراء - أي: السماء - ولا الغبراء -

أي: الأرض - ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر».

* وقال رسول الله ﷺ: «من سرَّه أن ينظر إلى تواضع عيسى ابن مريم فليُنظر إلى أبي ذر».

٤ - صدق في القول والعمل

لقد قرأ رسول الله ﷺ مستقبل أبي ذر ولخص حياته في هذه الكلمات: «لا أصدق ولا أوفى من أبي ذر»، فكان الصدق الجسور هو عنوان حياته، فلم يكن بطبيعته الثائرة ليسكت على الباطل، بل يدحضه، ولا يخشى في الله لومة لائم.

اصبر حتى تلقاني

لقد كان رسول الله ﷺ يرى ببصيرته ما سيلقى أبا ذر من متاعب بسبب صدقه وصلابته، فكان يأمره دائماً أن يجعل الأناة والصبر منهجه وسبيله. فقد سأله رسول الله ﷺ يوماً: «يا أبا ذر، كيف أنت إذا أدركك أمراء يستأثرون بالفيء؟» فأجاب قائلاً: والذي بعثك بالحق، لأضربن بسيفي. فقال له رسول الله ﷺ: «أفلا أدلك على خير من ذلك؟: اصبر حتى

تلقاني». وسيحفظ أبو ذر وصية معلمه ورسوله، فلن يحمل السيف لهؤلاء الأمراء الذين سيتنعمون بهال الأمة، ولكنه أيضًا لن يسكت عنهم. فإذا كان رسول الله ﷺ ينهاه عن حمل السيف في وجوههم، فإنه لا ينهاه عن أن يحمل في الحق لسانه.. ولسوف يفعل..

٥- في عصر الشيخين

لما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، لم يطق أبو ذر على الإقامة في المدينة، وقد أظلمت بعد أن خلت من سيدها ونورها، ومن هدى مجالسه. فرحل إلى بادية الشام، وأقام فيها مدة خلافة الشيخين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما-، واستمر يجاهد في ميادين القتال، وشهد فتح بيت المقدس في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وظل المجاهد الثائر يعمل في الدعوة والوعظ والإفتاء.

قبس من مواعظه

* قام أبو ذر عند الكعبة يومًا فقال: يا أيها الناس، أنا جُندب الغفاري. هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق، فاكتنفه الناس. فقال: أرايتم لو أن أحدكم أراد سفرًا، أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه؟ قالوا: بلى. قال: فإن

سفر طريق يوم القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا ما يصلحكم. قالوا: وما يصلحنا؟ قال:

. حُجُّوا حجة لعظائم الأمور

. وصوموا يوماً شديداً حرّه لطول يوم النشور

. وصلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور.

* يقول أبو ذر: اجعل المال درهمين: درهماً تنفقه على عيالك من حله، ودرهماً تقدّمه لآخرتك والثالث يضرّك ولا ينفعك، فلا تُرده -أي لا تطلبه -.

*أوصاني خليلي بسبع:

جلس أبو ذر يوماً يُحدّث الناس ويقول: أوصاني خليلي بسبع:

١- أمرني بحب المساكين والدينوّ منهم.

٢- وأن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر لمن هو فوقني.

٣- ولا أسأل أحداً شيئاً.

٤- وأن أصل الرحم وإن أدبرت -أي: بعُدت -.

٥- وأن أقول الحق وإن كان مُراً.

٦- ولا أخاف في الله لومة لائم.

٧- وأن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد عاش أبو ذر هذه الوصايا، حتى صارت منهجه في الحياة.

يقول الإمام علي عليه السلام: لم يبق أحد لا يبالي في الله لومة لائم غير أبي ذر.

٦- في عصر عثمان

وينتقل أعظم وأعدل حكام البشرية «عمر بن الخطاب» إلى جوار ربه، تاركًا وراءه فراغًا هائلًا. وتستمر الفتوح والمغانم في عصر عثمان بن عفان، ويرى أبو ذر الخطر، ويرى إقبال المسلمين على الدنيا، وانغماسهم في الترف، فأذهله ودفعه إلى استنكار ذلك.

الثائر الجليل:

وهنا تتورث ثائرة أبي ذر الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما أسلفنا -: «ما

أقلت الخضراء ولا الغبراء ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر».

فخرج إلى معادل السلطة والثروة، يغزوها بمعارضته مطالبًا بالتوزيع

العادل للثروات، وعدم الترف والإسراف.

وأصبح في أيام معدودات الراية التي التفت حولها الجماهير وخاصة

الكادحين منهم. ولقد بدأ بأكثر تلك المعادل في الشام؛ حيث كان معاوية

بن أبي سفيان والياً عليها.

وقد وجدت دعوة أبي ذر صدّي كبيراً، حتى أصبحت الشام كلها تسمع إليه.

أبو ذر في مواجهة معاوية

ويقف أبو ذر يُسائل معاوية في غير خوف ولا مُدارة. فسأله عن ثروته قبل أن يُصبح حاكماً وعن ثروته اليوم. ثم يُذكره بقوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }** [التوبة: ٣٤]، فيرد معاوية: لقد نزلت هذه الآية في أهل الكتاب. فيصيح أبو ذر: لا، بل نزلت فيهم وفينا.

وينصح أبو ذر معاوية ومن معه، أن يُخرجوا كل ما بأيديهم من ضياع وقصور، وألا يدخر أحدهم لنفسه أكثر من حاجات يومه. وتتناقل الجموع الحاشدة نبأ هذه المناظرة، وأنباء أبي ذر. ويتعالى نشيد أبي ذر: «بشّر الكانزين بمكاوٍ من نار يوم القيامة».

العودة إلى المدينة

ويستشعر معاوية الخطر، ولكنه يعرف للثائر الجليل قدره فلا يقربه بسوء. ويكتب إلى الخليفة «عثمان بن عفان»، فيستدعيه عثمان إلى المدينة، ويلبي أبو ذر دعوة الخليفة، ويسافر إلى المدينة تاركًا الشام، وما زال صدى كلامه ومعارضته تفرع الأذان.

المنفى الاختياري

وبعد جدال طويل بين عثمان وأبي ذر، لم يُقنع أحدهما الآخر. يقول عثمان لأبي ذر: ابق بجانبني، تغدو عليك اللقاح وتروح - أي: يغدو عليك الخير ويروح -.

فقال أبو ذر: لا حاجة لي في دنياكم، وطلب منه أن يأذن له بالخروج إلى الرّبذة، وهي قرية صغيرة من قرى المدينة، فأذن له. ويخرج أبو ذر إلى منفاه الاختياري، ليقضي ما بقي له من الحياة.

المعارضة الحميدة

كنا قد أسلفنا في معرض الحديث عن الفتن في عصر عثمان بن عفان، أنه ظهر نوعان من المعارضة: المعارضة الحميدة التي كانت من بعض الصحابة

الأجلاء، وكان على رأسهم «أبو ذر الغفاري»، وكان لهذه المعارضة هدف واحد؛ هو تصحيح مسار الدولة، والعلو بشأنها. والمعارضة الخبيثة التي قادها «عبد الله بن سبأ» وأعوانه، وكان هدفها هو هدم الدولة وزلزلة أركانها. ولذلك كان رد أبي ذر الذي أذهل المتمردين المتآمرين أصحاب المعارضة الخبيثة، لما جاءوه في الرَبْذة يسألونه أن يرفع راية الثورة ضد الخليفة فزجرهم بكلمات حاسمة، وقال لهم: «والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة أو جبل لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت، ورأيت أن ذلك خيراً لي». فبُهِت المتآمرون وارتبكت خططهم. وظل أبو ذر على معارضته الأمانة «الحميدة»، وقضى عمره كله يُحَدِّق في أخطاء الحكام وإغراء المال والسلطان.

٧- ورعه وزهده

وعاش أبو ذر حياة الزهد والتقشف، متسامياً على مغريات الإمارة والثروة. وهاك بعض من صور ورعه وزهده:

* إنك مُعظم للدنيا

رآه صاحبٌ له يومًا يلبس ثوبًا قديمًا فسأله: أليس لك ثوب غير هذا؟ لقد رأيت معك منذ أيام ثوبين جديدين؟ فأجابه أبو ذر: يا ابن أخي، لقد أعطيتهما من هو أحوج مني. فقال: والله إنك لمحتاج إليهما. فقال أبو ذر: إنك مُعظم للدنيا، أَلست ترى عليّ هذه البردة، ولي أخرى لصلاة الجمعة، ولي عنزة أحلبها، فأني نعمة أفضل مما نحن فيه؟!

* أين متاعكم؟

دخل عليه ذات مرة رجل، فجعل يُقلِّب بصره في بيته فلم يجد فيه متاعًا. فقال يا أبا ذر، أين متاعكم؟. فقال: لنا بيت هناك - يعني الآخرة - نرسل إليه صالح متاعنا. ففهم الرجل مراده، وقال له: ولكن لا بد من متاع ما دُمت في هذه الدار - يعني الدنيا - .

فأجابه أبو ذر: إن صاحب المنزل لا يتركنا فيه طويلاً.

* لن تميلوا عليّ بدنياكم

لما عُرضت عليه إمارة العراق رفضها، وقال: والله، لن تميلوا عليّ بدنياكم أبداً.

* يُنْفِقُ مَا يَحِبُّ

يقول أبو ذر: إن الله تعالى يقول: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢]. وهذا الجَمَلُ مما كنت أحب من مالي، فأحببت أن أنفقه في سبيل الله. وتصدق بهذا الجَمَلِ..

الفصل الأخير

وبعد حياة طويلة مليئة بالزهد والعطاء والطاعة ينام أبو ذر على فراش الموت ليعالج سكرات الموت في الرَبْذة.

تشهده عصابة من المؤمنين

وتجلس زوجته إلى جواره تبكي، فيسألها: فيم البكاء والموت حق؟ فتجيبه: إنما أبكي لأنك تموت بفلاة من الأرض، وليس عندي ثوب يسعك كفنًا، ولا يدان لي بنعشك - أي: لا أستطيع دفنك وحدي-.

فقال لها متبسّمًا: اطمئني ولا تبكي، فإني سمعت رسول الله ﷺ ذات يوم وأنا عنده في نفر من أصحابه يقول: «ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض، تشهده عصابة من المؤمنين». وكل من كان معي هناك في هذا المجلس مات في جماعة أو قرية، ولم يبقَ منهم غيري. وهأنذا بالفلاة أموت، فراقبي الطريق فستطلع علينا عصابة من المؤمنين، فإني والله ما كذبتُ ولا كُذبتُ.

وفيا زوجته تروح وتغدو لتراقب الطريق ثم تعود لتمرّضه، فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها. فرأت زوجته قافلة قادمة على الطريق بها جماعة من المؤمنين وعلى رأسهم «عبد الله بن مسعود» صاحب رسول الله ﷺ وما أن

رأى ابن مسعود مشهد الجسد المدد وإلى جواره سيدة و غلام يبكيان، حتى لوى زمام دابته والركب معه صوب المشهد.
وما يكاد يُلقِي نظره على الجثمان حتى تقع عيناه على صاحبه وأخيه «أبي ذر»، وتفيض عيناه بالدمع، ويقف على جثمانه الطاهر يقول: صدق رسول الله ﷺ: «تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتُبعث وحدك». وقاموا إليه فغسلوه ودفنوه.

وجلس ابن مسعود يروى لصحبه قصة أبي ذر لما قال له رسول الله ﷺ هذه المقالة في غزوة تبوك - كما أسلفنا -.

فكانت وفاته في عام ٣٢ هجرية في عصر عثمان بن عفان الذي أمر بأهله فضمَّهم إلى أهله.

فرحة الله وبركاته عليك أيها الثائر الجليل.

أيها الزاهد العابد الأواب.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «أبا ذر الغفاري».

عمرو بن العاص

والآن أعزائي، فلنستقبل ضيفاً عزيزاً من «الصُّحبة العطرة»؛ إنه داهية قريش، يُضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم. كان إسلامه - وإن تأخر - فتحاً عظيماً. فعلى يديه تحرر قُطْرَيْن كبيرين من أقطار المعمورة من ظلم الرومان، وهما: مصر وفلسطين. وعلى يديه دخل خلقٌ كثيرٌ في دين الله.

إنه الأمير الإمام «عمرو بن العاص»؛ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص».

نسبه

هو: عمرو بن العاص بن وائل. أما أبوه «العاص بن وائل» فهو أحد حكام العرب في الجاهلية، وسيد من سادتهم. وواحد ممن ينتهي نسبهم إلى المرتبة العليا من سادة قريش.

أما أمه «النابغة بنت عبد الله» فلم تكن كذلك، إنما كانت أمةً سَيِّئة؛ حيث أصابها رماح العرب في الجاهلية فبيعت بسوق عكاظ، فاشتراها عبد الله

بن جُدعان ثم وهبها للعاص بن وائل فولدت له «عمرو بن العاص». وقد كان هذا النسب لأُمَّه ما يُعْرِي حَسَّاده فيلاحقوه بذكر أمه وهو جالس على كرسي الإمارة أو مُرتقٍ فوق منبر الخطابة.

مواقفه من المسلمين قبل إسلامه

لقد كان عمرو بن العاص من أشد الناس عداً للمسلمين، ولقد نال المسلمين منه أذى كبير قبل إسلامه.

إلى الحبشة للملاحقة المهاجرين

لما أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة، واستقر بها المهاجرون، وهو ما أعاظ قريشاً فعزمت على استعادتهم إلى مكة. وقد اختارت «عمرو بن العاص» لهذه المهمة، لما كان بينه وبين النجاشي من صداقة قديمة، ولما هو معروف عنه من الحنكة والدهاء. فزودته بالهدايا للنجاشي وبطارقته، وأرسلت بصحبته «عبد الله بن أبي ربيعة».

فلما وفدا على النجاشي، وبعد أن أعطى الهدايا للبطارقة، قالوا له: إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليك أشراف

قومهم ليردوهم إلى دينهم ويُعيدوهم إلى ملتهم. فقال النجاشي: "لا والله لا أسلمهم حتى أدعوهم فأسألهم عما تقولوا فيهم".

واستدعى النجاشي نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ لسمع كلامهم. وكان المتحدث عنهم «جعفر بن أبي طالب» - قد أسلفنا الحوار كاملاً في معرض الحديث عن حياة «جعفر بن أبي طالب» -.

وبعد أن سمع النجاشي من المسلمين، أبى أن يُسلمهم إلى عمرو وصاحبه، وأعاد لهما ما أتحفاه به من هدايا، وعاد مبعوثاً قريش «عمرو بن العاص» و«عبد الله بن أبي ربيعة» بلا طائل، وقد فشلت مهمتهما فشلاً زريعاً.

إسلامه

بقي عمرو بن العاص في خندق قريش يحارب الإسلام والمسلمين حتى فتح الله عليه، وأنار قلبه بنور الإيمان.

رجل يأتيه الناموس الأكبر

وبعد غزوة الأحزاب وما لحق بالمشركين من هزيمة جمع عمرو بن العاص نفراً من قريش وقال لهم: تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو علواً كبيراً، وإني رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده. فإن ظهر محمد على قومنا، كنا

عند النجاشي في أمان. وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير. فقالوا: إن هذا هو الرأي. فأجمعوا أدمًا كثيرًا ليهدوا به النجاشي؛ لأنه كان يجب الأدم. وذهب عمرو بن العاص ومن معه إلى النجاشي لينعموا بالعيش معه في أمان.

وفي يوم من الأيام وفيما هم في مجلسه، إذ جاءه «عمرو بن أمية الضمري»، كان رسول الله ﷺ قد بعثه إلى النجاشي في شأن جعفر وأصحابه. فدخل عليه ثم خرج من عنده، فلما رأى «عمرو بن العاص» ذلك طلب من النجاشي أن يعطيه «عمرو بن أمية الضمري» ليقتله، حتى ترى قريش أنه قتل رسول رسول الله ﷺ، وهو ما قد يُعلي من شأنه لدى قريش. وما أن سمع النجاشي بمطلب عمرو، حتى صاح مغضبًا: "أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر لتقتله؟"

أطعني واتبعه

فقال عمرو: أيها الملك، أكذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو كيف يعزب عنك أمر محمد، علي ما أعرفه من رجاحة عقلك وبعُد نظرك، أطعني واتبعه. فإنه والله لعل الحق، وليظهرن علي من خالفه.

وهنا أشرقت نفس عمرو بنور الإيمان، وقال للنجاشي: أفتبايعني له علي

الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده وباع النجاشي على الإسلام. وخرج إلى أصحابه وكنتم عنهم إسلامه.

في رحاب رسول الله ﷺ

وودَّع عمرو بن العاص الحبشة، ومضى على وجهه، وقد أخذت كلمات النجاشي تهز فؤاده هزاً، وظل حديثه عن رسول الله ﷺ وما جاء به من الحق يدفعه دفعاً للقائه. فركب البحر عائداً إلى بلاده، ومُيمماً وجهه شطر المدينة للقاء رسول الله ﷺ، وإعلان إسلامه بين يديه.

وفيما هو في بعض طريقه إلى المدينة، التقى بخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة قادمين من مكة. وعلم أنهما يقصدان رسول الله ﷺ ليسلما. ودخل الثلاثة على رسول الله ﷺ فبايعه كلُّ من خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة. ثم تقدم عمرو بن العاص وقال: أي أبايعك على أن يغفر الله لي ما تقدم من ذنبي. فقال له رسول الله ﷺ: «يا عمرو بايع؛ فإن الإسلام يُجِبُّ ما كان قبله».

فبايع عمرو رسول الله ﷺ، لكن هذه الحادثة تركت أثراً كبيراً في نفس عمرو بن العاص، فكان يقول: «إني لأشد الناس حياءً من رسول الله ﷺ، فما ملأت عيني منه ولا تمليت من النظر إلى وجهه حتى لحق بربه».

ومن بعدها وضع «عمرو بن العاص» دهاؤه وشجاعته في خدمة دين الإسلام.

أعماله ومناقبه

١ - في عصر النبوة:

سرية ذات السلاسل

كان رسول الله ﷺ يعرف قدر الرجال وطاقاتهم، فكان يوظفها توظيفاً لا مثيل له. فلما رأى ما يتمتع به عمرو بن العاص من طاقات فذة، وقدرة عالية من الذكاء والدهاء ورجاحة العقل. فأمره على جيش المسلمين في سرية «ذات السلاسل» على الرغم ممن كان في الجيش من المهاجرين والأنصار، وأصحاب السابقة للإسلام.

أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص

لقد أحب رسول الله ﷺ «عمرو بن العاص» حباً جمًّا، وقد وضع على صدره باقة عطرة من المناقب:

- قال رسول الله ﷺ: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص».

- وقال ﷺ: «ابنا العاص مؤمنان، عمرو وهشام».

- وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «عمرو بن العاص من صالحى قريش».

والي عُمان

وعندما انتقل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الرفيق الأعلى، كان عمرو بن العاص واليه على عُمان. وقد حزن حزناً كبيراً لوفاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢- في عصر أبي بكر الصديق

* ولما آلت الخلافة إلى الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أبلى عمرو بن العاص في حروب الردة أعظم البلاء. فقد نزل ببني عامر، فإذا بزعيمهم «قُرة بن هُبيرة» يهيم بالردة، ويقول له:

يا عمرو إن العرب لا تطيب لهم نفساً بهذه الإتاوة التي فرضتموها على الناس (يعني بها الزكاة). فإن أعفيتها منها من ذلك سمعت لكم وأطاعت، فإن أبيتم فلا سمع ولا طاعة.

فصاح عمرو بن العاص بزعيم بني عامر، وقال: «ويحك، أكفرت يا قُرة؟ وهل تخوفنا بردة العرب؟ فوالله لأوطنن عليك الخيل في خباء أمك.

* ولما انتهت حروب الردة أرسله أبوبكر على رأس جيش لملاقاة الروم.

٣- في عصر عمر بن الخطاب

ولما انتقل الصديق لجوار ربه، وتسلم زمام الأمور الفاروق استعان بقدرات «عمرو بن العاص» وخبراته؛ فكان الفتح على يديه.

أرطوبون العرب

أرسله الفاروق على رأس جيش إلى الشام، وقيل لأمير المؤمنين: إن على رأس جيوش الروم بالشام أرطوبوناً - أي: قائداً وأميراً بلغة الروم - من الشجعان الدهاة. فكان جواب عمر: «لقد رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب، فلننظر عمّ تنفرج الأمور»، ولقد انفرجت عن غلبة ساحقة لأرطوبون العرب وداهيتهم «عمرو بن العاص» على أرطوبون الروم الذي ولى هارباً بعد هزيمة جيشه.

فتوحات على يد عمرو بن العاص

- * وشهد عمرو يوم اليرموك وأبلى يومئذ بلاءً حسناً.
- * بعثه أبو عبيدة بن الجراح، فصالح أهل حلب وأنطاكية.
- * فتح الله على يديه سواحل فلسطين بلداً بعد بلد، ثم اتجه إلى حصار بيت المقدس، حتى زرع اليأس في نفس أرطوبون الروم الذي ولى هارباً أمام

أرطبون العرب - كما أسلفنا -.

* ثم تَوَجَّح «عمرو بن العاص» انتصاراته بفتح مصر، وضم هذه الدرّة الثمينة إلى عقد الإسلام.

وأسس بها مدينة الفسطاط وبنى بها مسجده المشهور «مسجد عمرو بن العاص».

* فتح طرابلس الغرب، وفتحتها فتح أمام جيوش المسلمين أبواب إفريقيا وبلاد المغرب ثم إسبانيا بعد ذلك.

٤ - صور من دهائه وذكائه

وما أكثر المواقف التي تألقت فيها ذكاء «عمرو بن العاص» ودهاؤه. فقد كان أحد دهاة العرب المعدودين، وواحدًا من عباقرتهم الأفاضل النادرين. وهاك بعض صور من دهائه وصدق بديته على سبيل المثال لا الحصر:

والله إن هذا لعمره

في موقعة أجنادين لما حاصر عمرو بن العاص الروم في حصنهم. فبعث قائد الروم إلى قائد جيش المسلمين أن يبعث إليه برجل من عنده لينظره ويفاوضه. فندب بعض المسلمين أنفسهم لذلك، لكنَّ عَمراً قال: إني

سأكون رسول قومي إليه. ودخل على قائد الروم كأنه مُرسل من لدن قائد المسلمين، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه، وتأمل حضرته حتى عرف ما أراد. وقال قائد الروم في نفسه: «والله إن هذا لعمر و ما كنت لأُصيب القوم بأمرٍ هو أعظم من قتله». فدعا بعضاً من رجاله، وأمرهم بإلقاء صخرة فوق رأسه إثر انصرافه من الحصن. وأعد كل شيء دون أن يشعر عمراً، ليكون قتله أمراً محتوماً.

وبينما عمرو في طريقه لخارج الحصن لمح فوق أسواره حركة مُريبة، حرَّكت فيه حاسة الحذر بشدة. وعلى الفور تصرَّف بشكل باهر، فعاد إلى قائد الروم في خطوات آمنة مطمئنة، كأنه لم يعرف شيئاً قط. ودخل عليه وقال: لقد بادرنى خاطر أردت أن أطلعك عليه، إن معي حيث يقيم أصحابي جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ السابقين للإسلام، لا يقطع أمير المؤمنين أمراً دون مشورتهم، ولا يرسل جيشاً إلا وجعلهم على رأس مقاتليه، وقد رأيت أن آتيك بعشرة منهم يسمعون منك ما سمعت، ويكونوا على الأمر مثل ما أنا عليه من بينة.

وأدرك قائد الروم أن عمراً بسذاجة قد منحه فرصة كبيرة وسرَّ بذلك، ومَنَى نفسه بقتل عشرة منهم بدلاً من قتل واحد فقط. وبطريقة غير منظورة أعطى أمره بإرجاء الخطة التي كانت مُعدَّة لاغتيال عمرو، وودَّع

قائد الروم عمراً بحفاوة. وبذلك كُتِبَ لعمر بن العاص النجاة. وفي الصباح، وبعد أن كان قد جَمَعَ من المعلومات والأخبار عن جيش الروم ما قد جمع من زيارته بالأمس، أعدَّ عمرو جيشه وعاد إلى حصن الروم ممتطيًا صهوة فرسه ليفتح الحصن ويولي قائد الروم هاربًا.

إن جعل لك شيئاً من المال فخذهُ

وفي يوم حاول أحد حُسادِه أن يلاحقه بِذِكرِ أمه - كانت أمة كما أسلفنا - وهو جالس على كرسي الإمارة. فأغرى رجلاً أن يقوم إليه وهو مُرتقٍ على المنبر ليسأله عن أمه، وذلك مقابل مبلغ كبير من المال. فقام الرجل، وقال: مَنْ أمُّ الأمير؟ فضغَطَ عمرو على نفسه، وتذرع بحلمه ثم قال: هي النابغة بنت عبد الله، أصابتها رماح العرب في الجاهلية، فبيعت بسوق عُكاظ فاشتراها عبد الله بن جُدعان، ثم وهبها إلى العاص بن وائل (يعني: أباه)، فولدت له وأنجبت الأمير (يقصد نفسه: عمرو بن العاص).

وأدرك عمرو بحسه وفطنته ما أراد حُسادُه منه، وأن الرجل الذي سأله ما هو إلا أداة في أيديهم أرادوا بها إحراجه والنَّيلَ منه. فقال للرجل: إن كان بعض من مَزَّق الحسد قلبه قد جعل لك شيئاً من المال فخذهُ!!

٥ - حسن البيان وفصاحة اللسان

كان عمرو بن العاص من أحسن الناس بياناً وأفصحهم لساناً.

والله إني لأستشير في الأمر حتى خدمني

من بليغ كلامه، قوله: "الرجال ثلاثة: رجل تام، ونصف رجل، ولا شيء.."

- أما الرجل التام، فهو الذي اكتمل دينه وعقله، فإذا أراد أن يقضي أمراً استشار أهل الرأي، فلا يزال موقفاً.

- أما نصف الرجل، فهو الذي يُكمل الله له عقله ودينه. فإذا أراد أن يقضي أمراً لم يستشر أحداً، وقال: أي الناس أتبعه وأترك رأبي لرأسه؟ فيصيب ويُخطئ.

- أما الذي لا شيء، فهو لا دين له ولا عقل، فلا يزال مخففاً مُدبراً.

والله إني لأستشير في الأمر حتى خدمني.

خالق هذا وخالق عمرو بن العاص إله واحد

كان أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» يرى في فصاحته آية على قدرة الله ﷻ، فإذا رأى رجلاً عاجز الحيلة، يتدلجج، قال متعجباً: "آمنت بالله، إن خالق

هذا وخالق عمرو بن العاص إله واحد!!"

٦- فتنة أصابت الأمة

ويمضي «عمرو بن العاص» في خدمة دينه في خلافة عثمان بن عفان بعد وفاة عمر بن الخطاب. ولما كانت الفتنة التي عصفت بالأمة وقام الخلاف بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان -رضى الله عنهما-؛ كان لعمرو موقف فيها. وكنا قد أسلفنا بالتفصيل أصول هذه الفتنة ومن كان محرکها، وما حدث فيها - ارجع للجزء الثاني من هذا الكتاب «حياة العشرة المبشرين بالجنة».

وليس لنا الآن أن نطلق لألسنتنا العنان للخوض في أصحاب رسول الله ﷺ. فإنهم ما أرادوا الدنيا بحال من الأحوال، فكلهم عُذول: فمنهم من اجتهد وأصاب، ومنهم من اجتهد وأخطأ. فمن أصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد، كما أخبرنا رسول الله ﷺ، فرضي الله عن الصحابة أجمعين.

الفصل الأخير

وفي السنة الثالثة والأربعين من الهجرة، وبعد حياة طويلة مليئة بالكفاح والبذل يرقد «عمرو بن العاص» على فراش الموت ليلقى ربه، وهو بمصر حيث كان والياً عليها.

كنت على ثلاث حالات

وراح يستعرض حياته في لحظات الرحيل، فقال لابنه: كنت على ثلاث مراحل عرفت نفسي فيها:

* كنت أول أمري كافراً، وكنت أشد الناس على رسول الله ﷺ فلو مِتُّ حيثُذ لو جبت لي النار.

* فلما بايعت رسول الله ﷺ، فما كان في الناس أحد أحبَّ إليَّ منه، ولا أجلَّ في عيني منه، ولو سُئلت أن أنعته ما استطعت لأنني كنت أشد الناس حياءً منه، حتى إني ما ملأت عيني منه قط. فلو مِتُّ حيثُذ لقال الناس: هنيئاً لعمرو أسلم على خير ومات على خير، ولرجوت أن أكون من أهل الجنة.

* ثم بُليت بعد ذلك بالسلطان، وتلبَّست بأشياء فلا أدري أعليَّ أم لي؟

الوصية الأخيرة

ووصى عمرو ابنه عبد الله، وقال: إذا مِتُّ فاغسلني غسلة بالماء، ثم جفِّني في ثوب، ثم اغسلني الثانية بماء قراح ثم جفِّني، ثم اغسلني الثالثة بماء فيه كافور، ثم جفِّني وزرَّ عليَّ. ثم إذا أنت حملتني على السرير، فامش بي مشياً بين المشيتين، وكن خلف الجنازة، فإن مقدمتها للملائكة وخلفها لبني آدم. فإذا أنت وضعتني في القبر فسنِّ (صَبِّ) عليَّ التراب سنّاً.

آخر كلماته لا إله إلا الله

ثم رفع بصره إلى السماء في ضراعة مناجياً ربه العظيم قائلاً: «اللهم إنك أمرتنا فأضعنا، ونهيتنا فما انتهينا. اللهم لا بريء فأعذر، ولا عزيز فأنتصر، وما أنا بمستكبر وإنما مُستغفر. ولا يسعنا إلا عفوك يا أرحم الراحمين». وظل في ضراعة وابتهاال حتى فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها، وكان آخر كلماته: لا إله إلا الله.

وتحت ثرى مصر التي عرفت طريق الإسلام من «عمرو بن العاص» ثوى رُفاته، وفوق أرضها لا يزال مسجده العتيق «مسجد عمرو بن العاص»؛ أول مسجد في مصر ذُكِرَ فيه اسم الله الواحد الأحد. فما من مسلم يعيش على أرض مصر إلا وكان إسلامه في ميزان حسنات «عمرو بن العاص» إلى يوم القيامة، فيا له من فضل لا يعدله أي فضل!!

فرحة الله وبركاته عليك يا فاتح مصر..

ورضي الله عنك وأرضاك يا «عمرو بن العاص».

العباس بن عبد المطلب

ولنهبط الآن أعزائي على بستان «الصحبة العطرة»، لنقتطف هذه الريحانة من رياحين «الصحب الكرام»؛ إنه عم رسول الله ﷺ، من كان عوناً وسنداً له قبل أن يُعلن إسلامه وبعدها. إنه من كان الصحابة يستسقون به بعد وفاة رسول الله ﷺ «ساقى الحرمين»؛ إنه العباس بن عبد المطلب ﷺ.

مولده ونشأته

وُلد العباس قبل رسول الله ﷺ بعامين. فكان هو ورسول الله ﷺ في سن واحدة، وشابَّين من جيل واحد، وقد نشأ على ما نشأ عليه رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال. فقد كان العباس جواداً مُفرط الجود، وُصُولاً للرحم. وعلى الرغم من أن العباس كان يكبر عن رسول الله ﷺ بعامين، إلا أنه ومن شدة أدبه مع رسول الله ﷺ كان إذا سُئل: "أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟" قال: هو أكبر، وأنا وُلدت قبله.

وصفه

كان العباس من أطول الرجال، وأحسنهم صورة، وأبهاهم، وأجهرهم صوتاً مع الحلم الوافر والسؤدد.

إسلامه

لم يُعلن العباس إسلامه إلا عام فتح مكة، ولكنه ليس من الطلقاء؛ حيث إنه قدم إلى رسول الله ﷺ قبل الفتح، وقد أجار أبا سفيان بن حرب عند رسول الله ﷺ، قبل الفتح أيضاً.

يُبد أن الشواهد وبعض الروايات تنبئ بأنه كان من المسلمين المبكرين، وأنه أسلم قبل الهجرة وكنم إسلامه. وبقي بمكة بعد الهجرة، وكان مُقامه بها خُطة أدَّت غايتها على خير نسق.. كما سنرى بعد قليل.

مواقفه ومناقبه

١ - يوم بيعة العقبة الثانية

ويأتي يوم بيعة العقبة الثانية، ليُظهر فيه العباس الكثير من الحب لرسول الله ﷺ والخوف عليه مع الفطنة والذكاء.

فقد قدم إلى مكة وفد الأنصار - ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان - ليعطوا البيعة لرسول الله ﷺ على الهجرة إلى مدينتهم. وكان رسول الله ﷺ قد أخبر عمه العباس نبأ هذه البيعة، حيث كان رسول الله ﷺ يثق بعمه وبرأيه.

وجلس المبايعون في الشَّعْب عند العقبة ينتظرون رسول الله ﷺ حتى جاءهم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب. وكان العباس أول المتكلمين فقال: يا معشر الخزرج - كان العرب يُسمون أهل المدينة الخزرج، خزرجها وأوسها - إن محمداً منا حيث علمتم. وقد منعناه من قومنا، فهو في عزٍّ من قومه. وإنه أباي إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه فأنتم وما تحملتم. وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِموه وخاذلوه بعد خروجه إليكم، فدعوه من الآن.

وكان العباس وهو يُلقي بكلماته هذه عيناه تحديقان في وجوه الأنصار يتتبع وَقَع كلامه عليهم.

كيف تقاتلون عدوكم؟

ولم يكتفِ العباس بهذا، بل وجَّه إليهم سؤالاً ذكياً، وقال: صفوا لي الحرب، كيف تقاتلون عدوكم؟ فكان ردهم على هذا السؤال المثير الحافز أن قام

رجل منهم «عبد الله بن عمرو» وقال: نحن والله أهل حرب، غُذِّينَا بها، وورثناها عن آبائنا كإبراً فكابراً، نرمي بالنبل حتى تفتنى، ثم نطاعن بالرماح حتى تُكسر، ثم نمشي بالسيوف فنضارب بها، حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا!!

وبهذه الإجابة اطمئن قلب العباس بأن ابن أخيه في أمان وحماية من كل سوء. وسواءً عليه أكان يومئذ اعتنق الإسلام سرّاً أم كان لا يزال على دين قومه، فموقفه العظيم هذا يحدد موقفه من قوى الشر، ويصوّر أبعاد رجولته وحبّه لرسول الله ﷺ.

ثم دار بعد ذلك حديث رائع بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار.
 ﴿ للاستزادة من أخبار بيعة العقبة، ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب «حياة خير الأنام ﷺ» للمؤلف.)

٢- يوم بدر

وفي يوم بدر؛ حيث كان العباس على عهدِه ووعده مع رسول الله ﷺ؛ حيث ذكر بعض المؤرخين - كما أسلفنا - أنه أسلم قبل الهجرة. فلما شرعت قريش في هجومها على المدينة، نجح العباس في إبلاغ رسول الله ﷺ بتحركات قريش.

أما قريش فلم تكن تُخفي شكوكها في نوايا العباس، ولكنها أيضًا لم تجد ما يؤيد ظنونها وخاصة أنه كان في ظاهر أمره على ما يرضون وموافق لهم. فلما جاءت غزوة بدر، رأتها قريش فرصة تُظهر فيها سريرة العباس وحقيقته، فجعلته يخرج معهم، فخرج مُكرهًا.

من لقي العباس فلا يقتله

وتبدأ المعركة ويلتقي الجمعان، وينادي رسول الله ﷺ في أصحابه قائلاً: «إن رجالاً من بني هاشم ومن غيرهم قد أُخرجوا كُرْهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدهم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختری بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مُستكرهًا».

وما كان رسول الله ﷺ، يأمر أصحابه بهذا الأمر لقراية له، إنما كان يُقدّر لكل ذي فضل فضله، فقد كان يعلم حقيقة عمه وما يطوي في صدره، وما قدّمه للإسلام من خدمات منظورة.

وكذا الحال مع أبي البختری الذي رفض ظلم قريش لما قرّرت فرض حصارها على المسلمين ومقاطعتهم. فكان هو أول من كسر هذا الحصار وتلك المقاطعة الظالمة، وإن كان لم يُعرف له إسلام خفية أو جهراً.

سمعت أنين العباس في وثاقه

وعملاً بوصية رسول الله ﷺ، لم يُقتل العباس بل وقع في الأسر. فعن ابن اليسر أنه قال: «نظرت إلى العباس يوم بدر وهو واقف كأنه صنم وعيناه تذرفان، فقلت له: أتقاتل ابن أخيك؟ فقال: ما تُريد إليّ؟ (أي: ما تريد مني)، قلت: الأسر فإن رسول الله ﷺ نهى عن قتلك، فأسرتة».

وتنتهي المعركة، ويُمسي رسول الله ﷺ ليلته، والأسارى في الوثاق فبات ساهراً، ولما سُئل عن سبب أرقه وقد نصره الله نصراً مؤزرًا. فأجاب قائلاً: «سمعت أنين عمي العباس في وثاقه» فأسرعوا إلى مكان الأسرى فأطلقوا وثاق العباس، وعادوا فأخبروا رسول الله ﷺ، فقال لهم: «اذهبوا وافعلوا ذلك بالأسرى جميعاً». ففعلوا ففرح رسول الله ﷺ واستطاع بعدها أن ينام.

هذا خير مما أخذ مني

لم يكن حب رسول الله ﷺ لعمه يعني أن يُميزه عن الناس الذين يجمعهم معه ظروف مماثلة. فعندما تقرر أخذ الفدية من الأسرى، قال رسول الله ﷺ لعمه: «أفد نفسك، وابن أخيك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو»؛ ففعل العباس وفدى نفسه ومن معه.

وفي ذلك نزل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ

يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنفال: ٧٠].

وجعل العباس يقول وهو منطلق راجعاً إلى مكة: أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزها. فهذا خير مما أخذ مني، ولا أدري ما يصنع في الآخرة.

٣- عين رسول الله ﷺ في مكة

ويعود العباس إلى مكة، ولم تخدعه قريش بعد ذلك، فلم يشترك في أي عدوان على المسلمين بعدها، بل كان عين رسول الله ﷺ في مكة. فكان يُخبره أولاً بأول بكل أخبار قريش وتحركاتها.

وكان له الفضل في كثير من المواقع، وخاصة موقعة الخندق، لما قرّرت قريش وأحزابها مهاجمة المدينة، فأرسل العباس برسالة إلى رسول الله ﷺ يُخبره بتلك التحركات.

وكان ذلك قبلها بوقت كافٍ مما أعطى لرسول الله ﷺ وصحبه الفرصة لיעدوا العدة ويستعدوا لهذا العدوان الذي لم تشهد العرب مثله من قبل. وكان الوقت كافياً لحفر الخندق الذي كان سبباً رئيساً لنصر المؤمنين وهزيمة المشركين.

٤- آخر المهاجرين

ولما كان يوم الفتح، خرج رسول الله ﷺ، على رأس جيش جرار لفتح مكة. ولما كان رسول الله ﷺ بالجُحفة -بين المدينة ومكة- لقيه العباس، وقد خرج بعياله مسلماً مهاجراً.

وقد اغتبط رسول الله ﷺ بإسلامه، أو قُل بإعلان إسلامه. وقال له: «أراد الله أن أكون أنا خاتم المرسلين، وأنت آخر المهاجرين»، وبعدها قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح».

العباس يُجير أبا سفيان

ولما رأى العباس من جيش ابن أخيه ومن قوته ما راعه، فاستأذن رسول الله ﷺ أن يأخذ بغلته، ويخرج لعله يلتمس أحداً يُخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنوا رسول الله ﷺ قبل أن يدخل عليهم عنوة، فأذن له. فخرج العباس على بغلة رسول الله ﷺ، فلقي أبا سفيان الذي أذهله ما رأى من قوة المسلمين، وطلب أبو سفيان من العباس أن يستأمنه عند رسول الله ﷺ، فركب أبو سفيان خلف العباس وسار به، فكلما مرَّ على نار من نيران المسلمين، ورأوا بغلة رسول الله ﷺ وهو عليها فيقولون: عم رسول الله ﷺ على بغلته.

ويدخل العباس بأبي سفيان على رسول الله ﷺ الذي أجاره تلبيةً لرغبة العباس، ويُسلم أبو سفيان، ويشهد شهادة الحق بين يدي رسول الله ﷺ.

٥- يوم حُنين

ويجيء يوم حنين ليؤكد فدائية وبطولة العباس بن عبد المطلب، تلك البطولة التي تملأ الدنيا. فبعد فتح مكة اجتمعت قبائل هوازن وثقيف وآخرون، وقرروا شنَّ هجوم حاسم وشرس على رسول الله ﷺ بعد أن أحسُّوا بالخطر وتنامي قوة الإسلام. فقالوا: قد فرغ محمد من قتال قومه، ولا نهاية له عنا، فلنغزوه قبل أن يغزونا.

لن نُغلب اليوم من قلة

واحتشدت تلك القبائل لغزو المسلمين، وخرج إليهم المسلمون في اثني عشر ألفاً، وباتوا ليلتهم على وَعْد بهجوم كاسح في الصباح على الأعداء، وقد أخذ بعضهم الزهو الذي بعثه كثرتهم وانتصارهم الكبير بمكة، حتى قال بعضهم: لن نُغلب اليوم من قلة.

جيش الأعداء يُباغت جيش المسلمين

وقد أراد الله ﷻ أن يُعطي الدرس لهؤلاء الذين أعجبتهم كثرتهم، وأصابهم الزهو، أراد أن يُعلمهم ألا يركنوا إلى قوتهم وكثرتهم، وأن النصر بيد الله. فكان الدرس ولو بصدمة سريعة شافية.

وفوجئ جيش المسلمين بما لم يكن يتوقع؛ حيث انهالت عليهم نبال العدو الذي كان قد كمن لهم في عماية الصبح. وكانت المفاجأة المذهلة التي جعلتهم يُهرعون بعيداً لا يلوي أحدٌ على أحد.

ثبات رسول الله ﷺ وقوة عزيمته

ولما رأى رسول الله ﷺ ما أحدثه الهجوم الخاطف بالمسلمين، فعلا صهوة بغلته البيضاء وصاح: «إني أيها الناس إلي». ويندفع ببغلته في هذا السيل الدافع من رجال العدو، وهو يقول:

«أنا النبي لا كذب.. أنا ابن عبد المطلب»، ولم يكن حول رسول الله ﷺ سوى أبي بكر وعمر، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد، وقلة أخرى من الأصحاب.

نداء العباس ورجوع المسلمين

ووسط هذا الموقف العصيب، كان العباس إلى جوار رسول الله ﷺ أخذًا بخطام بغلته. فأمره رسول الله ﷺ أن يصرخ في الناس، وكان العباس جسيماً جهوري الصوت - كما أسلفنا - فراح ينادي: يا معشر الأنصار.. يا أصحاب الشجرة - يقصد الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة - . وظل هكذا ينادي وصوته يتردد في جنبات الوادي. كأنما كان صوته داعي القدر ونذيره، فما كاد يقرع أسماع هؤلاء الفارين من هول المفاجئة، حتى أجابوا: لبيك لبيك.. وانقلبوا راجعين كالإعصار، ودارت الحرب من جديد وصاح رسول الله ﷺ: «الآن حمى الوطيس».

ودارت الدائرة على هوازن وثقيف، ومن تبعهم، وكان نصر الله للمؤمنين.

عتاب الله لمن أعجبتهم كثرتهم

وفي تلك الواقعة نزل قوله تعالى واصفاً هذا التطور في المعركة وعاتياً على من أعجبتهم كثرتهم: **{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَدَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [التوبة: ٢٥-٢٦].**

٦- وفاة رسول الله ﷺ

ويأتي اليوم الذي فُجِعَ فيه المسلمون بوفاة رسول الله ﷺ، وقد حزن العباس حزناً كبيراً على رسول الله ﷺ، فقد كان الوحيد من أعمام رسول الله ﷺ الذي شهد وفاته. وقام بغُسْله ودفنه مع بعض من أهل بيت رسول الله ﷺ.

٧- ساقى الحرمين

وفي عام الرمادة، حين أصاب العباد والبلاد قحط شديد؛ خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والمسلمون معه إلى الفضاء الرحب يُصلون صلاة الاستسقاء.

ووقف عمر وقد أمسك بيمين العباس ورفعها صوب السماء وقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فتنسقيننا، وإنا اليوم نتوسل إليك بعمّ نينا فاسقنا». فرفع العباس يده متضرعاً إلى الله، وقال: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يُكشَف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث».

فلم يغادر المسلمون مكانهم حتى جاءهم الغيث، وهطل المطر حتى أخضبت الأرض، فأقبل الأصحاب على العباس يعانقوه وهم يقولون: هنيئاً لك «ساقى الحرمين».

الفصل الأخير

ويعيش العباس عمراً مديداً، وينجب ذرية مباركة، وكان حَبْر الأمة «عبد الله بن العباس» واحداً من هؤلاء الأبناء المباركين.

يعتق ٧٠ مملوكاً

ولما دنا أجل العباس، وقبل أن يخرج من هذه الدنيا، أعتق ٧٠ مملوكاً راغباً فيما عند الله تعالى.

رحم الله من شهد العباس بن عبد المطلب

وفي يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رجب، سنة اثنين وثلاثين من الهجرة سمع أهالي المدينة منادياً ينادي: يا أهل المدينة، رحم الله من شهد العباس بن عبد المطلب؛ فأدركوا أن العباس قد مات. وخرج لتشيعه أعداد هائلة لم تعهد المدينة مثلها، وصلى عليه خليفة المسلمين يومئذ «عثمان بن عفان»، ودُفن بالبقيع.

فرحمة الله وبركاته عليك يا عم الرسول

يا ساقى الحرمين

ورضى الله عنك وأرضاك أبا الفضل «العباس بن عبد المطلب»

صهيب الرومي

ومع ريحانة أخرى من رياحين الصحبة العطرة، فلنعيش اللحظات القادمة..

إنه مَنْ شَرَى نفسه ابتغاء مرضات الله، وضَحَّى بكل ما يملك ليفوز بصحبة الحبيب.

إنه مَنْ ربحت تجارته مع الله، وهو مِنَ السابقين الأولين للإسلام.. إنه صهيب بن سنان «صهيب الرومي».

نسبه ونشأته

هو صُهَيْب بن سنان بن مالك النُميري، وأمه من بني تميم. أما عن انتسابه للروم فلذلك قصة فيها عبرة؛ فقد نزع أبوه «سنان بن مالك» من مكة إلى بلاد العراق قبل الإسلام بزمان طويل، وعاش بها وكَبُرَ مقامه هناك حتى إنه وقبل الإسلام بحوالي عقدين تولى الأبله، وأصبح حاكمًا عليها من قِبَل «كسرى» ملك الفرس.

وفي أحضان النعيم، وفي قصره القائم على شاطئ الفرات وُلِدَ له «صُهَيْب»

الذي كان أحبَّ الأولاد إلى أبيه.

من النعيم إلى العبودية

ولما بلغ صُهيب سن الخامسة من عمره، وبينما هو يعيش في تلك السعادة وذلك النعيم. فإذا بأمه تخرج به ومعها الحرس والخدم إلى قرية «الثني» للنزهة. وبينما هم في نزهتهم، تعرضت البلاد لهجوم الروم، وأغارت سرية من سرايا الروم على القرية التي كانوا بها يتنزهون، فقتلت الحراس، ونهبت الأموال، وأسرت الذراري، وكان من جملة من أسرتهم «صُهيب»، وبيع صُهيب في سوق الرقيق ببلاد الروم، ليتحول من النعيم إلى عبودية الرق، فجعلت تتداوله الأيدي من خدمة سيد إلى خدمة آخر.

ويمضي صُهيب طفولته كلها وصدراً من شبابه في بلاد الروم، حتى أخذ لسانهم ولهجتهم، وأتاح ذلك له أن ينفذ في أعماق المجتمع الرومي، وأن يرى ما به من الرذائل والموبقات.

الهروب من ذلّ العبودية

ورغم مُقام صُهيب في بلاد الروم وبين أهلها، إلا أنه لم تفتّر أشواقه إلى اليوم الذي يتحرر فيه من عبوديته ويلحق بموطنه الأصلي ببلاد العرب.

وقد زاده حيناً إلى بلاد العرب، أنه سمع كاهناً من كهنة النصارى، وهو يقول لسيد من أسياده: «لقد أطل زمان يخرج فيه من مكة في جزيرة العرب نبي يُصدِّق رسالة عيسى ابن مريم، ويُخْرِجُ الناس من الظلمات إلى النور». فلما أتتحت الفرصة لصُهب ولى هارباً من ذلَّ العبودية، ويمّم وجهه شطر مكة. وما أن وصل إلى هناك وراه الناس حتى أطلقوا عليه «صُهب الرومي»، لِلْكِنَةِ لسانه وُحْمرة شعره. فقد كان صُهب أزهر الوجه، أحمر الشعر، متوسط الطول، وكان حسن الشكل والثياب.

حلف مع عبد الله بن جُدعان

ولما استقر المقام بمكة حالف صُهبُ سيداً من ساداتها هو «عبد الله بن جُدعان»، وظل يعمل معه في التجارة إلى أن أصبح عنده ثروة كبيرة. وفي بعض الروايات: أنه يبيع إلى عبد الله بن جُدعان، الذي ما لبث أن أعجب بذكائه ونشاطه فأعتقه وهيأ له فرصة الاتجار معه. وعلى كل الأحوال فقد أصبح لصُهب تجارة عريضة أدت عليه ثروة كبيرة.

إسلامه

رغم ازدهار تجارته وزيادة مكاسبه، إلا أن كلام الكاهن النصراني الذي

سمعه صُهَيْب وهو في بلاد الروم وما بَشَّر به من ظهور النبي الذي أطل زمانه ما يزال يرنُّ في آذانه، ويهز فؤاده. وجعل يترقب في لهفة تحقيق هذه النبوءة. وما هو إلا قليل حتى أشرقت الأرض بنور الإسلام.

في دار الأرقم بن أبي الأرقم

وفي ذات يوم يعود صُهَيْب إلى مكة من إحدى رحلاته، فقيل له: إن محمد بن عبد الله قد بُعث وقام يدعو الناس إلى عبادة الله وحده، وينبذ عبادة الأصنام، ويَحُضُّ على العدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر. فقال: أليس هو الذي يُلقَّب بالصادق الأمين؟ قيل: بلى. وفي الصباح وقبل أن تدبَّ الحياة في مكة، كان صُهَيْب مُيمِّمًا وجهه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم، لما عرف أن بها مقام رسول الله ﷺ، ومضى إلى هناك حذرًا أن يراه أحد من قريش.

ولما بلغها وجد عند الباب صديقه «عمار بن ياسر»، فتردد لحظة، ثم دنا منه، وقال: ما تُريد يا عمار؟

فقال عمار: بل ما تُريد أنت؟

قال صُهَيْب: أردت أن أدخل على هذا الرجل فأسمع منه ما يقول.

قال عمار: وأنا أريد ذلك أيضًا.

فقال صُهَيْب: إذا ندخل معًا.

ويدخل صُهَيْب وعمار معًا على رسول الله ﷺ، فعرض عليهما الإسلام فأسلما.

ثم مكثا اليوم كله ينهلان من هدى رسول الله ﷺ حتى أمسيا.

وفي جُح الليل خرجا من عند رسول الله ﷺ مستخفيان، وقد ملأ قلبهما نور الإيمان.

السابقون السابقون

ويخرج صُهَيْب من دار الأرقم وبعد لقاء رسول الله ﷺ، وقد أخذت علاقته بالناس وبالدينا وبنفسه طابعًا جديدًا.

وبنفس زاهدة متفانية يُقبل على الحياة التي أصبحت ذات عمق ومغزى. ولم يكتفِ صُهَيْب بإعلان إسلامه بين يدي رسول الله ﷺ، ولكنه أراد أن يُعلنها مُدوية لتقرع آذان المشركين، فكان من أوائل الذين أظهروا إسلامهم.

يقول ابن مسعود: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار بن ياسر، وأمه سُمَيَّة، وصُهَيْب، وبلال، والمقداد.

فها هو صُهَيْب في الطليعة من السابقين السابقين، ليس في إسلامه فحسب، بل في إظهار إسلامه أيضًا.

فحينما يُذكر أن إنساناً من القمم الأوائل في أي مجال من المجالات، علم، رياضة.. وخلافه فكم من العز والفخر يناله هذا الذي نال ذلك الشرف، وتبوأتلك المكانة!!
 فطوبى لصَّهيب هذا السبق؛ وذلك التفوق الذي جعله من الأوائل السابقين.

الصبر على الأذى

لكنَّ هذه الشجاعة في إظهار إسلامه، لم تكن بالأمر الهين، فقد نال من أذى قريش ما نال مع بلال وعمار وُسَمية، وغيرهم من المستضعفين. لكنه صبر على هذا الأذى راضياً بقضاء الله راغباً فيما عنده؛ لأنه كان يعلم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره.

ربح البيع أبا يحيى!

ويأتي يوم الهجرة لينال صَّهيبٌ منقبةً لا يعدلها ملء الأرض ذهباً. فلما خرج رسول الله ﷺ في صحبة أبي بكر للهجرة، علم بها صَّهيب، فأراد أن يكون في صحبة رسول الله ﷺ وأبي بكر. لكنَّ قريشاً شعرت بعزمه على الهجرة، فصدَّته عن غايته، وأقامت عليه الرقباء حتى لا يُفلت من أيديهم.

شغله الله عنكم ببطنه

ولما كانت أعين الرقباء ساهرة عليه متيقظة له، فلم يجد سبيلاً غير اللجوء إلى الحيلة. ففي ذات ليلة باردة، أكثر صُهيب من الخروج إلى الخلاء كأنه يقضي الحاجة، فكان لا يرجع من قضاء حاجته حتى يعود إليها. فقال بعض رقبائه لبعض: طيبوا نفساً، فقد شغله الله عنكم ببطنه، ثم آووا إلى مضاجعهم، فتسلل صُهيب من بينهم ويَمَم وجهه شطر المدينة.

أرأيتم إن تركت لكم مالي أتخلون سبيلي؟

ولم يمض غير قليل على رحيل صُهيب، حتى فطن له رقباءؤه. فأرسلوا في أثره رجالهم فأدركوه. فلما أحس بهم وقف على مكان عالٍ، وأخرج سهامه من كنانته، وقال: يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرمى الناس وأحكمهم إصابة. والله لا تصلون إليّ حتى أقتل بكل سهم معي رجلاً منكم، ثم أضربكم بسيفي حتى لا يبقى في يدي منه شيء، فأقدموا إن شئتم. فلما أحسوا أن لا طائل من منعه من الهجرة، رأوا ألا يتركوه يخرج بهاله.

فقال قائل منهم: والله لا ندعك تفوز منا بنفسك وبهالك، لقد أتيتنا صعلوكاً فقيراً، فكثير مالك عندنا وبلغت ما بلغت.

فقال صُهيب: أرأيتم إن تركت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟

قالوا: نعم.

فدلَّهم على موضع ماله في بيته بمكة، فتركوه وشأنه، وعادوا إلى مكة ليأخذوا ماله؛ حيث دهم على مكانه.

تلاميذ الصادق الأمين

ومن العجيب أنهم صدَّقوا قوله في غير شك ومن غير حذر، فلم يُبقوه حتى يتأكدوا من صحة كلامه، أو حتى يستحلفوه على صدق قوله. إلا أنهم صدَّقوا ما قاله دون قيد أو شرط. فقد كان في أعينهم رجلاً صادقاً أميناً. ولم لا؟ وهو من أتباع وتلاميذ الصادق الأمين عليه السلام.

المنقبة العظمى

ويبدأ ضُهيب رحلة هجرته، يطوى الأرض طياً؛ شوقاً لرسول الله صلى الله عليه وآله، فأراً بدينه، غير آسف على المال الذي سلب منه والذي أنفق في جمعه زهرة عمره. ولما بلغ قباء أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله هناك. فما أن رآه رسول الله صلى الله عليه وآله مقبلاً عليه حتى ناداه مهنتاً: «ريح البيع أبا يحيى.. ريح البيع أبا يحيى!!» كرها ثلاثاً. فعلت الفرحة وجه ضُهيب، وقال: والله ما سبقني إليك أحدٌ وما أخبرك إلا جبريل. وينال ضُهيب المنقبة العظمى، وينزل فيه قوله تعالى: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}** [البقرة: ٢٠٧].

أجل، لقد اشترى ضُهيب نفسه المؤمنة بكل ثروته التي أنفق في جمعها

عمره. فما كنوز الدنيا تعادل مرضاة الله والقرب من رسول الله ﷺ!

في صحبة رسول الله ﷺ

ويأخذ صُهييب مكانه في قافلة المؤمنين، وينعم بصحبة رسول الله ﷺ.

يقول صُهييب عن صحبته لرسول الله ﷺ، وولائه العظيم له:

- «لم يشهد رسول الله ﷺ، مشهداً إلا كنت حاضره.

- ولم يُبايع بيعة إلا كنت حاضرها.

- ولم يسر سرية قط إلا كنت حاضرها.

- ولا غزا غزاة قط في أول الزمان وآخره، إلا كنت فيها عن يمينه أو شماله.

- وما خاف المسلمون أمامهم قط، إلا كنت أمامهم، ولا خافوا وراءهم

قط إلا كنت وراءهم.

- وما جعلت رسول الله ﷺ، بيني وبين العدو قط حتى لقي ربه».

فهذه صورة باهرة لإيمان فذّ وولاء عظيم.

إني أكل بعيني الأخرى

لقد كان رسول الله ﷺ يحب صُهييباً حباً كبيراً. وكان صُهييب إلى جانب

ورعه وتقواه، كان خفيف الظل.

فقد رآه رسول الله ﷺ يوماً يأكل رطباً، وكان بإحدى عينيه رَمَد، فقال له رسول الله ﷺ ضاحكاً: «تأكل الرطب وفي عينك رمد؟»؛ فأجابه قائلاً: إنها آكله على شق عيني الأخرى. فضحك رسول الله ﷺ.

وفاة رسول الله ﷺ

ويظلُّ صُهب يعمل في خدمة دينه ورسوله، بكل ما يملك من قوة ويُنفق في سبيل الله. فقد كان جواداً معطاءً، يُعين كل محتاج ويُغيث كل مكروب. وظل هكذا حتى مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنه.

لِيُصَلَّ بالناسِ صُهب

وتمضي الأيام، ويبقى صُهباً على عهده ووعده في خدمة دينه أثناء خلافة أبي بكر، ومن بعده عمر بن الخطاب.

ولما طعن عمر وأحسَّ بنهاية الأجل، لم ينسَ قدر صُهب فاختره ليصلي بالمسلمين إلى أن يتفق أهل الشورى على إمام، فقال: «وليُصَلَّ بالناسِ صُهب». وإنما لشهادة عظيمة من الفاروق لصُهب، فإن عمر وخصوصاً في تلك اللحظات التي تتهاى فيها روحه الطاهرة للقاء ربه، ليستأنى ألف مرة قبل أن يختار. فإذا اختار فلا أحد أوفر حظاً ممن يقع عليه اختيار الفاروق في

تلك اللحظات.

وظل صُهب يصلي بالناس إلى أن اتفق أهل الشورى على إمام المسلمين.
واستمر صُهب يحتل مكانة عظيمة في خلافة عثمان، وي بذل كل الجهد في
سبيل الله.

الفصل الأخير

وظل صُهب يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله وعمله الصالح ابتغاء
مرضات الله، وشهد فضل الله على المؤمنين، وقد أعزَّهم، وأتمَّ نعمته
عليهم. فحُطِّمَت قلاع الكفر في بلاد فارس والروم. فشعر بالطمأنينة
تستقر في أعماقه، وسرَّ بفضل الله عليه وعلى المؤمنين. ولما كانت الفتنة كان
صُهب ممن اعتزلوها.

وبعد حياة مليئة بالعطاء، وبعدهما قارب عمره السبعين عامًا؛ فاضت روحه
الطاهرة إلى بارئها ومات بالمدينة في شهر شوال سنة ٣٨ هجرية.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من ربحت تجارته مع الله.

ورضي الله عنك وأرضاك يا أبا يحيى «صهيب الرومي».

زيد بن ثابت

وها نحن أعزائي على موعد مع هذا الصحابي الجليل، وزهرة من أزاهير تلك «الصحبة العطرة»، قد استعمله الله ﷺ في حفظ كتابه الكريم. فما من مسلم يفتح المصحف، ويقرأ سورة أو آية من كتاب الله إلا ويدين بالشكر والعرفان لهذا الاسم الكبير، وما من آية تُقرأ في كتاب الله ليلاً أو نهاراً إلا كان ذلك في ميزان حسنات هذا الصحابي الجليل.

إنه كاتب الوحي، جامع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان، إنه الإمام الكبير شيخ المقرئين «زيد بن ثابت» رضي الله عنه.

إسلامه

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، أسلم زيد وهو ابن إحدى عشرة سنة مع المسلمين من أهله، وبورك بدعوة رسول الله ﷺ له.

بدر وأحد

لما كانت غزوة بدر، ورسول الله ﷺ يُعدُّ الجيش لملاقاة العدو فأقبل عليه

زيد بن ثابت، وكان فتى صغير لم يتم الثالثة عشر من عمره، وهو يتوهج ذكاءً ويتألق نجابةً وحميةً، ودنا من رسول الله ﷺ وقال: جُعلت فداك يا رسول الله، ائذن لي أن أكون معك، وأجاهد أعداء الله تحت رايتك. فنظر إليه رسول الله ﷺ نظرة سرور وإعجاب وربت على كتفه برفق وطيب خاطره، وصرفه لصغر سنه وجسمه.

وتأتي غزوة أُحُد، ويفشل زيد مرة أخرى في اللحاق بجيش المسلمين، ولنفس الأسباب التي حرمته من الاشتراك في غزوة بدر، وهي صغر سنه، وقلة حجمه وجسمه.

مواطن القوة

لما وجد الغلام الأنصاري زيد بن ثابت أنه أخفق في أن يحظى بالتقرب من رسول الله ﷺ في مجال الحرب والقوة لصغر سنه وقلة جسمه. أخذ ينظر في نفسه عن مواطن القوة الكامنة فيه، وكيف يُسخرها لخدمة دين الله، والتقرب من رسول الله ﷺ.. فإذا به يجد ضالته، فقد رأى أن الله امتنَّ عليه بنعمة الحفظ والذاكرة المتوقدة، وحب العلم والإقبال على تحصيله، فرأى أن ذلك قد يقربه من رسول الله ﷺ ويُدنيه منه. فذكر ذلك لأمه التي فرحت وسعدت فأخبرت رجالاً من قومها.

رسول الله ﷺ يستمع لزيد

ويمضي زيد مع رجال من قومه إلى رسول الله ﷺ، فلما دخلوا عليه قالوا: يا رسول الله، هذا ابننا غلام من بني النجار، حفظ سبع عشرة سورة من كتاب الله، ويتلوها كما أنزلت على قلبك. وهو كذلك يجيد القراءة والكتابة، ويريد أن يتقرب بذلك إليك وأن يلزمك. فاسمع منه إن شئت. فسمع رسول الله ﷺ من زيد بعضاً مما يحفظ، فإذا هو مُشرق الأداء، مُبين النطق، وكانت تلاوته تنمُّ على تأثيره بما يتلو، ووقفاته تدل على وعي لما يقرأ وحسن فهم لمعانيه.

مترجم رسول الله ﷺ

فَسَّرَ رسول الله ﷺ بما سمع من زيد، ووجد فيه فوق ما وصفوه. وزاده سروراً إتقانه الكتابة. فالتفت رسول الله ﷺ إلى زيد، وقال له: « يا زيد تعلَّم لي كتابة اليهود - يقصد العبرية - فإني لا آمنهم على ما أقول »، فقال: لبيك يا رسول الله.

وانكبَّ الفتى النجيب ليتعلم العبرية، وفي أقل من نصف شهر يعود بين يدي رسول الله ﷺ باللغة العبرية، وقد أتقنها قراءة وكتابة. فلما رآه رسول الله ﷺ، وقد أنجز هذا الإنجاز فسأله: «أتحسن السريانية؟» فقال: لا. قال: «فتعلمها».

وكما تعلم زيد العبرية في أسبوعين، تعلم السريانية في سبعة عشر يوماً. ويعود إلى رسول الله ﷺ مُتَقَنَّاً تلك اللغات لينال ثقة رسول الله ﷺ، وأصبح مترجم رسول الله ﷺ يكتب له إذا أراد أن يكتب لليهود وغيرهم، ويقرأ له إذا هم كتبوا له.

كاتب الوحي

وبعد فترة يسيرة ولما استوثق رسول الله ﷺ من رصانة زيد وأمانته وفهمه للنصوص، ائتمنه على رسالة السماء للأرض، فجعله كاتباً للوحي. فكان إذا نزل شيء من القرآن على قلب رسول الله ﷺ بعث إلى زيد يدعوه، ويقول له: «اكتب يا زيد» فيكتب.

فإذا بزید يتلقى القرآن من فم رسول الله ﷺ غَضّاً رطباً، موصولاً بأسباب نزوله؛ فتشرق نفسه بأنوار هدايته، ويستنير عقله بأسرار شريعته. وهكذا يتخصص هذا الفتى المحظوظ زيد بن ثابت بالقرآن الكريم.

ويصبح هو المرجع الأول فيه بعد وفاة رسول الله ﷺ.

درس نتعلمه

ولنا هنا وقفة: فلقد وهب الله ﷺ كل إنسان منا موهبة وطاقة كامنة في مجال ما، وقد تكون موطن قوة لصاحبها، وهي غير منظورة له. فعلينا أن نبحث

جيداً داخل أنفسنا عن مواطن تلك القوة التي بداخلنا، وكيف نوظفها في خدمة ديننا، والتقرب بها إلى الله ورسوله. هذا هو الدرس الذي تعلمناه من هذا الصحابي الجليل «زيد بن ثابت» الذي فشل أن يكون جندياً في مجال القتال، فأصبح عالماً ومرجعاً هاماً للمسلمين لما عرف مواطن قوته ووظفها التوظيف الصحيح.

موقفه يوم السقيفة

ويظل زيد رضي عنه ملازمًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يكتب له الوحي، ويفعل كل ما يأمره به، حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راضٍ.

ويأتي يوم السقيفة حينما اجتمع المهاجرون والأنصار لاختيار خليفة للمسلمين، وكادت تحدث فتنة عظيمة بينهم؛ حيث قام خطباء الأنصار وقالوا للمهاجرين: رجل منا ورجل منكم، فقام زيد بن ثابت - وهو من الأنصار - فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من المهاجرين ونحن أنصاره، وإنما يكون الخليفة من المهاجرين ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال أبو بكر: جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار، وثبت قائلكم.

وهكذا وُثِدَتِ الفتنة قبل أن تبدأ، لما كان من حكمة وفطنة زيد بن ثابت رضي عنه.

جامع القرآن

وتأتى المنقبة العظمى لزيد بن ثابت والتي لا يعدلها ملء الأرض ذهبًا. ألا وهي دوره الكبير في أنبل المهام في تاريخ الإسلام كله «مهمة جمع القرآن».

* في عصر أبي بكر الصديق

لما قُتل عدد كبير من حفظة القرآن في حروب الردة، وخاصة في موقعة اليمامة، وهو ما أثار مخاوف عمر بن الخطاب، ففزع إلى الخليفة أبي بكر الصديق، راغبًا في إلحاح أن يأمر بجمع القرآن قبل أن يَحصد الموت يقيه القراء والحفظة. فاستخار الخليفة ربه وشاور صحبه، ثم دعا زيد بن ثابت، وقال له: «إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ؛ فتتبع القرآن فاجمعه».

لنقل جبلٍ من مكانه أهونُ عليَّ من جمع القرآن

ويبدأ زيد مهمته الشاقة التي كُلف بها، وقد أبلى بلاءً عظيمًا في إنجاز مهمته، فمضى يجمع الآيات من صدور الحفاظ، ومن مواطنها المكتوبة، ويتحرى كل كلمة وكل حرف، حتى جمع القرآن مرتبًا ومنسقًا في مصحف واحد. وظل هذا المصحف عند أبي بكر الصديق حتى توفاه الله. ثم عند عمر بن

الخطاب طول حياته، ثم من بعده عند أم المؤمنين «حفصة بنت عمر». يقول زيد بن ثابت وهو يصوّر صعوبة المهمة التي كُلف بها: «والله لو كلفوني نقل جبل من مكانه لكان أهون عليّ مما أمروني به من جمع القرآن».

* في عصر عثمان بن عفان

وفي خلافة عثمان بن عفان، لما زادت الفتوحات ودخل في الإسلام خلقٌ كثير، بدأت الألسنة تختلف على القرآن، وهو ما أفرّج كثيرًا من الأصحاب وعلى رأسهم «حذيفة بن اليمان»؛ فقال لعثمان: «يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى». فاستخار الخليفة ربه واستشار صحبه، وكما كان لزيد بن ثابت الدور الخالد في جمع القرآن في حياة أبي بكر كان له أيضًا دور عظيم في كتابة المصحف في عهد عثمان بن عفان.

فكما استنجد أبو بكر من قبل يزيد بن ثابت، استنجد به عثمان بن عفان. فجمع زيد أصحابه وأعوانه وجاءوا بالمصحف من بيت حفصة بنت عمر، وعكفوا عليه فنسخوه في المصاحف. وأرسل عثمان إلى كل إقليم بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه أن يُحرق. وهي المصاحف التي بين يدينا إلى اليوم.

فقد استعمل الله ﷺ هؤلاء الصحب الكرام، وفي طليعتهم «زيد بن ثابت» لحفظ كتاب الله.

فضله وعلمه

وبفضل القرآن وتفقهه فيه، وطول ملازمته لرسول الله ﷺ، أصبح زيد منارة المسلمين، وتبوأ مكاناً عالياً، وصار موضع احترام المسلمين وتوقيرهم. يستشيريه خلفاؤهم في العضلات، ويستفتيه عامتهم في المشكلات؛ خاصة أحكام المواريث.

وهاك بعض من أقوال رسول الله ﷺ وصحبه الكرام في فضله وعلمه:

* عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أفرض أمتي زيد بن ثابت» - أي: أعلمهم بعلم المواريث.

* يقول عمر بن الخطاب: «أيها الناس! من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه؛ فليأت معاذ بن جبل».

* وهذا خبر الأمة وبحر العلم عبد الله بن عباس يرى زيد بن ثابت وقد همَّ بركوب دابته، فوقف بين يديه يُمسك له بركابه، ويأخذ بزمام دابته. فقال له زيد تَنَحَّ يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: لا، فهكذا أمرنا نفعل بعلمائنا.

- * وعن ابن عباس قال: «لقد علم المحفوظون من أصحاب رسول الله ﷺ أن زيد بن ثابت من الراسخين في العلم.
- * وعن ثابت بن عبيد قال: «ما رأيت رجلاً أفكهُ في بيته، ولا أوقر في مجلسه من زيد بن ثابت».

الفصل الأخير

وبعد حياة طويلة مباركة مليئة بالبذل والتضحية والعلم والتعليم، نام زيد بن ثابت على فراش الموت، لتصعد روحه الطاهرة إلى بارئها. ليلحق برسول الله ﷺ مع النبيين والصديقين والشهداء.

ولما مات ﷺ بكى المسلمون بموته العلم الذي وُورِيَ معه:

* فقال أبو هريرة: «مات حَبْر هذه الأمة، ولعل الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفاً».

* وقال ابن عباس: «هكذا ذهاب العلماء؛ لقد دُفن اليوم علم كثير».

ويرحل زيد بن ثابت عن هذه الدنيا، وها نحن كلما قرأنا سورة أو آية من كتاب الله، لا نستطيع أن ننسى الصعوبات الهائلة التي عاناها هؤلاء الذين اختارهم الله لجمعه وحفظه وفي طليعتهم «زيد بن ثابت».

فرحمة الله وبركاته عليك يا كاتب الوحي وجامع القرآن.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «زيد بن ثابت».

سعد بن مُعاذ

دعونا أحبائي نستقبل هذه الريحانة من رياحين «الصحبة العطرة»؛ فإننا على موعد مع رجل أشرقت المدينة بإسلامه، فكان إسلامه فتحًا على المسلمين. وهو صاحب المواقف التي سَطَّرَتْ بأحرفٍ من نور في بدر وأُحد والأحزاب.

إنه من اهتز له عرش الرحمن؛ إنه البطل الشهيد «سعد بن معاذ»؛ رضي الله عنه.

نسبه

هو سعد بن مُعاذ بن النعمان بن عبد الأشهل. أبو عمرو الأنصاري الأوسي.

وصفه

كان «سعد بن معاذ رجلاً أبيض، فارع الطول، جسيماً، حَسَن الوجه.

إسلامه

كان «سعد بن معاذ» سيداً في قومه - بني عبد الأشهل -، ولما أرسل رسول

الله ﷺ مصعب بن عمير سفيراً للدعوة إلى المدينة؛ فأسلم خلق كثير على يديه، أما سعد فقد ظل على دين قومه.

مصعب في ديار بني عبد الأشهل

ويخرج يوماً مصعب بن عمير مع أسعد بن زُرارة - ابن خالة سعد بن معاذ - يريدان دار بني عبد الأشهل، ووصلا إلى بئر يُقال لها «بئر مَرَق»، واجتمع إليهما رجال كثير ونساء وأسلم منهم خلق كثير.

فلما سمع بهما سعد بن معاذ وأُسيد بن حُضير، وكانا ما يزالان على دين قومهما، فقال سعد لأُسيد: اذهب وانهما عن أن يأتيا ديارنا، فإن أسعد بن زُرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا. ويأخذ أُسيد حربته ويتوجه إليهما، ولما وصل وقف مُتثتمًا. فقال له مصعب: أو تجلس فتستمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كففتنا عنك ما تكره.

وما أن جلس أُسيد وسمع من مصعب حتى عُرف الإسلام على وجهه فبل أن يتكلم، وأسلم أُسيد.

جاءك سيّد من وراءه قومه

وينصرف أُسيد متوجهًا إلى سعد بن معاذ، فقال له: كلمت الرجلين، فوالله

ما رأيت بهما بأسًا. فقام سعد مُغاضبًا وأخذ حربته وخرج إليهما، ولما وصل وقف مُتشتِّمًا. وقال لأسعد بن زُرارة: يا أبا إمامة، والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟
فهمس أسعد بن زُرارة قائلاً لمصعب: جاءك والله سيد من وراءه قومه، إن يتَّبِعك ما تخلف عنك منهم اثنان.

نفحات الإيمان تُشرق في قلب سعد

فقال مصعب لسعد: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟
فقال سعد: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، فتحدث إليه مصعب بأسلوبه العذب الراقى، وعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن. وتُشرق نفحات الإيمان في قلب سعد بن معاذ، ويُعرف الإسلام على وجهه قبل أن يتكلم. وما أن انتهى مصعب من حديثه حتى قال له سعد: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قال: تغتسل وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. فقام سعد واغتسل وطهَّر ثوبه، ثم ركع ركعتين، وعاد إلى قومه.

إسلام بني عبد الأشهل

ولما رآه قومه مقبلاً قالوا: والله، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالو: سيدنا وأفضلنا رأياً. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة. وبإسلام سعد وقومه من بعده تُشرق في المدينة شمس جديدة تدور في فلكها قلوب كثيرة تُسلم لله رب العالمين. ويتنظر سعد والمسلمون في المدينة في شوق ولهفة وصول الحبيب ﷺ إلى مدينتهم.

أعماله ومناقبه

وأسلم سعد ومن وراءه قومه والمدينة كلها. ويحمل سعد تبعات إسلامه في بطولة وعظمة وشموخ. وما أن وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة، واكتحلت عين سعد برؤية الحبيب فأحبه حباً جمّاً، جعله يتمنى أن يفديه بنفسه وماله. فكانت دور بني عبد الأشهل مفتحة الأبواب لرسول الله ﷺ والمهاجرين معه. وكانت أموالهم وكل ما يملكون تحت تصرّفهم من غير مَنْ ولا أذى. وكان لسعد بن معاذ من المواقف ما يُكتب بأحرف من ذهب.

نلخصها فيما يلي:

١ - موقفه من كفار قريش

لقد كان سعد قوياً في دين الله، جريئاً على أعداء الله، فبعد هجرة رسول الله ﷺ انطلق إلى مكة معتمراً، فنزل على صديقه «أمية بن خلف»، فخرج معه إلى البيت الحرام ليطوف به، فلقيهما أبو جهل، فقال لسعد: ألا أراك تطوف بمكة آمناً، وقد آوitem الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتُعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان - يقصد أمية بن خلف - ما رجعت إلى أهلك سالماً.

وهنا تظهر شجاعة وجراءة سعد، فرد بصوت عالٍ على أبي جهل، وقال: أما والله لئن منعني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه؛ طريقك على أهل المدينة - يقصد طريق تجارتهم إلى الشام -، فُبِئت أبو جهل ولم يرد.

٢ - موقفه يوم بدر

ويأتي يوم بدر ليسجل سعد بن معاذ موقفاً تاريخياً ومحورياً في هذه الموقعة. فلما تحول الموقف يوم بدر من مجرد الحصول على العير إلى قتال بين المسلمين والمشركين، وعلم رسول الله ﷺ، بخروج قريش في عدد وعُدّة لم

تكن في الحسبان، فأراد رسول الله ﷺ أن يعرف رأي أصحابه قبل الدخول في تلك المعركة الحاسمة.

فتكلم أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، وكذلك المقداد ابن عمرو، وكلهم من المهاجرين. فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأي الأنصار، وخاصة أن نصوص بيعة العقبة لم تكن تُلزمهم بالقتال خارج ديارهم.

لو خضت البحر لخضناه معك

فقال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، وإنما يريد الأنصار. ففطن إلى ذلك قائدهم وحامل لوائهم «سعد بن معاذ»، فقال: والله لكأنك تُريدنا يا رسول الله. فقال: «أجل» فقال: «يا رسول الله، لقد آمنا بك فصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا. فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوًّا غدًّا، إنا لصبرٌ على الحرب، صدقٌ في القتال، ولعل الله يُريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله».

فكان موقف سعد هذا نقطة تحول في سير المعركة، فأهلت كلماته

كالبُشريات وتألقت وجه رسول الله ﷺ رُضًا وسعادة وغبطة. وقال: «سيروا وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

وكانت المعركة، وكان نصر الله المبين لرسول الله ﷺ، والذين آمنوا معه.

٣- موقفه يوم أحد

لما خالف الرماة أوامر رسول الله ﷺ، ودارت الدائرة على المسلمين، وتشتموا تحت وقع المباغته التي فاجأهم بها جيش المشركين. وهجم الكفار على رسول الله ﷺ بغية قتله، فثبت سعد بن معاذ بجوار رسول الله ﷺ، يزود عنه، ويدافع في استبسال هو له أهل وبه جدير.

٤- مواقفه في غزوة الخندق

وتأتي غزوة الخندق التي تكالبت فيها قوى الشر من قريش، وأحزابها مع اليهود، وقاموا بغزو المدينة، وكادوا يقتلعوا المدينة بمن فيها، لولا فضل الله وحفظه لرسول الله ﷺ وللمؤمنين معه. فكانت فكرة حفر الخندق التي أذهلت الكفار ووقفوا أمامه مخذولين.

والله لا نعطيهم إلا السيف

وفي هذه المعركة تجلّت رجولة وبطولة سعد بن معاذ تجلياً باهراً ومجيداً. فلما كانت غطفان أكبر حليف لقريش، فكّر رسول الله ﷺ أن يعزل غطفان عن قریش وبذلك ينقص الجيش المهاجم بنصف عدده ونصف قوته. فراح رسول الله ﷺ يتفاوض مع زعماء غطفان على أن ينسحبوا من هذه الحرب ويعطيهم مقابل ذلك ثلث ثمار نخل المدينة.

ووافق زعماء غطفان، وقبل أن يُسجّل هذا الاتفاق في وثيقة مهورية، استشار رسول الله ﷺ السعدين - سعد بن معاذ وسعد بن عبادة-؛ فهما زعماء الأنصار. فلما عرض عليهما الأمر، سألا السعدان رسول الله ﷺ: أهذا رأيي تختاره أم وحيي أمرك الله به؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل أمر أختاره لكم، فوالله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمرٍ ما».

هنالك قال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم -يقصد غطفان - مع الشرك وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرى - أي: كرمًا وضيافة - أو بيعًا. أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة.

والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.
وعلى الفور عدل رسول الله ﷺ عن رأيه، وخرج سعد بن معاذ على زعماء غطفان، وقد رفع صوته في تحد قائلًا: ارجعوا فليس بيننا وبينكم غير السيف.

فيا لها من شجاعة وعزة بالله وبدينه وبرسوله. فوسط هذا الكرب والحصار الشديد، وقد بلغت القلوب الحناجر نجد هذه الكلمات تخرج من قلب سعد بن معاذ لتعلن عن رجولة وشجاعة.. ويدهش سادة غطفان، ويُعلمهم سعد أن الذي يصنع النصر هو قوة العقيدة والإيمان بالله وحده.

غدر بني قريظة

لما طال الحصار بلا طائل وتسربت روح الهزيمة في نفوس الأحزاب، فخشي زعماء اليهود الذين ألبوا الأحزاب وخططوا لهذه المعركة، خشوا من مغبة الانسحاب والانهزام. فراحوا يُغامرون بآخر سهم عندهم، وهو تحريض بني قريظة، وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق. ونجحوا في تحريضهم لينضموا إلى الكفار والمشركين لمحاربة رسول الله ﷺ. ووضعوا خلتهم على أن يقوم يهود بني قريظة بالتخريب من داخل المدينة وحوها في الوقت الذي يباغتها فيه جيوش الأحزاب.

ولما علم رسول الله ﷺ بالمؤامرة أرسل السعدين - سعد بن معاذ وسعد بن عبادة - إلى زعماء بني قريظة ليتبينوا حقيقة الموقف. فلما التقوا مبعوثا رسول الله ﷺ بزعماء بني قريظة وجدوهم على أخبث ما يكونون، فقد جاهروا بالسبِّ والعداوة للمسلمين، وقال زعيمهم: من رسول الله؟، لا عهد بيننا وبينكم، وعاد السعدان ليخبرا رسول الله ﷺ بما سمعا من بني قريظة.

اللهم اجعل ما أصابني سبيلاً للشهادة

وتشهد المدينة حصاراً رهيباً، ويلبس المسلمون لباس الحرب، وفي إحدى الجولات يتلقى سعد سهماً قذف به أحد المشركين فأصاب ذراعه، فتدفق الدم من وريده، وأسعف سريعاً، إسعافاً مؤقتاً ليوقف نزيف دمه. وأمر رسول الله ﷺ به أن يُحْمَل إلى المسجد؛ حيث نُصبت خيمة لتمرير الجرحى.

وَحْمَل سعد إلى مكانه في مسجد رسول الله ﷺ، وهناك رَفَع سعد بصره إلى السماء وقال: «اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعل ما أصابني سبيلاً للشهادة. ولا تُمتني حتى تفر عيني من بني قريظة».

٥- موقفه في غزوة بني قريظة

وتنتهي غزوة الأحزاب بنصر الله للمؤمنين، وترحل قريش وأحزابها عن المدينة مهزومين مخذولين بعد أن فشلت مكيدتهم مع بني قريظة ضد رسول الله ﷺ.

حصار بني قريظة

ولما رجع رسول الله ﷺ من المعركة، وضع السلاح واغتسل، فأناه جبريل فقال له: قد وضعت السلاح؟ والله، ما وضعت الملائكة السلاح بعد. إنَّ الله يأمرك بالمشير إلى بني قريظة.

فخرج رسول الله ﷺ والمسلمين معه إلى بني قريظة، وحاصروهم خمسة وعشرين ليلة، وهم في حصونهم، حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وتقدموا إليه برجاء أن يُحْكَمَ فيهم واحدًا من حلفائهم. فعرض عليهم رسول الله ﷺ أن يختاروا من شاءوا من حلفائهم.

تحكيم سعد بن معاذ

اختار بنو قريظة «سعد بن معاذ» - وهو سيد الأوس وحليفهم في الجاهلية - وكان الله أعمى بصائرهم فأنسأهم مقدم سعد إليهم أول نقضهم

عهدهم وتحذيره إياهم، وسبَّهم لرسول الله ﷺ.
 فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ، وكان بالمدينة لم يخرج معهم
 للجرح الذي أصابه - كما أسلفنا - فأركب حماراً، وجاء إلى رسول الله ﷺ،
 فلما رآه بنو قريظة قادمًا جعلوا يقولون: يا سعد، أجمل في مواليك، فأحسن
 فيهم. فلما أكثروا عليه قال لهم: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.

حكمة بحكم الله

وأراد سعد أن يستوثق من الجميع ويأخذ عليهم العهد بأن حُكمه إذا صدر
 يكون غير قابل للنقض أو النقاش. فالتفت إلى ناحية بني قريظة، وقال:
 عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت؟ قالوا: نعم. ثم التفت إلى
 الجهة التي فيها رسول الله ﷺ وقال: وهو غاض طرفه إجلالاً وإكباراً:
 وعلى من هنا؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقال سعد: حكمت فيهم أن
 يُقتل مقاتلوهم، وتُسبى النساء والذراري، وتُقَسَّم الأموال.
 فلما نطق سعد بالحكم، قال له رسول الله ﷺ: «حكمت فيهم بحكم الله من
 فوق سبع سموات يا سعد». وهكذا كان عقاب بني قريظة على «الخيانة
 العظمى»؛ كما نقول في أيامنا هذه.

الفصل الأخير

الله يستجيب لسعد

ويستجيب الله ﷺ لسعد بن معاذ، فتكون هذه هي آخر غزوات قريش على المدينة. يقول رسول الله ﷺ بعد غزوة الأحزاب: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزوهم». ويكون جرح سعد هذا هو سبيله إلى الشهادة، وذلك بعد أن قرَّت عينه من بني قُريظة. فبعد هذا الحكم يعود سعد إلى المدينة؛ حيث كان يُعالج من جُرحه في مسجد رسول الله ﷺ، لكن الجهد الذي بذله جعل جُرحه يزداد خطورة وتدهورت حالته بشكل كبير.. وبدأ الاستعداد للرحيل.

في لحظات الوداع

ويدخل رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر على سعد لعيادته، فألفاه يعيش في لحظات الوداع، فأخذ رسول الله ﷺ رأسه في حجره، وابتهل إلى الله قائلاً: «اللهم إن سعداً قد جاهد في سبيلك، وصدق رسولك، وقضى الذي عليه، فتقبل روحه بخير ما تقبلت روحاً».

فهطلت كلمات رسول الله ﷺ على الروح المودعة برداً وسلاماً.

هنيئاً لك أبا عمرو !

ويحاول سعد جاهداً ويفتح عينيه راجياً أن يكون رسول الله ﷺ آخر ما تبصرانه في الدنيا.

فقال: السلام عليك يا رسول الله، أما إني لأشهد أنك رسول الله، والحمد لله أن كان آخر عهدي بالدنيا هو رؤية وجه رسول الله ﷺ..

وتفيض روحه الطاهرة إلى بارئها وهو في حجر رسول الله ﷺ.

فقال ﷺ: «هنيئاً لك أبا عمرو».

بكاء الصحابة

ويبكي الصحابة سعداً، فيقول أبو بكر: «وانكسار ظهره يا سعد». فقال له رسول الله ﷺ: «مهلاً أبا بكر»، وقال عمر: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

تقول السيدة عائشة: حضر رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر سعد بن معاذ وهو يموت في القبة التي ضربت عليه في مسجد رسول الله ﷺ، فوالذي نفس محمد بيده، إني لا أعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وإني لفي حجرتي، فكانا كما قال الله: {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: ٢٩].

ريح المسك يفوح من قبره

يقول أبو سعيد الخدري: «كنت ممن حفروا لسعد بن معاذ قبره، وكنا كلما

حفرنا طبقة من تراب، شممننا ريح المسك، حتى انتهينا إلى اللحد».

تحمله الملائكة ويهتز له عرش الرحمن

ويحمل القوم نعش سعد بن معاذ ليدفنوه، ولما انتهوا من دفنه قالوا لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، ما حملنا ميتاً أخفّ علينا منه» - رغم أنه كان جسيماً - فقال رسول الله ﷺ: «ما يمنعه أن يخف وقد هبط من الملائكة كذا وكذا، لم يهبطوا قبل يومهم هذا وقد حملوه معكم».

وفي رواية عن جابر قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ، فقال: من هذا العبد الصالح الذي مات؟ فتحت له أبواب السماء، وتحرك له عرش الرحمن؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن العرش اهتز لموت سعد فرحاً به».

مناديل سعد في الجنة

ويظل سعدٌ في ذاكرة رسول الله ﷺ وفي قلبه حتى انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

يقول البراء: «أهديت لرسول الله ﷺ حُلّة من حرير، فجعل أصحابه يمسونها، ويُعجبون من لينها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «أتعجبون من لين هذه المناديل؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة، خير منها وألين».

سبع سنوات مسلماً

لله دَرَك يا سعد بن معاذ؛ فقد أسلمت وعُمرِكَ ثلاثين عاماً، ومِتَّ وعُمرِكَ سبعة وثلاثين. فتلك سبع سنوات عشتها مسلماً، فأَيُّ الأعمال نلت بها هذا الشرف العظيم وتلك المنزلة العالية في سبع سنين فقط؟

- هل هو علو الهمة؟

- أم الإخلاص في العمل؟

- أم حُبك لرسول الله ﷺ؟

- أم كل هذه الخصال مجتمعة؟

يقول سعد بن معاذ: «ثلاثة أنا فيهن قوي وفيها سواهن ضعيف:

- ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتى أفرغ منها.

- ولا شيعت جنازة، فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة، وما هو مقول لها حتى يُفرغ من دفنها.

- وما سمعت رسول الله ﷺ يقول شيئاً إلا علمت أنه الحق».

فهنيئاً لك سعد بن معاذ ما صنعت، وهنيئاً لك ما نلت من رضى الله ورسوله.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من اهتز لموته عرش الرحمن

وحملته الملائكة.

ورضى الله عنك وأرضاك يا «سعد بن معاذ».

عبد الله بن مسعود

ما زلنا أعزائي نسعد بتلك الصحبة العطرة من «الصحب الكرام». وها نحن على موعد مع رجل كان من السابقين الأولين للإسلام، رجل كان رسول الله ﷺ يجب أن يسمع القرآن منه. وكان رغم صغر حجمه وضآلة جسمه إلا أنه كان ثقيلاً في الميزان، فقد شهد له رسول الله ﷺ أن ساقيه في الميزان يوم القيامة أثقل من جبل أُحُد؛ إنه الإمام الحبر الفقيه «عبد الله بن مسعود».

إسلامه

إنك غلام مُعَلِّم

كان عبدالله بن مسعود غلامًا يافعًا - لم يتعدَّ الثالثة عشرة - وكان يرعى غنمًا لعقبة بن أبي مُعيط، وكان مخلصًا أمينًا، على الرغم أنه لم يسمع بعد عن الإسلام وما يدعو إليه من أمانة وصدق وإخلاص. إلا أنه كان يسمع بأخبار النبي الذي ظهر في قومه، لكنه لم يكن يهتم بتلك الأخبار. حتى أتى اليوم الذي كان فيه على موعد مع شمس الهداية ونور اليقين. ففي ذات يوم وهو يرعى الغنم، مر به رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق -

وهو لا يعرفهما - وكان قد اشتد عليها الظماً. فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام، هل من لبن تسقيناً؟». فقال: نعم، ولكن لا أفعل؛ فالغنم ليست لي، وأنا عليها مؤتمن. ويظهر الرضا على وجه رسول الله ﷺ وأبي بكر لأمانته، فقال له رسول الله ﷺ: «هل من شاة لم ينز عليها الفحل؟» - أي: لم تُدر لبناً من قبل - فأتاه بشاة صغيرة، فمسح رسول الله ﷺ ضرعها وهو يدعو الله، فما لبث إلا أن رأى ضرع الشاة يتفخ وتدفق منه لبن غزير. فحلب في إناء وشرب رسول الله ﷺ وصاحبه ثم سقى الغلام؛ «عبد الله بن مسعود». فلما ارتووا جميعاً قال رسول الله ﷺ للضرع: «أقلص» - أي: انقبض وأمسك عن إنزال اللبن - فقلص وعاد إلى ما كان عليه. ويقف ابن مسعود مدهوشاً مما رأى. فقال لرسول الله ﷺ: «علمني من هذا القول الذي قلته. فمسح رسول الله ﷺ رأسه وقال له: «يرحمك الله! إنك غلام مُعَلِّم».

من رعاية الأغنام إلى صحبة خير الأنام

ويُحب عبد الله بن مسعود هذا العبد الصالح والرسول الأمين. وقبل أن يدخل الإسلام دار الأرقم بن أبي الأرقم، كان ابن مسعود قد آمن به، وأصبح سادس ستة أسلموا واتبعوا رسول الله ﷺ، فكان من السابقين

الأولين للإسلام.

وينتقل ابن مسعود من رعاية الأغنام إلى صحبة خير الأنام ﷺ وهو لا يدري وهو الغلام الفقير الضعيف الأجير الذي يرعى الغنم، أنه سيكون أحد معجزات هذا الدين الذي سيقهر كبرياء سادات قريش.

أعماله ومناقبه

١- أول من يجهر بالقرآن

ويمضي الفتى الصغير في حجمه، الكبير في إيمانه، يمضي جسوراً لنشر كلمة الحق من غير خوف ولا تردُّد.

يقول الزبير: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة، «عبد الله بن مسعود»؛ إذ اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر به قط، فَمَنْ رجل يُسمعهم إياه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا.

فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه. قال: دعوني إن الله سَيَمْنَعُنِي.

ثم أتى القوم في الضحى وقريش في أنديةها، فقام عند المقام ثم قرأ رافعاً صوته: **بسم الله الرحمن الرحيم {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ} [الرحمن: ١-٢]؛**

فتأملوه قائلين: ماذا قال ابن أم معبد؟ - وكانت هذه كُنْيته - إنه ليتلو ما جاء به محمد. فقاموا إليه وجعلوا يضربون وجهه وهو ماضٍ في قراءته حتى بلغ منها ما شاء أن يبلغ. ثم عاد إلى أصحابه مصابًا في وجهه وجسده. فقالوا له: هذا الذي خشيناه عليك. فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئت لأُغادينهم بمثلها غدًا. فقالوا: حسبك، فقد أسمعتم ما يكرهون.

فأي قوة تلك، وأي معجزة آتيت بها يا رسول الله ﷺ، جعلت من العبيد أحراراً، ومن المستضعفين أبطالاً.

فهذا عبد الله بن مسعود الذي كان لا يجرو أن يمر بمجلس فيه أشرف قريش إلا مُطرق الرأس. يذهب بعد إسلامه إلى حيث يجلس ساداتهم، فيقف على رؤوسهم ويرفع صوته ويقرأ القرآن في تحدُّ وكبرياء. وهكذا كان بلال وعمار وغيرهم من المستضعفين. إنها قوة الإيمان، ونور الحق الذي يُزهق كل باطل.

٢- حبه لرسول الله ﷺ

صاحب النعلين

ويظل ابن مسعود ملازمًا لرسول الله ﷺ ملازمة العين لأختها، فكان

يرافقه في حلّه وترحاله، ويصاحبه داخل بيته وخارجه.

وقد كان رسول الله ﷺ يحبه حبًّا جمًّا.

وكان يحب فيه ورعه وفطنته، فنال ما لم ينل غيره، حين قال له رسول الله

ﷺ: «إذنك عليّ أن ترفع الحجاب»، فكان إيدانًا بحقه في أن يطرق باب

رسول الله ﷺ في أي وقت يشاء من ليل أو نهار.

فكان يدخل عليه بيته أكثر مما يدخل غيره، ويجالسه أكثر مما يجالسه سواه.

فكان يوقظه إذا نام، ويستره إذا اغتسل، ويحمل له عصاه وسواكه، ويُلبسه

نعليه إذا أراد الخروج، ويخلعهما من قدميه إذا همَّ بالدخول.

فكان يُلقَّب بـ«صاحب النعلين». وكان يُحِب أن يناديه الناس بهذا اللقب.

صاحب سر رسول الله ﷺ

لقد ظن كثير من الصحابة أنه من آل بيت رسول الله ﷺ؛ من كثرة دخوله

عليه. يقول أبو موسى الأشعري: «مكثنا حينًا ما نرى عبد الله بن مسعود

إلا رجلاً من أهل بيت النبي ﷺ؛ لما نرى من كثرة دخوله على النبي ﷺ.

ويقول عنه أصحابه: «كان يُؤذَن له إذا حُجِبْنَا، ويشهد إذا غبْنَا؛ حتى دُعي

بـ«صاحب سر رسول الله ﷺ».

٣- أكثر الصحابة علمًا بالقرآن: تلاوةً وفهمًا

لقد صدقت نبوءة رسول الله ﷺ يوم قال لابن مسعود: «إِنَّكَ غلامٌ مُعَلِّمٌ»؛ فقد علَّمه ربه حتى صار من أبرز فقهاء الأمة، وعمدة حفظة القرآن جميعًا. وكأنما أراد الله له مثوبة مخاطرته بحياته في سبيل أن يجهر بالقرآن، ويُذيعه في كل مكان بمكة أثناء سنوات الاضطهاد والتعذيب. فأعطاه الله ﷻ موهبة الأداء الرائع في تلاوته، والفهم السديد في إدراك معانيه.

وهاك بعض الشواهد على ذلك:

* يقول ابن مسعود: «والله لقد أخذت من فم رسول الله ﷺ بضعةً وسبعين سورة لا ينازعني فيهن أحد».

* ويقول: «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت، وأعلم فيما أنزلت. ولو أعلم أن أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه».

* سل تعطه

يقول عمر بن الخطاب: دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر وكنت معها المسجد، فإذا ابن مسعود قائم يصلي فوقف رسول الله ﷺ يستمع إليه ثم

التفت إلينا وقال: «من سرَّه أن يسمع القرآن غَضًّا كما أنزل عليّ فليسمعه من ابن أم عبد».

وفي رواية: «من أراد أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل عليّ فليقرأه علي قراءة ابن أم عبد».

يقول عمر: ثم جلس عبد الله بن مسعود يدعو الله وهو لا يرانا. فجعل رسول الله ﷺ يقول: «سل تُعطه.. سل تُعطه» كررها ثلاث. فقال عمر في نفسه: والله لأغدون علي عبد الله بن مسعود ولأبشرته بتأمين رسول الله ﷺ علي دعائه. فلما أتى عمر بن مسعود وجد أبا بكر قد سبقه إليه فبشَّره. فقال: والله ما سبقت أبا بكر إلي خير قط إلا سبقني إليه.

* رسول الله ﷺ يبكي لسماع القرآن من ابن مسعود

لقد أحب رسول الله ﷺ ابن مسعود حبًّا جمًّا، وكان يقربُه إليه. ولطالما كان يطيب لرسول الله ﷺ أن يستمع للقرآن من فم ابن مسعود. فدعاه يوماً وقال له: «اقرأ عليّ القرآن» فقال: أقرأ عليك، وعليك نزل يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني أحب أن أسمع من غيري». فأخذ ابن مسعود يقرأ من سورة النساء حت بلغ {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤١]؛ فغلب البكاء رسول الله ﷺ

وفاضت عيناه بالدمع، وأشار بيده إلى ابن مسعود وقال: «حسبك.. حسبك.. ابن مسعود».

* أفيكم عبد الله بن مسعود؟

وتلك منقبة أخرى من مناقب ابن مسعود تُظهر ما كان له من علم بالقرآن وأحكامه. فهذا عمر بن الخطاب، يلقي ركبًا في سفر من أسفاره، والليل مُحيمٌ يججب الركب بظلامه. وكان في الركب عبد الله بن مسعود، فأمر عمر رجلاً أن يناديهم: من أين القوم؟

فأجابه عبد الله: من الفج العميق. فقال عمر: أين تريدون؟ قال عبد الله: البيت العتيق. فقال عمر: إن فيهم عالمًا. فأمر رجل فناداهم: أي القرآن أعظم؟

فأجابه عبد الله: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥].

قال نادمهم: أي القرآن أحكم؟ فقال عبد الله: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠].

فقال عمر: نادهم: أي القرآن أجمع؟ فقال عبد الله: **{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}** [الزلزلة: ٧-٨].

فقال عمر: نادهم: أي القرآن أخوف؟ فقال عبد الله: **{لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}** [النساء: ١٢٣].

فقال عمر: نادهم: أي القرآن أرجى؟ فقال عبد الله: **{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ}** [الزمر: ٥٣].

قال عمر: نادهم: أفيكم عبد الله بن مسعود؟
قالوا: اللهم نعم.

٤ - ساقه أثقل في الميزان من جبل أُحُد

لقد كان ابن مسعود رجلاً نحيفاً، قصيراً، يكاد الجالس يوازيه في الطول وهو قائم، وله ساقان ناحيلتان دقيقتان.

صعد يوماً أعلى شجرة ليجني منها سواكاً من الأراك لرسول الله ﷺ.

فلما رأى أصحابه دقة ساقيه ضحكوا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «تضحكون من ساقِي ابن مسعود؟ فوالذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان عند الله من جبل أُحُد».

٥ - جهاده

لم يكن عبد الله بن مسعود قارئاً عالمًا فحسب، بل كان ورغم صِغَر حجمه ونحافة جسمه كان مجاهدًا مقدامًا إذا جد الجد:

* حَسَبه أنه أول مسلم على وجه الأرض، يجهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ - كما أسلفنا -.

* شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ما تخلف أبدًا عن مشهد منها. بل كان له في يوم بدر موقف عظيم عندما قتل أبا جهل، بعد أن أثبتته ابنا العفراء.

* شهد مع خلفاء رسول الله ﷺ المعارك الظافرة، وقد شهد أعظم إمبراطوريتين في عصره - الفرس والروم - وهما تسقطان منهزمتين تحت رايات الإسلام الخفاقة.

٦ - تواضعه وورعه

على الرغم من المزايا التي حظي بها ابن مسعود من قرب لرسول الله ﷺ، وما حباه الله من علم ومكانة عالية، إلا أن ذلك لم يزدَه إلا تواضعًا وخشوعًا.

وهاك بعض المشاهد على شدة تواضعه وورعه:

* خرج ابن مسعود ذات يومًا فاتبعه ناس، فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا:

لا، ولكن أردنا أن نمشي معك. قال: «ارجعوا فإنه ذلة للتابع، وفتنة للمتبوع»، «لو تعلمون ما أعلم من نفسي لحثيتم على رأسي التراب».
 * يقول ابن مسعود: «من تطاول تعظيماً خفضه الله، ومن تواضع تخشعاً رفعه الله».

* يقول ابن مسعود: «لو وقفت بين الجنة والنار، فقل لي: اختر نخيرك، من أيهما تكون أحب إليك أو تكون رماداً؟ لأحبيت أن أكون رماداً».
 * كان عبد الله بن مسعود إذا هدأت العيون - أي: نامت - قام في جوف الليل فيسمع له دَوِيّ كدَوِيّ النحل.

* ليتني كنت صاحب هذه الحفرة

يقول ابن مسعود: قُمت في جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية المعسكر فأتبعتها، انظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المُرني قد مات. وإذا برسول الله ﷺ يحفر له حفرة، فلما انتهى من الحفر قال لأبي بكر وعمر: «أذنيا إليّ أخاكما وارققا به». فدلياه إليه، فلما هيأه لِلْحَدِّ قال: «اللهم إني أمسيت راضياً عنه فارض عنه». يقول ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب هذه الحفرة.

تلك كانت أمنيته التي كان يرجوها في دنياه. فإنها أمنية رجل كبير القلب،

عظيم الإيمان، شديد الخشية من الله.

٧- علمه وفقهه

مثلما أعطى الله ابن مسعود التقوى والورع، أعطاه علمًا نافعًا وفهمًا عميقًا للدين في علومه المختلفة:

أ - في علوم القرآن:

كان ابن مسعود أكثر الصحابة علمًا بالقرآن؛ فهمًا وتلاوةً - كما أسلفنا -.

ب - رواية أحاديث رسول الله ﷺ

روى ابن مسعود الكثير عن رسول الله ﷺ، وكان يحبه حبًّا جمًّا ويوقره، ويخاف أن يُحدِّث بحدِيث واحد يزيد فيه كلمة أو يُنقص منه حرفًا. لذلك تجده إذا حرَّك شفثيه ليقول: سمعت رسول الله ﷺ يحدث ويقول، تأخذه الرعدة الشديدة ويبدو عليه القلق والاضطراب؛ خشية أن ينسى أو يزيد حرفًا مما قاله رسول الله ﷺ.

ولنصغي إلى أصحابه يصفون هذه الحالة:

* عن مسروق قال: حدثنا ابن مسعود يومًا فقال: سمعت رسول الله ﷺ

فرعد حتى أرعدت ثيابه، ثم قال: أو نحو ذا أو شبيهاً بذا.

* عن علقمة بن قيس قال: كان عبد الله بن مسعود يقوم عشية كل خميس متحدثاً، فما سمعته في عشية منها يقول: قال رسول الله ﷺ غير مرة واحدة، فنظرت إليه وهو مُعْتَمِدٌ على عَصَا، فإذا عصاه ترتجف وتزعزع.

إلى هذا المدى بلغ إجلاله لرسول الله ﷺ وتوقيره إياه. فالرجل الذي عاصر رسول الله ﷺ أكثر من غيره، كان إدراكه لعظمة هذا الرسول إدراكاً شديداً. فكان أدبه مع رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته أدباً فريداً.

ج- باقة من أقواله ومواعظه

لقد كان ابن مسعود يملك القدرة على رؤية الأعماق والتعبير عنها في أناقة وسداد، فكانت ينابيع الحكمة تجري على لسانه.

فلنستمع لبعض من حِكْمه ومواعظه:

* يقول ابن مسعود ملخّصاً حياة عمر بن الخطاب: «كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة».

* ويقول: «إني لأمقت الرجل؛ إذ أراه فارغاً، ليس فيه شيء من عمل الدنيا، ولا عمل الآخرة».

* ويقول: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه».

- * ويقول: «خير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، وشر العمى عمى القلوب، وأعظم الخطايا الكذب، وشر المكاسب الربا، وشر المأكل مال اليتيم، ومَنْ يَعْفُ يَعْفُ اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ يَغْفِرُ يَغْفِرُ اللهُ لَهُ».
- * ويقول: «إن للقلوب شهوةً وإقبالاً، وإن للقلوب فترةً وإدباراً. فاعتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها».
- * ويقول: «ارض بما قسم الله تكن من أغنى الناس، واجتنب المحارم تكن من أروع الناس، وأدِّ ما افترض عليك تكن من أعبد الناس».

٧- مكانته في قلوب الصحابة

وظل ابن مسعود ملازمًا لرسول الله ﷺ لم يفارقه في سفر ولا حضر، حتى مات رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ. وعرف خلفاء رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده قَدْر ابن مسعود، فكان له مكانته العالية في قلوبهم، ومنزلته الراقية في نفوسهم.

وهاك بعض من صور هذا الحب والتقدير في قلوب الصحابة:

- * ولأه عمر بن الخطاب بيت المال في الكوفة، وكتب لأهلها حين أرسله: «إنني قد بعثت إليكم عماراً أميراً، وابن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر، فاسمعوا لهما واقعدوا بهما، وقد آثرتم بعدد الله على نفسي، فخذوا منه وتعلموا».

ولقد أحبه أهل الكوفة جميعاً حباً لم يظفر بمثله أحد قبله.

* يقول عنه عمر بن الخطاب: «إنه وعاء ملىّ علماً وفقهاً».

* اجتمع نفر من الصحابة يوماً عند علي بن أبي طالب، فقالوا له: يا أمير المؤمنين، ما رأينا رجلاً كان أحسن خلقاً، ولا أرفق تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعاً من عبد الله بن مسعود. فقال عليّ: نشدتكم الله، أهو صدق من قلوبكم؟ قالوا: نعم. فقال: «اللهم إني أشهدك، أي أقول مثل ما قالوا وأفضل، لقد قرأ القرآن، فأحلّ حلاله، وحرّم حرامه، فقيه في الدين وعالم بالسنة».

* يقول حذيفة بن اليمان: «ما رأيت أحداً أشبه برسول الله ﷺ في هديه، ودلّه وسمته من ابن مسعود، ولقد علم المحفظون من أصحاب رسول الله ﷺ أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله زلفى».

* يقول أبو موسى الأشعري: «لا أعلم رسول الله ﷺ ترك أحداً أعلم بكتاب الله من ابن مسعود»، «لا تسألونا عن شيء ما دام هذا الخبر فيكم».

الفصل الأخير

ويظل ابن مسعود يبذل كل جهد في خدمة دين الله، بنفسه وعلمه وفقهه. وقد ظل أميراً على بيت مال الكوفة - كما أسلفنا - حتى مات عمر بن الخطاب.

لا أحب أن أكون أول من يفتح أبواب الفتن

وفي عصر عثمان، ولما أطلت الفتن برأسها، وقرَّر عزله. فأحاط به أهل الكوفة من شدة حبِّهم له وقالوا: أقم معنا ولا تخرج، ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه.

فأجابهم: «إن له عليَّ الطاعة، وإنما ستكون أمور وفتن، ولا أحب أن أكون أول من يفتح أبواب الفتن.

المعارضة الحميدة

فكان في إجابته ما يصوِّر عظمة نفسه وثقاها. وقد حدث بينه وبين الخليفة «عثمان بن عفان» حوار وخلاف تفاقماً، إلا أنه ظل على عهده وعلى ما ربَّاهم عليه رسول الله ﷺ من احترام وتقدير، وإن ظل في معارضته «المعارضة الحميدة» - كما أطلقنا عليها من قبل -؛ فلم يقل في عثمان كلمة سوء واحدة، بل حين ترامى إلى سمعه محاولات اغتيال الخليفة قال كلمته الماثورة: «لئن قتلوه لا يستخلفون بعده مثله».

* انظر حياة عثمان بن عفان في الجزء الثاني «حياة العشرة المبشرين بالجنة» للمؤلف.

أتحشى على بناتي الفقرا؟

ويحين وقت الرحيل، ويرقد ابن مسعود على فراش الموت بعد حياة مليئة بالعلم والجهد والخشية من الله والتواضع إليه.

وبينما هو على فراش الموت، يستعد للرحيل إذا بالخليفة «عثمان بن عفان» يأتي إليه ليعوده -رغم ما بينهما من خلاف-، لكنها الأخلاق، والرُّقي، والرحمة التي بينهم، التي أتاهم بها مُعلمهم ومُعلم البشرية رسول الله ﷺ.

فلما دخل عليه عثمان دار بينهما هذا الحوار الذي يفيض بالحب والرحمة:

قال عثمان له: ما تشتهي؟

ابن مسعود: ذنوبي.

عثمان: فما تشتهي؟

ابن مسعود: رحمة ربي.

عثمان: ألا أمر لك بطبيب؟

ابن مسعود: الطبيب أمر ضني.

عثمان: ألا أمر لك بعطاء؟

ابن مسعود: لا حاجة لي به.

عثمان: يكون لبناتك من بعدك.

ابن مسعود: أتحشى على بناتي الفقرا؟ إني أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة

الواقعة؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ الواقعة كل ليلة، لم

تُصِبُه فَاقَةٌ أَبَدًا».

ولما أقبل الليل، فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها، ولسانه رطب بذكر الله. ليلحق برسول الله ﷺ مع الصديقين والنبیین والشهداء.. ودُفن بالبقيع.

فرحمة الله وبركاته عليك يا أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ.

يا من كانت ساقيه أثقل في الميزان من جبل أحد.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «عبد الله بن مسعود».

حمزة بن عبد المطلب

والآن أحبائي، نحن على موعد مع سيد الشهداء، أسد الله وأسد رسوله، من كان إسلامه نقطة تحول في تاريخ الدعوة؛ إنه عم رسول الله ﷺ وأخوه في الرضاعة «حمزة بن عبد المطلب».

نسبه ونشأته

هو: حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. عم رسول الله ﷺ وأخوه في الرضاعة. نشأ حمزة مع رسول الله ﷺ فكانا من جيل واحد وسنّ متقاربة. فلعبا معاً، وسارا معاً على الدرب خطوة خطوة في طفولتهما. ولئن كان شباب كل منهما قد مضى في طريق مختلف. فرسول الله ﷺ شغلته هموم قومه، وما هم فيه من ضلالة فأخذ يفكر في كيفية الخلاص من هذه الضلالات. فكان على يده الخير وخلاص الأمة من الكفر والضلالة. أما حمزة فكان قوي البنية، سريع الحركة، يُتقن الرمي غاية الإتقان، يحب الصيد حباً شديداً، فكان يخرج في الوديان ليمارس هوايته التي لا تفارقه. وعند غروب الشمس يعود ليشارك أنداده من فتيان قريش في الاستمتاع

بملذات الحياة والانغماس في شهوات الدنيا.

إسلامه

وتمضي الأيام وتظهر الدعوة للإسلام، وينزل الوحي على رسول الله ﷺ، ويستحوذ القلق على أشرف قريش من هذه الدعوة.

القلق الذي ما لبث أن تحوّل إلى إيذاء بالقول والفعل. أما حمزة، ولئن كان في شبابه قد اتخذ وجهة مغايرة لشباب رسول الله ﷺ إلا أنه كان يعرف له فضله ومكارم أخلاقه، التي يعرفها أعداؤه قبل أصدقائه؛ فهو الصادق الأمين، الذي اجتمع الناس على محبته وتوقيره.

وكان حمزة كثيراً ما يستمع لما يقوله سادة قريش عن رسول الله ﷺ، وكان يتعجب لهذا العداء، وكان يرميهم بالمبالغة، وسوء التقدير. إلا أنهم مضوا في مواقفهم، وحمزة يبتسم تارة ويمتعض تارة أخرى. إلا أنه ظل على دين قومه حتى جاء اليوم الموعود.

وأشرقت نفس حمزة بنور اليقين

فلم يكن حمزة يتمتع بقوة الجسم فحسب، بل برجاحة العقل وقوة الإرادة أيضاً. فلما كان هذا اليوم الموعود الذي أراد الله فيه أن تُشرق أنوار اليقين

والإيمان على قلبه، لم يتردد في أن يتخذ القرار الصائب ويسير في ركب الإيمان.

فتعالوا أحبائي لنستمع بقصة إسلام أسد الله تعالى، وأسد رسوله ﷺ.

أنا على دينه وأقول ما يقول

خرج حمزة يوماً إلى الفلاة ليمارس هوايته وهي الصيد، ولما رجع في آخر النهار، وهو بطريقه إلى الكعبة ليطوف بها كعادته قبل أن يدخل بيته، قابلته امرأة - خادمة لعبد الله بن جُذعان - وقالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام -أبي جهل- فقد وجدته جالساً وحده هاهنا فأذاه وسبّه، وبلغ منه ما يكره.

فغضب حمزة غضباً شديداً، وقال لها: هل رآه أحد؟ قالت: أي والله، لقد رآه الناس.

وينطلق حمزة في خطى سريعة، متوشحاً قوسه صوب الكعبة. فلما دخل المسجد وجد أبا جهل في مجلس من مجالس قريش، فلم يكلمه حتى علا رأسه بقوسه فشجّه. ثم قال له: أتسبُّ محمداً وأنا على دينه وأقول ما يقول؟ فردّ ذلك عليّ إن استطعت.

فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل.

فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة؛ فإني والله قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا.

إسلام اليقين

لقد أعلن حمزة إسلامه في لحظة من لحظات الحمية والعصبية والانفعال، لما قد أصاب ابن أخيه من أذى، فلما عاد إلى بيته، أخذ يفكر فيما قال، وفيما أعلن، وكيف له يترك دين آبائه وقومه إلى هذا الدين الجديد؟ يقول حمزة وهو يروي قصة إسلامه: «ثم أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي، وبتُّ في الشك من أمر عظيم لا أكتحل بنوم. ثم أتيت الكعبة وتضرَّعت إلى الله أن يشرح صدري للحق، ويُذهب عني الريب. فاستجاب الله لي وملاً قلبي يقينًا. فعدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من أمري، فدعا الله أن يثبت قلبي على دينه. وهكذا أسلم حمزة إسلام اليقين.

أسد الله وأسد رسوله

المسلمون يجهرُوا بإسلامهم

وإسلام حمزة ومن بعده عمر بن الخطاب، أصبح للإسلام درع قوي يصد به مكائد قريش وعدوانها. وإن كان لا يمنع كل الأذى، إلا أنه كان مشجعًا

للمسلمين أن يخرجوا ويجهروا بإسلامهم ويمارسوا شعائرهم عند الكعبة. ويخلع رسول الله ﷺ على حمزة هذا اللقب العظيم: «أسد الله وأسد رسوله»؛ فكان بحق أهلاً لهذا اللقب، وهو ما برهنت عليه الأحداث والمواقف التي شهدتها..
كما سنرى بعد قليل.

الهجرة إلى المدينة

لما أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة، كان حمزة من أوائل المهاجرين، واستقر بالمدينة، وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة.

أمير على أول سرية في الإسلام

وفي شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة، أرسل رسول الله ﷺ أول سرية في الإسلام - سرية سيف البحر -، وأمر عليها حمزة بن عبد المطلب، بعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليعترضوا عيراً لقريش قادمة من الشام، وفيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل. فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص - مكان ناحية البحر الأحمر - فلما اصطفوا للقتال، سعى مجدي بن عمرو الجهني، وكان حليفاً للفريقين. ونجح أن يحجز بينهما، فلم يقتتلوا.

موقفه يوم بدر

ويأتي يوم بدر ليصنع أسد الله وأسد رسوله الأعاجيب.

أول وقود للمعركة: حمزة يقتل ابن عبد الأسد

وقبل أن تقوم المعركة على ساقها، ويبدأ القتال. خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، ولأهدمنه أو لأموتن دونه. فلما خرج؛ خرج إليه حمزة بن عبد المطلب وضربه ضربة أطاحت بساقه، فسقط على ظهره، ثم زحف إلى الحوض يريد أن يقتحمه ليبرِّ يمينه. فأتبعه حمزة بضربة أخرى فقتله. وكان هذا أول قتيل أشعل نار المعركة.

المبارزة

كانت العادة تلك الأيام، وقبل أن تبدأ المعركة الفاصلة بين أيّ جيشين أن يتبارز قائد أو أكثر من كل جانب مع مُناظرٍ له من الجانب الآخر. وكانت نتيجة هذه المبارزة تؤثر تأثيراً كبيراً، إما سلْباً على المنهزم أو إيجاباً على المنتصر فيها، فترفع من روح الفريق ومعنوياته، وهو ما يؤثر على أدائه في المعركة ذاتها. وكان المبارزون يحرصون على أن يكون خصومهم من نفس

طبقتهم الاجتماعية، ونفس كفاءتهم العسكرية.

فخرج من جانب المشركين ثلاثة كانوا من عائلة واحدة وهم: عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد، وطلبوا المبارزة. فخرج لهم ثلاثة من الأنصار وكانوا من عائلة واحدة أيضاً، وهم: عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهها عفراء.

فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار.

فقالوا في تكبر: ما لنا بكم من حاجة، وإنما نريد بني عمنا.

ونادى مناديتهم: يا محمد أخرج لنا أكفأنا من قومنا. فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث وقم يا حمزة وقم يا علي»، وكلهم من بني عبد المطلب. فلما دنوا منهم قالوا: من أنتم؟ فأخبروهم. قالوا: نعم أكفأ كرام.

وبدأت المبارزة، ولم يمهل حمزة شيبية، ولا أمهل عليّ الوليد أن قتلاهما.

أما عبيدة بن الحارث وكان أسن القوم، فقد اختلف هو وعتبة فكَرَّ حمزة وعليّ إلى عبيدة فأعاناه على قتل عتبة. وانتهت المبارزة بقتل فرسان قريش الثلاثة. فكانت بداية سيئة ونذير شؤم على جيش المشركين.

أما المسلمون فقد رفعت من معنوياتهم، رُغم ما أصاب عبيدة من جروح وقد مات بعد المعركة بعدة أيام متأثراً بجراحه تلك.

وكانت المعركة التي أبلى فيها «أسد الله» بلاءً حسناً. وقتل خلقاً كثيراً من

المشركين ومن سادات قريش. وكان نصر الله للمؤمنين.

موقفه يوم أُحُد

بعد الهزيمة المنكرة للمشركين في بدر، وما لحق قريش من خيبة، وقد فقدت العديد من ساداتها. فما كان لقريش أن تتجرع هذه الهزيمة في سلام، فراحت تعد عدتها وتحشد قواتها للثأر.

زعماء قريش يهدفون حمزة بعد رسول الله ﷺ

وكان زعماء قريش يهدفون بمعركتهم الجديدة هذه إلى رجلين اثنين؛ رسول الله ﷺ وحمزة بن عبد المطلب. أما سبب استهدافهم لرسول الله ﷺ فهو معروف، أما استهدافهم لحمزة دون باقي الصحابة فكان لما أصابهم على يديه في بدر، فقد قتل العديد من ساداتهم. والذي يسمع أحاديثهم ومؤامراتهم قبل الخروج للحرب يعرف كيف كان حمزة بعد رسول الله ﷺ هو بيت القصيد.

تخريض وحشي لقتل حمزة

وتحقيقاً لهذا الغرض، اختاروا قبل الخروج الرجل الذي وكلوا إليه أمر حمزة. وهو عبد حبشي واسمه «وحشي»، كان ذا مهارة خارقة في قذف الحربة، قلما تُخطئ رميته. وكان عبداً لجُبَيْر بن مُطعم بن عدي، وكان عمه «طُعَيْمة بن عدي» قد قُتِل في بدر على يد حمزة.

فقال جُبَيْر لو حشي: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت حر عتيق، فاغتبط وحشي لما سمع.

ثم أحالوه إلى هند بنت عُتْبة لتزيده تخريضاً، فقد فقدت أباه وأخاها وعمها وابنها في بدر. وعلمت أن حمزة هو الذي قتل بعض هؤلاء، وأجهز على البعض الآخر..

لذلك كانت هند أكثر النساء تخريضاً على الخروج، لا لشيء إلا لتظفر برأس حمزة.

فوعدت وحشياً إن هو نجح في قتل حمزة، فستعطيه كل الخلي التي كانت تتحلى بها. وكان ذلك كفيلاً بمضاعفة حماس وحشي لقتل حمزة.

فسال لعبابه وطارث خواطره إلى المعركة التي سيربح فيها حرته، فلا يصير عبداً أو رقيقاً. والتي سيخرج منها بكل هذا الخلي الذي وعدته بها هند بنت عُتْبة.

أسد الله يقاتل بسيفين

وتبدأ المعركة ويلتقي الجيشان، وحمزة يتوسط أرض المعركة يصول ويجول، ويشق الصفوف شقًّا. يضرب المشركين ويهدمهم هُدًّا، وهم يتطايرون أمامه تتطايرون أوراق الخريف أمام الرياح العاتية. فصدَّ حَمَلَةَ اللّوَاء من بني عبد الدار، واقتنصهم فردًّا فردًّا.

يقول سعد بن أبي وقاص: «كان حمزة يقاتل يوم أُحُد بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين، ويقول: أنا أسد الله وأسد رسوله».

وقد قتل حمزة وحده ثلاثين من قريش. وصال المسلمون جميعًا حتى قاربوا النصر الحاسم.

وأخذت فلول قريش تنسحب مذعورة. ولولا أن ترك الرماة مكانهم، ونزلوا أرض المعركة ليجمعوا الغنائم - مخالفة لتعليقات رسول الله ﷺ - . لولا تركهم مكانهم وفتحهم ثغرة واسعة لفرسان قريش، لكانت غزوة أحد مقبرة لقريش كلها. فلما رأى حمزة ما أصاب المسلمين من انهزام بعد أن كان النصر قاب قوسين أو أدنى. فضاغف من قوته ونشاطه.

الفصل الأخير

وها هي رياح الموت تهب على أرض المعركة، وها هي اللحظة التي قدَّر الله

ﷺ ليرحل فيها أسد الله عن الدنيا.

وحشي يُنفذ ما خطط له

كان وحشي لا همَّ له في هذه المعركة سوى حمزة، فكان يترقبه ويلاحظ تحركاته. وقد ملأ الخوف قلبه لما رأى من بأس حمزة، وحشي أن تنتهي المعركة بهزيمة قريش دون أن ينال من حمزة فيظل أسير العبودية.

ولكن لما انكشف المسلمون فسنحت لوحشي الفرصة التي كان ينتظرها..

ولندع وحشياً يروي لنا ما حدث، يقول وحشي: «خرجت مع الناس

وكنت رجلاً حبشياً أقذف الحربة قذف الحبشة، فلم أخطئ بها شيئاً.

فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره. فلما رأيته في عرض الناس

مثل الجمل الأورق يهد الناس بسيفه هدّاً ما يقوم له شيء. فهزرت حربتي

حتى إذا رضيت عنها قذفتها إليه، فوقع في ثنيتيه - ما بين السرة والعانة

من أسفل البطن - حتى خرجت من بين رجليه.

وذهب لينوء نحوي فغلب، وتركته وإياها حتى مات. ثم أتيت فأخذت

حربتي، ثم رجعت إلى المعسكر وقعدت فيه ولم يكن لي بغيره حاجة. إنما

قتلته لأعتق، فلما قدمت مكة أعتقت».

وهكذا صرع أسد الله وهو في مقدمة المبارزين، لكنه لم يُصرع كما يُصرع

الأبطال وجهًا لوجه، وإنما اغتِيلَ كما يُغتال الكرام في حلك الليل.

سيد الشهداء

ولم يكتفِ أعداء الله بقتله، بل مثَّلوا بجسده.

فلما انتهت المعركة وخرج رسول الله ﷺ يلتمس الجرحى والقتلى، ووجد عمه حمزة بين القتلى وقد مثَّل بجسده. فحزن حزناً شديداً، وبكى عليه حتى أجهش بالبكاء، وقال ﷺ: «لن أُصاب بمثلك أبداً». وأمر بدفن الشهداء كما هم. وقال: «حمزة سيد الشهداء يوم القيامة». وبعد أن انتهى رسول الله ﷺ من دفن الشهداء قال: «أنا شهيد على هؤلاء، أنه ما من جريح يُجرح في الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون الدم، والريح ريح المسك».

وهكذا رحل أسد الله وأسد رسوله عن الدنيا، ليس كشهيد فحسب، بل سيد الشهداء.

حمزة في ذاكرة الصحابة

وقد تبارى الصحابة في رثاء أسد الله بعد وفاته، وظل في ذاكرتهم ما طالت بهم الحياة.

فعن عبد الرحمن بن عوف - أحد العشرة المبشرين بالجنة -، أنه لما أُتِيَ له بطعام وكان صائماً فقال: «قُتِل مصعب بن عمير وهو خير مني، كُفِّن في بُرْدَة إن غُطِّي رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّي رجلاه بدت رأسه. وقُتِل حمزة وهو خير مني. ثم بُسِط لنا من الدنيا ما بُسِط، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلَتْ لنا في الدنيا». ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

فرحمة الله وبركاته عليك يا أسد الله وأسد رسوله..

يا سيد الشهداء..

ورضي الله عنك وأرضاك يا «حمزة بن عبد المطلب».

حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ

والآن أعزائي، دعونا نستقبل هذه الزهرة من أزاهير «الصحبة العطرة». إنه صاحب سر رسول الله ﷺ، أعلم الناس بالفتنة إلى يوم القيامة - بعد رسول الله ﷺ -، رفيق رسول الله ﷺ في الجنة، والذي كان سبباً في جمع الناس على مصحف واحد. إنه التقي النقي صاحب رسول الله ﷺ «حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ».

نَسَبُهُ وَنَشَأَتُهُ

هو: حُذَيْفَةُ بْنُ حُسَيْلٍ (الِيَمَانِ) بْنِ جَابِرٍ. وأمه الرباب بنت كعب الأشهلية.

مَكِّيُّ الْأَصْلِ مَدَنِيُّ النِّشْأَةِ

كان والد حُذَيْفَةَ مَكِّيٌّ مِنْ بَنِي عَبَسَ، وَلَقَدْ أَصَابَ دَمًا فِي قَوْمِهِ، فَهَرَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَعَاشَ بِهَا وَحَالَفَ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، فَسَاهَ قَوْمَهُ «الِيَمَانِ» نَسَبَةً إِلَى الْيَمَنِ - أَصْلَ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ مِنَ الْيَمَنِ -.

وهناك تزوج من الرباب بنت كعب الأشهلية التي ولدت له «حُذَيْفَةَ»؛

فحُذيفة مكي الأصل، مدني النشأة.

إسلامه

لما أشرق نور الإسلام على جزيرة العرب وفد اليان على رسول الله ﷺ مع عشرة من قومه إلى مكة. وأسلموا على يد رسول الله ﷺ، ثم عاد اليان إلى المدينة، وأسلم أهله وأولاده جميعاً وفيهم حُذيفة.

حُذيفة بين يدي رسول الله ﷺ

نشأ حُذيفة في بيت مسلم، وتربى في كنف أبوين من السابقين للإسلام. وقد أسلم قبل أن تكتحل عيناه برؤية رسول الله ﷺ. إلا أن شوقه إلى لقاء رسول الله ﷺ كان يملأ جوانحه. فرحل إلى مكة بصحبة والده، وهناك التقت يمين رسول الله ﷺ بيمينه فسرت في نفسه موجة من الحب والإكبار لرسول الله ﷺ.

وخيرّه رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة، فقال له: «إن شئت كنت من المهاجرين، وإن شئت كنت من الأنصار، فاختر لنفسك ما تحب». فقال حُذيفة: بل أنا أنصاري يا رسول الله. وعاد إلى المدينة ينتظر في شوق هجرة رسول الله ﷺ ليكون من أهل النصره.

أعماله ومناقبه

فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لازمه حذيفة ملازمة العين لأختها،
وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها إلا بدرًا.

١ - يوم بدر: الوفاء بالوعد

ويرجع سبب تخلف حذيفة عن غزوة بدر إلى قصة يرويها بنفسه، فقال: ما
منعني أن أشهد بدرًا إلا أني كنت خارج المدينة أنا وأبي، فأخذنا كفار قريش
وقالوا: أين تقصدون؟

فقلنا: المدينة.

فقالوا: إنكم تريدون محمدًا.

فقلنا: ما نريد إلا المدينة.

فأبوا أن يطلقونا إلا بعد أن أخذوا علينا العهد ألا نقاتل مع رسول الله ﷺ،
ثم أطلقوا سراحنا. ولما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه بما قطعنا من
عهد، فقال: «نفي بعهدهم، ونستعين الله عليهم».

ولنا هنا وقفة:

فها هو رسول الله ﷺ يُعلمنا احترام العهود والوفاء بالوعد، مهما كانت
الظروف والأسباب. فكم كان رسول الله ﷺ أحوج ما يكون لهذين

الرجلين «حذيفة وأبيه» للقتال في هذه المعركة، إلا أنه احتراماً للعهد، أمرهما بالوفاء بوعدهما وعهدهما، حتى ولو كان وعداً للكفار والمشركين. فما أحوجنا إلى مثل هذه الخصال، وتلك الأخلاق النبوية!

٢- يوم أحد: العفو عند المقدرة

ويأتي يوم أحد ليشهد حذيفة موقفاً عظيماً، يُنمُّ عن إيمان عميق وقلب كبير. فقد خاض حذيفة المعركة مع أبيه «اليمان»، أما حذيفة فقد أبلى بلاءً حسناً، أما أبوه فقد استشهد فيها. ولكن استشهاده كان بأيدي مسلمة قتلته خطأ، وهي تحسبه واحداً من المشركين.

قصة فيها عبرة

فلما كان يوم أحد، وضع رسول الله ﷺ «اليمان» و«ثابت بن وقش» في الحصون مع النساء والصبيان لأنها كانا شيخين كبيرين طاعنين في السن. فلما حمى الوطيس قال اليمان لصاحبه: لا أبا لك، ما نتظر؟ فوالله ما بقي لواحد منا من عمره إلا بمقدار ما يظماً الحمار - كناية عن قصر المدة لأن الحمار قليل الصبر على العطش -، أفلا نأخذ أسيافاً ونلحق برسول الله ﷺ، لعل الله يرزقنا الشهادة؟

ثم أخذ كل منهما سيفه ودخلا في الناس واقتحما المعركة. أما ثابت بن وقش فقتله المشركون، أما اليمان فاختلف عليه أسياف المسلمين وهم لا يعرفونه. وجعل حذيفة ينادي: أبي.. أبي.. فلا يسمعه أحد، وخرَّ الشيخ صريعاً بأسياف أصحابه. وحين عرف المسلمون ما أصابوا تولاهم الحزن والوجوم. فما زاد حذيفة على أن نظر إليهم في إشفاق وقال لهم: «يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين». ثم انطلق نحو المعركة ليؤدي واجبه. فلما انتهت المعركة، وبلغ الخبر رسول الله ﷺ أمر بالدية لحذيفة عن والده. فاعتذر حذيفة قائلاً: «إنما هو طالب شهادة وقد نالها، اللهم اشهد أني تصدقت بديته على المسلمين». فازداد رسول الله ﷺ له حباً وتقديراً.

الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس

ولعلنا نأخذ من هذا الموقف لهذا الصحابي الجليل «حذيفة بن اليمان» الدرس والعبرة. فيها هو يرى أبوه يُقتل فلم يغضب ولم يُثر، ولكنه أشفق على قاتلي أباه بالخطأ وعفا عنهم.

فيا ليتنا نتعلم أن نصفح ونغفر لبعضنا البعض، حتى نفوز بمرضات الله وغفرانه، ونكون ممن قال فيهم الله ﷻ: **{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** [آل عمران: ١٣٤].

٣- غزوة الأحزاب: رفيق رسول الله ﷺ في الجنة

ولما كانت غزوة الخندق «الأحزاب». وكان المسلمون قد أحاط بهم الأعداء من قريش وأحلافها، وطال عليهم الحصار، وبلغ منهم الجهد كل مبلغ، حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر.

ولم يكن كفار قريش وأحلافهم أحسن حالاً من المسلمين، فقد دبَّ الفشل في صفوفهم، وصبَّ الله عليهم غضبه، فأرسل عليهم ريحاً صرصراً، تقلع خيامهم وتقلب قدورهم وتطفئ نيرانهم.

وفي هذه المواقف الحاسمة من تاريخ الحروب يكون الفريق الخاسر هو الذي يئنّ أولاً، ويكون الفريق الرابح هو الذي يضبط نفسه ويتحمل ولو لطفرة عين بعد صاحبه. وفي هذه اللحظات التي يُكْتَب فيها مصائر المعارك، يكون لاستخبارات الجيوش الفضل الأول في تقدير الموقف وإسداء المشورة. فمن يملك آنئذ القوة ليذهب وسط مخاطر حالكة إلى معسكر الأعداء ويقتمحه أو يتسلل داخله ثم يعرف أخبارهم؟

رفيقي في الجنة

فأراد رسول الله ﷺ أن يبعث رجلاً إلى قلب جيش العدو تحت جُنجح الظلام ليأتيه بأخباره، قبل أن يتخذ أي قرار.. تُرى مَنْ سيكون بطل هذه

المهمة الصعبة الحاسمة الدقيقة؟

فلندع حُذيفة يحدثنا عن تلك المهمة. يقول حُذيفة: «كنا في تلك الليلة صافين قعوداً وأبو سفيان ومن معه من مشركي مكة فوقنا، وبنو قريظة من اليهود أسفل منا، نخافهم على نساتنا وذراريننا. وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة، ولا أقوى رجاً منها. فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع. أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة». وجعل رسول الله ﷺ يمر بنا واحداً واحداً، حتى أتى إليّ وما عليّ شيء يقيني من البرد إلا مِرْط - كساء غير مخيط - ما يجاوز ركبتي. فقال: «يا حُذيفة، اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون وائتني بخبرهم، ولا تُحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني». فخرجت وأنا أشد الناس فزعاً وأكثرهم برداً. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوقه، ومن تحته». فوالله ما تمت دعوة رسول الله ﷺ حتى انتزع الله من جوفي كل ما أودعه من خوف، وأزال كل ما أصابه من برد.

داخل معسكر المشركين

ومضيت أتسلل في جُح الظلام حتى دخلت في جند المشركين، وما هو إلا

قليل حتى قام أبو سفيان فيهم خطيباً وقال: «يا معشر قريش، إني قائل لكم قولاً أخشى أن يبلغ محمداً، فلينظر كل امرؤ منكم في جليسه». فما كان مني إلا أن أخذت بيد الرجل الذي كان على جنبي وقلت: من أنت؟ فقال: فلان بن فلان.

إني راحل فارتحلوا

ولما اطمأن أبو سفيان أن لا غريب بينهم، قال: «يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، لقد هلك الكراع - الخيل -، والحف - الإبل -، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تَطْمَئِنُّ لَنَا قَدْرٌ، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فإني راحل فارتحلوا». ثم قام إلى جملة ففكَّ عقاله وجلس عليه، ثم ضربه فوثب قائماً. ولولا عهد رسول الله ﷺ إليَّ: «ألا تُحدث فيهم شيئاً حتى تأتيني» لقتلته بسهم.

عند ذلك رجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته الخبر، فسرَّ به سروراً شديداً، وحمد الله وأثنى عليه.

وبهذا العمل الجليل فاز حذيفة بحُب رسول الله ﷺ، كما وجد فيه الذكاء والبديهة وكتمان السر. وفوق كل ذلك الفوز بصحبة رسول الله ﷺ في

الجنة.. فيا لها من منقبة عظيمة فزت بها يا «حُذيفة بن اليمان».

٤ - حرصه على معرفة مواطن الفتن

لقد أُوتي حُذيفة من الحصافة ما جعله يُدرك أن الخير في هذه الحياة واضح لمن يريد، وإنما الشر هو الذي يتنكر ويتخفى. ومن ثمَّ يجب على اللبيب أن يعي بدراسة الشر ومكانه. لذلك عكف حُذيفة على دراسة الشر والأشرار، والنفاق والمنافقين لتفادي مخاطرتهم.

فلنستمع لهذا الحوار الذي دار بين حُذيفة وبين رسول الله ﷺ..

يقول حُذيفة: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يُدركني.

قلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟

قال: «نعم».

قلت: فهل بعد هذا الشر من خير؟

قال: «نعم، وفيه دَخَن».

فقلت: وما دخنه؟

قال: «قوم يستنون بغير سنتي، ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر».

قلت: وهل بعد ذلك الخير من شر؟

قال «نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجا بهم إليها قذفوه فيها».

قلت: يا رسول الله، فما تأمرني إن أدركني ذلك؟

قال: «تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم».

قلت: فإن لم يكن فيهم جماعة ولا إمام؟

قال: «تعزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ على أصل شجرة، حتى يُدرَك الموت وأنت على ذلك».

وها هي أحبائي، الفتن تُحيط بنا من كل جانب، وتأتينا من كل حدب وصوب. فلعلنا نستمتع إلى هذا الحوار المهم بين رسول الله ﷺ وحذيفة، نستمتع إليه بأذان صاغية وقلوب واعية. لعل الله يحفظنا من كل الفتن ما ظهر منها وما بطن.

٥- صاحب سر رسول الله ﷺ

كان رسول الله ﷺ يعرف مزايا أصحابه والاستفادة من طاقاتهم الكامنة فيهم، ولذلك كان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب. فقد لاحظ رسول الله ﷺ - كما أسلفنا - أن حذيفة قد تجلَّت فيه صفات ثلاث؛ ذكاء يُسَعفه في حلِّ المعضلات، وسرعة بديهية تجعله يُعالج أعتى المواقف

والأزمات في سهولة، وكتمان للسر، فلا ينفذ إلى غَوْرِهِ أحد ولا يذيعه في أي حال من الأحوال.

ولما كانت أكبر مشكلة تواجه رسول الله ﷺ في المدينة هي وجود المنافقين من اليهود وأشياعهم، وما ييكون من مكائد ودسائس. خاصة بعد ما حدث من بني قريظة من خيانة ونقض للعهد.

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يُفْضِي لأحد من أصحابه بأسماء المنافقين، وهو سِرٌّ لم يُطْلَع عليه أحداً، لم يجد سوى «حذيفة بن اليمان»؛ فأفضى إليه بأسماء المنافقين، وعهد إليه برصد تحركاتهم وتتبع نشاطهم، ودرء خطرهم عن الإسلام والمسلمين. ومنذ ذلك اليوم دُعِيَ «حذيفة بن اليمان» بصاحب سر رسول الله ﷺ.

الخلفاء يرجعون إليه في أمرهم

ظل حذيفة مؤتمناً على أسرار المنافقين ما امتدت به الحياة، وظل خلفاء رسول الله ﷺ يرجعون إليه في أمرهم، حتى إن عمر بن الخطاب وهو المُلْهَم الفَطْن، كان كثيراً ما يستدل برأي حذيفة في اختيار الرجال ومعرفتهم. بل وقد ناشده عمر، لما علم أن رسول الله ﷺ أسر إليه بأسماء المنافقين، فقال: أأنا من المنافقين؟ فقال: لا، ولا أزكي أحداً بعدك.

وكان عمر بن الخطاب إذا مات أحد من المسلمين يسأل: أحضر حُذيفة للصلاة عليه؟، فإن قالوا: نعم، صلى عليه، وإن قالوا: لا، شك فيه وأمسك عن الصلاة عليه.

وقد سأل عمر حُذيفة ذات مرة: أفي عمالي أحد من المنافقين؟ قال: واحد.

فقال: ذُئني عليه.

فقال: لا أفعل.

لكن عمر ما لبث أن عزله، كأنها هُديَ إليه.

٦ - أعماله في عصر الخلفاء

ويمضي الزمان، ويتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وهو راضٍ عن حُذيفة. وقد حزن عليه حزناً شديداً. وظل حُذيفة موضع حب واحترام وتقدير خلفاء رسول الله ﷺ من بعده.

وهاك بعض من أعماله في عصر الخلفاء:

أولاً: جهاده في الفتوحات الإسلامية

* في حروب الردة، وما تلاها من فتوحات:

كان حُذيفة من أصحاب السبق العظيم في فتوحات العراق وهمدان والري والديينور.

* في معركة نهاوند:

لما احتشد الفرس في مئة وخمسين ألف مقاتل. واختار أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» لقيادة الجيش «النعمان بن مقرن»، ثم كتب لحذيفة أن يسير إليه على رأس جيش من الكوفة. وكتب عمر للمقاتلين: ليكن أمير الجيوش «نعمان بن مقرن»، فإذا استشهد فليأخذ الراية «حذيفة بن اليمان»، فإذا استشهد فجرير بن عبد الله. ومضى أمير المؤمنين يختار قواد المعركة حتى سمى سبعة..

وهكذا كما علمهم رسول الله ﷺ، كان الصحابة يُحططون ويأخذون بكل الأسباب في إدارة أمورهم، مع اليقين بالله والتوكل عليه. والتقى الجيشان: الفرس في مئة وخمسين ألفاً، والمسلمون في ثلاثين ألفاً فقط. وبدأ القتال، ودارت معركة من أشد المعارك فدائية وعنفاً. وسقط قائد الجيش «النعمان بن مقرن»، وقبل أن تهوى الراية من يده كان القائد الجديد «حذيفة بن اليمان» قد تسلّمها يمينه. وأوصى ألا يُذاع نبأ موت النعمان حتى تنتهي المعركة، ودعا أخوه «نُعيم بن المقرن» فجعله حاملاً للراية تكريمًا له.

ويستمر القتال الذي أبلى فيه المسلمون وقائدهم «حذيفة بن اليمان» بلاءً حسناً، وانتهت المعركة بنصر عظيم للفتة القليلة (ثلاثين ألفاً)، وهزيمة

ساحقة للفتة الكثيرة (مائة وخمسين ألفاً) بإذن الله.

ثانياً: عبقريته

لم يكن «حذيفة بن اليمان» عبقرياً في ميادين القتال، ولا حكيماً حين تضمه صومعته فحسب. بل كان عبقرياً في كل مهمة تُوكل إليه. فقد كان واسع الذكاء، متنوع الخبرة.

فلما لحق بالمسلمين جراء الإقامة في المدائن أذى شديد، أمر عمر بن الخطاب «سعد بن أبي وقاص» أن يغادرها العرب، وأن يبحث لهم عن أكثر البقاع ملائمة لهم. يومئذ وكلَّ سعد هذا الأمر إلى حذيفة بن اليمان لاختيار المكان الملائم لطبيعة العرب؛ وذلك لما له من عبقرية وحكمة.

وقام حذيفة يبحث في كل الأماكن حتى بلغ الكوفة، وكانت حصباً جرداء مُرملة، فشمَّ عليها أنسام العافية. فقال: هذا هو المنزل إن شاء الله. وخطت الكوفة، وما كاد المسلمون يتقلون إليها حتى سُفِّي سقيمهم، وقوي ضعيفهم.

ثالثاً: أميراً على المدائن.. أبهى صور التواضع

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إذا بعث أميراً إلى قوم، كتب إليهم: إني

قد بعثت إليكم فلائناً وأمرته بكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعوا.

فلما بعث «حذيفة بن اليمان» إلى المدائن، كتب إليهم: قد بعثت إليكم فلائناً فأطيعوه. والإمارة على المدائن تلك من المناصب الرفيعة.. فلننظر أجبائي كيف كان تعامل الأمير مع هذا المنصب الرفيع؟

خرج أهل المدائن يستقبلون واليهم الجديد الذي اختاره لهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، خرجوا تسبقهم أشواقهم إلى هذا الصحابي الجليل الذي سمعوا الكثير عن ورعه وتقواه. وسمعوا أكثر عن بلائه العظيم في فتوحات العراق وغيرها.

وإذا هم ينتظرون، أبصروا أمامهم رجلاً يركب حماراً على ظهره إكاف قديم، وقد أسدل ساقيه، وأمسك بيده رغيفاً يأكل منه.

وحين توسطهم وعرفوا أنه «حذيفة بن اليمان»، كاد صوابهم أن يطير؛ لما رأوا من بساطة وشدة تواضع لهذا الصحابي الجليل. فما عهدت بلادهم أيام الفرس ولا قبلها والياً من هذا الطراز العظيم.

فقالوا: سلنا ما شئت يا أمير. فقال: أسألکم طعاماً آكله وعلفًا لحماري، ما دمت فيکم.

إياكم ومواقف الفتن!

ثم نظر إليهم نظرة فاحصة، وقال: إياكم ومواقف الفتن. قالوا: وما مواقف الفتن يا أبا عبد الله؟ قال: «أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير، فيصدِّقه بالكذب، ويمتدحه بما ليس فيه».

فكان هذا الاستهلال هو أصدق تعبير عن شخصية الحاكم الجديد، وعن منهجه في الحكم. فأَيُّ طراز من الرجال قد صنعت يا رسول الله ﷺ؟، قمم في الحكمة، وقمم في الفدائية، وفوق كل ذلك قمم في التواضع.

رابعاً: دوره في جمع المصحف

ومن المناقب التي لا ينساها التاريخ حُذيفة بن اليمان، أنه كان السبب في جمع المسلمين على مصحف واحد.

فلما كان يغزو مع أهل العراق في أرمينية وأذربيجان، أفرعه اختلافهم في القراءة. فلما عاد إلى المدينة، وقبل أن يدخل بيته، ذهب مباشرة إلى الخليفة «عثمان بن عفان»، وقال له: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى أم المؤمنين «حفصة بنت عمر» أن أرسلني إلينا بالمصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك. فأرسلت حفصة بها إلى عثمان.

فأمر زيد بن ثابت ومعه ثلثة من الحفاظ المشهود لهم بالعلم والتقى، وأمرهم أن ينسخوها في مصاحف. حتى انتهوا من نسخها، فرد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كلِّ الأمصار بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه أن يُحرق.

٧- حكمته وبلاغته

لقد عاش «حذيفة بن اليمان» مفتوح البصر والبصيرة على مداخل الفتن، ومسالك الشرور ليتقيها وليحذّر الناس منها. ولقد أفاء ذلك عليه بصراً بالدنيا وخبرة بالناس، فكان يُدبر المسائل في فكره وعقله بأسلوب فيلسوف، وحصافة حكيم. وهو ما ظهر في كثير من أقواله ومآثره.

وهاك بعض من هذه الأقوال التي تُكتَب بحروف من ذهب:

* يقول حذيفة: «النفاق أن نتكلم بالإسلام ولا نعمل به».

* ويقول: «إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ، فدعا الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، فاستجاب له من استجاب، فحيي بالحق من كان ميتاً، ومات بالباطل من كان حياً».

* ويقول متحدثاً عن القلوب وعن حياة الهدى والضلال فيها: «القلوب أربعة:

- قلب أغلف - أي: لا يعي لعدم فهمه كأنه حُجِبَ عن الفهم - فذلك قلب الكافر.

- وقلب مصفح - أي: له وجهان يلقي أهل الكفر بوجهه، وأهل الإيمان بوجهه - فذلك قلب المنافق.

- وقلب أجرد فيه سراج - أي: ليس فيه غلّ ولا غشّ - فذلك قلب المؤمن.

- وقلب فيه نفاق وإيمان، فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدّها ماء طيب، ومثل النفاق كمثل القُرحة يمدّها قيح ودم. فأيهما غلب غلب».

* ويقول: «ليس خياركم الذين يتركون الدنيا للأخرة، ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا. ولكن الذين يأخذون من هذه ومن هذه».

* ويقول: «يا معشر القراء، اسلكوا الطريق، فلئن سلكتموها لقد سُبِقْتُمْ سبقاً بعيداً، ولئن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً».

* ويقول: «أخوف ما أخاف على الناس اثنتان: أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون، وأن يضلوا وهم لا يشعرون».

فهذا هو حُذيفة عدو النفاق وصديق الوضوح.

الفصل الأخير

وبعد حياة مليئة بالزهد والكفاح والتضحية، ينام صاحب سر رسول الله ﷺ في فراش الموت.

أعوذ بالله من صباح يُفْضي إلى النار

ولما كان السحر - في اليوم الذي توفي فيه - جاءه بعض الصحابة يعاودونه. فقال: أي ساعة هذه؟

قالوا: نحن قريب من الصبح.

فقال: أعوذ بالله من صباح يُفْضي إلى النار.. كررها ثلاثاً.

أجئتم بأكفاني؟

ثم نظر إلى الصحابة وقال لهم: أجئتم معكم بأكفان؟ قالوا: نعم. فلما رآها وجدها جديدة غالية. فقال: ما هذا لي بكفن، إنما يكفيني ثوبين أبيضين، فإني لن أترك في القبر إلا قليلاً، حتى أُبدل بهما خيراً أو أُسلبهما.

المناجاة الأخيرة

وتوجه حذيفة إلى السماء وقال: «اللهم إنك تعلم أنني كنت أحب الفقر على

الغنى، وأحب الذلة على العز، وأحب الموت على الحياة. فمرحبًا بحبيب
 جاء على شوق، لا أفلح من ندم». وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها.
 وكان ذلك في العام السادس والثلاثين من الهجرة، وبعد وفاة عثمان بن
 عفان بأربعين يومًا.

فرحمة الله وبركاته عليك يا رفيق رسول الله ﷺ في الجنة.

يا صاحب سر رسول الله ﷺ.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «حذيفة بن اليان».

آل ياسر

. ياسر بن عامر .

. سُمَيَّة بنت خِباط .

. عمار بن ياسر .

والآن أعزائي، فنحن على موعد مع أسرة مؤمنة، أسرة فقيرة في مالها ولكنها غنية بذكراها... فكم من الأسر والأسماء جاءت إلى هذه الدنيا، وذهبت دون أن يذكرها أحدٌ. فها هي أسرة متواضعة فقيرة ويشرف التاريخ بذكورها إلى يومنا هذا بل وإلى يوم القيامة.
فمن تكون هذه الأسرة؟ وما سر خلودها وتخليدها؟
تعالوا أحبائي لتتعرف معاً على هذه الأسرة المباركة..

أما الأب:

فهو ياسر بن عامر الكِنَاني، قدم إلى مكة من اليمن مع أخويه الحارث ومالك يبحثوا عن أخ لهم فقدوه منذ سنوات.
ولما يئسوا من لقائه اختلفت وجهاتهم. أما الحارث ومالك فعادا إلى اليمن،

وأما ياسر فجذبته مكة إليها وأغرته بأن يتخذ لنفسه منها وطناً ومُقاماً. ولم يكن ياسر يعلم أنه حين اتخذ قراره هذا، أنه دخل التاريخ من أوسع أبوابه بل وأشرفها. وعلى عادة العرب، أنه إذا دخل غريب إلى بلد واستقر بها، فلا بد أن يُحالف سيِّداً من ساداتها ليمنعه من أذى الناس، وليتمكن من الحياة مطمئناً آمناً. فحالف ياسر «أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي».

أما الأم:

فهي سُمية بنت خِباط، وكانت أمةً لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي، الذي رأى في ياسر من كريم الشمائل ونبيل الخصال، فأراد أن يتقرب منه أكثر فزوَّجه من أمته «سُمية بنت خباط».

أما الابن:

فهو «عمار بن ياسر» الذي كان ثمرة هذا الزواج، وكان مصدر فرحة وبهجة أبويه. وازدادت فرحتهم لما حرره أبو حذيفة وأعتق رقبتة. وعاشت الأسرة في كنف بني مخزوم عيشة هانئة راضية. ومضت السنون، فإذا بياسر وزوجته سُمية يغدوان شيخين مُعمرين، وإذا بعمار يصبح شاباً يافعاً خلوفاً.

إسلام العائلة المباركة

ولما أشرفت الأرض بنور ربها، ونزلت رسالة الله على نبيه ﷺ. فقام يدعو الناس إلى ما فيه عز الدنيا وسعادة الآخرة.

فلما سمع عمار بن ياسر أخبار الدعوة الجديدة، فتح لها سمعه وقلبه وعقله، إلا أن ذلك لم يروِ ظمأه فمضى إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهناك سَعِد بلقاء رسول الله ﷺ، وسمع منه ما هزَّ فؤاده هزًّا. فبسط يده له، وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك عبده ورسوله».

ويعود عمار إلى أمه «سُمية» يدعوها للإسلام، فما أسرع أن استجابت لدعوته، ثم اتجه إلى أبيه «ياسر» فدعاه إلى ما دعا إليه أمه، فلم يكن أبوه أقل استجابة من أمه. لتسلم هذه العائلة المباركة. فكان إسلامهم مبكرًا شأن الأبرار الذين هداهم الله.

ليس ذلك فحسب، بل كانوا من أوائل من أظهروا إسلامهم.

فعن عبد الله بن مسعود قال: «أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمار، وأمهم سُمية، وصهيب، وبلال، والمقداد».

صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة

وشأن الأبرار المبكرين، أخذ آل ياسر نصيبهم الأوفى من عذاب قريش وأهواها. فما أن طار خبر إسلامهم حتى استشاط بنو مخزوم غضبًا.

فكانوا يأخذونهم إلى بطحاء مكة، ويلبسونهم دروع الحديد، ويصهرونهم بأشعة الشمس، ويمنعون عنهم الماء، ويتعاقبون عليهم بالضرب، حتى إذا جفت الحلوقة، ويبست العروق، وتشققت الجلود، وسالت الدماء، تركوهم في ذلك اليوم ليعيدوا معهم الكرة في اليوم التالي.

وكان رسول الله ﷺ يخرج إلى حيث علم أن آل ياسر يُعذَّبون مُحيًّا صمودهم وبطولتهم. ولم يكن يومئذ يملك من أسباب المقاومة ما يدفع الأذى عنهم. وذات يوم وهو يعودهم ناداه عمار: يا رسول الله، لقد بلغ منا العذاب كل مبلغ، فقال له رسول الله ﷺ: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة».

فهدأت النفوس المعذَّبة، وقرَّت العيون الشاحصة. وما كان رسول الله ﷺ مواسياً لهم حين قالها، بل كان يُقرر حقيقة يعرفها، ويؤكد واقعاً يُبصره ويراه.

أول شهيدة في الإسلام

لم يطل الأمر بالأبوين كثيراً، فأما سُمية فمر بها أبو جهل وهي تُعذَّب فشمها بأقذع الشتائم، وأسمعها ما تكره.

ولكنها وقفت يومئذ موقفاً يمنح البشرية كلها شرفاً لا ينفذ، وعلمت

البشرية درسًا لا يُنسى. فلم تأبَهُ له رغم ما بها من عذاب. فازداد حُقه، فاستلَّ رحمة وطعنها، فسقطت شهيدة، لتُسَطَّر بدمها سطوراً من النور على جبين التاريخ، ولتكون أول شهيدة في الإسلام.

أما زوجها «ياسر» فما لبث أن استشهد تحت وطأة التعذيب، وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

يا نار كوني برداً وسلاماً على عمار

بعد استشهاد أمه ومن بعدها أبيه، لم يبقَ من هذه الأسرة إلا عمار، الذي لم يشفع له أن رأى أبواه يقتلان أمامه، فلم يزد المشركون إلا أن أذاقوه العذاب ألواناً.

وقد وصف أصحاب عمار بعضاً من العذاب الذي نزل عليه في مواطن كثيرة:

* يقول عمرو بن ميمون: عَذَّب المشركون عمار بن ياسر بالنار، فكان رسول الله ﷺ يعاوده، ويؤمر يده على رأسه، ويقول: «يا نار كوني برداً وسلاماً على عمار، كما كنت برداً وسلاماً على إبراهيم».

* ويقول عمرو بن الحكم: «كان عمار يُعَذَّب حتى لا يدري ما يقول».

إن عادوا إلى مثلها فعُدُّ

لم يُثنِ عمار كل هذا العذاب، من الكي بالنار، إلى الصلب في الرمضاء المُستعرة، إلى غطّه في الماء حتى تختنق أنفاسه. ولم يشعر عمار بالهلاك حقاً إلا ذلك اليوم، الذي فقد فيه وعيه تحت وطأة هول العذاب. فقال له مُعذّبوه: نزل من محمد، واذكر آهتنا بالخير. فجعل يردد وراءهم القول في غير شعور. فلما أفاق من غيبوبة تعذيبه، تذكر ما قال فطار صوابه.

وأقبل على رسول الله ﷺ كاسفاً حزينا. ولم يستطع أن يرفع بصره إلى رسول الله ﷺ. فلما رآه رسول الله ﷺ على هذا الحال، قال له: «ما وراءك يا عمار؟». قال: شرّ مستطير يا رسول الله. فقال: «وما ذاك؟» قال: عُذِّبت أمس حتى نالني من الجهد ما لو نزل بجبل لصدعه.

ولم يكتفوا بما عرَّضوني إليه، بل أحرقوا جسدي بالنار حتى بلغ مني العذاب مبلغه، فأصبحت لا أدري ما أقول.

فما زالوا يُرغمونني على النيْل منك، وذكر آهتهم بخير حتى فعلت. ثم أخذ يبكي بكاءً شديداً.

فقال له رسول الله ﷺ: «فكيف تجد قلبك يا عمار؟» قال: أجده مطمئناً بالإيمان.

فقال: «لا عليك، وإن عادوا إلى مثلها فعُدُّ إلى مثل ما قلت»، ويتم الله نعمته

على عمار فينزل فيه قرآنًا من فوق سبع سموات.. يقول الله تعالى: **{مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}** [النحل: ١٠٦].

أعماله ومناقبه

ويصمد عمار أمام هذا التعذيب في إيمان وإصرار، حتى أجهد جلاديه فتركوه وشأنه.

وهاك بعض من أعماله ومناقبه:

١ - الهجرة: أول مسجد بني في الإسلام

لما أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، كان عمار بن ياسر في طليعة المهاجرين. وما أن بلغ قباء حيث ينزل المهاجرون، حتى دعاهم إلى بناء مسجد يُقيمون فيه الصلاة. فاستجابوا له. فكان المسجد الذي أقامه «عمار بن ياسر» هو أول مسجد في الإسلام.

أسرة مباركة مخلدة

فهل أتتك عزيزي القارئ إجابة السؤال: كيف لهذه الأسرة الفقيرة قليلة المال والنَّسب تُخلد بأحرف من نور على جبين التاريخ. في الوقت الذي

اندثرت فيه عائلات كبيرة، فلم يبقَ لها أي ذكرى، وانطوت في عالم النسيان؟.. إنه الإيمان وطاعة الله والقرب منه.

فلنتأمل أوليات هذه الأسرة المباركة:

- فهذه أول أسرة تُسلم كلها في يوم واحد.
 - وأول أسرة تجهر وتُعلن إسلامها بالكامل
 - وأول أسرة تُعذب بالكامل في وقتٍ واحد.
 - وأول أسرة يُستشهد منها الأب والأم، تحت مرأى ومسمع ابنيهما.
 - وأول مسجد أُسس في الإسلام كان بدعوة من ابنيهما «عمار بن ياسر».
- فما أروعها من أسرة! وما أعظمها من ذكرى! وما أنبلها من مكرمة نالتها هذه الأسرة! فموعدهم الجنة!!

ويهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ويستقر بها. فيلزمه عمار ملازمة العين لأختها، حتى كاد لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً.

٢- أعماله في حياة رسول الله ﷺ

شهد عمار مع رسول الله ﷺ بدرًا، وقاتل تحت راية رسول الله ﷺ، وكان الوحيد الذي خاض هذه المعركة وأبواه مؤمنان شهيدان. ولما قُتل أبو جهل، قال له رسول الله ﷺ: «أبشِّر يا عمار، قد ثأر الله لوالديك»، وشهد

عمار بعد ذلك المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

٣- باقة من مناقبه وفضائله

لقد كان رسول الله ﷺ يبادل عمار حباً بحب، ويباهي أصحابه بهديِهِ وإيمانه.

وهاك باقة من مناقبه وفضائله تُكتب بحروف من ذهب:

* عن علي بن أبي طالب قال: «استأذن عمار على رسول الله ﷺ، فقال: «من هذا؟» فقال: عمار. قال: «مرحباً بالطيب المطيب».

* عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجنة تشتاق إلى ثلاث: علي، وعمار وسلمان».

* عن عليّ أن رسول الله ﷺ قال: «إن عماراً ملئ إيماناً إلى مُشاشه» - أي: إلى ما تحت جلده -.

* يقول خالد بن الوليد: كان بيني وبين عمار كلام فأغلظت له، فشكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ عادى عماراً، عاداه الله، وَمَنْ أبغض عماراً أبغضه الله». يقول خالد: فخرجت وما شيء أحب إليّ من رضى عمار، فطلبت منه العفو فعفا.

* ويقول رسول الله ﷺ: «اقتدوا بالذين من بعدي من أصحابي؛ أبو بكر

وعمر، واهتدوا بهديِّ عمار، وتمسكوا بعهد ابن مسعود».

* لما كان بناء مسجد رسول الله ﷺ، كان الناس يحملون لَبِنَةً، وعمار يحمل لَبِنَتَيْنِ، فرآه رسول الله ﷺ وقد غاضبه أحد الأصحاب ببعض القول. فغضب رسول الله ﷺ وقال: «ما لهم ولعمار؟ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، وَيُحِّ لعمار تقتله الفئة الباغية».

هكذا أحبائي.. ما كان رسول الله ﷺ يحب مسلماً إلى هذا الحدِّ، إلا أن يكون إيمانه وبلاؤه وعظمة نفسه قد بلغت المدى.

وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو راضٍ عن عمار بن ياسر.

٤ - أعماله في عصر الخلفاء

* لما ارتد أكثر العرب عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ وقاتل أبو بكر أهل الردة. فلما كان يوم اليمامة، وقف عمار بن ياسر موقفاً مشهوداً له، فلما اشتد القتال على أصحاب رسول الله ﷺ، وأسرع الموت يخطف حَفَظَةَ القرآن، وزُلزلت الأرض تحت أقدام المسلمين.

عند ذلك ولما رأى عمار فتوراً من المسلمين، وقف على صخرة مُشرفة على ميدان القتال، وقد قُطعت أُذنه وبقيت عالقة برأسه، وقال: «يا معشر المسلمين أَمِنَ الجنة تفرُّون؟ أنا عمار بن ياسر، هلموا إليَّ، ثم مضى أمامهم،

وأذنه تتذبذب على صفحة خده؛ فحملوا بحملته، واندفعوا كالسهام المقذوفة حتى قُتل مُسيلمة الكذاب.

* في فتوحات المسلمين ولقائهم مع الفرس والروم، كان عمار بن ياسر هناك دائماً في الصف الأول، جندياً باسلاً أميناً، لا يخشى الموت ولا يهابه.

أمير الكوفة

ولما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب، وكان يختار ولاته بدقة وتحفظ. فاختار عمار بن ياسر والياً على الكوفة، وجعل معه ابن مسعود على بيت المال. وكتب إلى أهلها: «أما بعد، فإني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً، وابن مسعود معلماً ووزيراً. وإنهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر فاسمعوا لهما وأطيعوا، واقتدوا بهما».

يحمل طعامه فوق ظهره

ولم تزده الولاية إلا تواضعاً وورعاً وزهداً. يقول عبد الله بن الهذيل، وهو من معاصريه في الكوفة: رأيت عمار بن ياسر وهو أمير الكوفة، يشتري من قثائها بدرهم، ثم يربطها بحبل ويحملها فوق ظهره إلى داره.

خير أذني سببت

ويسبُّ واحد من الناس عماراً، وهو أمير الكوفة ويقول له: «يا أجدع الأذن»؛ يعيره بأذنه التي قُطعت يوم اليمامة. فلا يزيد الأمير الذي بيده السلطة والسلطان على أن يقول لشاتمته: «خير أذني سببت؟ لقد أُصيبت في سبيل الله».

ساعتني الإمارة أكثر من الإقصاء عنها

ولما وشى أهل الكوفة بعمار إلى أمير المؤمنين عمر، فعزله، ولم يؤثِّبه. فلما لقيه عمر قال له: أساءك ما فعلته معك يا عمار؟ قال: والله لقد ساءتني الإمارة أكثر من الإقصاء عنها.

الفصل الأخير

أتمنعون الماء عمن اشترى بئر رومة؟

وفي خلافة عثمان ولما أطلت الفتنة برأسها الخبيث على المسلمين، وقد كان عمار من معارضي سياسة عثمان «المعارضة الحميدة»، إلا أن الخلاف لم يُفسد ما بينهما من حب واحترام.

ولقد شهدت الساعات الحرجة التي حاصر فيها المتآمرون بيت الخليفة

«عثمان بن عفان»، ومنعوا عنه الماء، شهدت من عمار موقفاً لا ينساه التاريخ.

فرغم خلافه العميق مع عثمان؛ فقد غضب عمار لما منعوا عنه الماء، وصاح فيهم قائلاً: يا سبحان الله، أتمنعون الماء عمن اشترى بئر رومة ووهبها للمسلمين؟!!

وحمل عمار قربة الماء بنفسه إلى دار الخليفة، متحدياً الحصار، وغير مبالٍ بالأخطار.

ويُدخل الماء على الخليفة ليشرب ويتوضأ. وظل هكذا حتى استشهد الخليفة.

* للمزيد: انظر «حياة العشرة المبشرين بالجنة» للمؤلف.

يوم صفين

لما وقعت الفتنة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، كان عمار في صف عليّ، وكان قد بلغ يومئذ ثلاثة وتسعين عاماً.

اليوم نلقى حبيبنا محمداً

فلما كان يوم صفين، وبدأ القتال وأحسَّ عمار بدنو أجله، قال اتوني بشربة

لبن فشرب، ثم قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن»، ثم تقدم للقتال وهو يصيح: «اليوم نلقى حبيينا محمداً».

الفوز بالشهادة

وما هي إلا لحظات حتى يُستشهد عمار بن ياسر، وتنزف دماؤه الشريفة التي طالما امتزجت بحب الله ورسوله. ولطالما احترقت شوقاً لنصرة دين الله ﷻ.

ولما استشهد حمله الإمام عليٌّ فوق صدره إلى حيث صلى عليه المسلمون، ثم دُفن في ثيابه. ووقف عليٌّ يرثي عماراً، وقال: «رحم الله عماراً يوم أسلم، وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله ﷺ يشك أن عماراً وجبت له الجنة، فهنيئاً لعمار بالجنة».

ويلحق عمار بأبويه ورسول الله ﷺ في الجنة.

فهنيئاً لك يا عمار حُب رسول الله ﷺ.

وهنيئاً لك الجنة التي اشتاقت إليك.

ورضي الله عنك وعن آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة.

سعد بن عبادة

وها نحن الآن على موعد مع نجم آخر من نجوم «الصحبة العطرة»؛ إنه الوحيد من الأنصار الذي نال من أذى قريش مثل إخوانه من المهاجرين. وهو من أهل بيعة العقبة، وأحد النقباء الاثني عشر؛ إنه زعيم الخزرج، وحامل لواء الأنصار «سعد بن عبادة».

نسبه ونشأته

هو: سعد بن عبادة بن ذُليم بن حارثة الخزرجي. كان سعد يُجيد الكتابة، ويُحسن الرمي والسباحة. وكان العرب يُسمون من اجتمعت فيه هذه الصفات «الكامل».

إسلامه

لما كان موسم الحج من السنة الثالثة عشرة من البعثة، وجاء إلى رسول الله ﷺ ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من أهل يثرب جاءوا ليباعوا رسول الله ﷺ. وكان من بين هؤلاء «سعد بن عبادة»، وتمت البيعة، واختار رسول

الله ﷺ منهم اثنا عشر نقيباً، كان من هؤلاء النقباء، زعيم الخزرج «سعد بن عبادة».

ينال حظه من تعذيب قريش

لقد كان طبيعياً أن تنال قريش بعذابها هؤلاء الذين يعيشون بين ظهرانيها، أما أن يتعرض لهذا العذاب رجل من يثرب، وهو ليس مجرد رجل عادي، بل زعيم من زعمائها وسيد من ساداتها، فتلك مزية قُدِّر لسعد بن عبادة أن ينفرد بها دون باقي الأنصار.

فلما تمت البيعة سرّاً، وأصبح الأنصار يتهيؤون للرحيل، علمت قريش بما كان من مبايعة ونصرة لرسول الله ﷺ، فجَنَّ جنونها وراحت تطارد الركب، فلم تُدرِك من رجاله إلا «سعد بن عبادة»، فأخذه المشركون، وربطوا يده في عنقه. ثم أقبلوا به إلى مكة، يضربونه ويُنزلون به كل أنواع العذاب. وكان الذين يضربونه ويعذبونه لا يعرفون مكانته في قومه.

حتى ولو عرفوا، فلن يمنعهم ذلك من تعذيبه. ألمَّ ينالوا من سادة مكة الكثير ممن أسلموا؟ فقد فقدت قريش آنذاك صوابها، فلم تعرف سوى التعذيب سبيلاً لإشفاء أحقادها.

أما بينك وبين أحد من قريش جوار؟

يقول سعد بن عبادة: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع علينا نفر من قريش، بينهم رجل وضيء أبيض، فقلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا. فلما دنا مني رفع يده فلكنني لكمة شديدة، فقلت في نفسي: لا والله، ما عندهم بعد هذا من خير.

فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني، إذ آوى إليَّ رجل ممن كان معهم، فقال: أما بينك وبين أحد من قريش جوار؟

قلت: بلى، لقد كنت أُجير لجُبَيْر بن مُطعم بن عدي ثُجَّارَه، وأمنعهم ممن يريد ظلهم ببلادي، وكنت أُجير للحرث بن حرب بن أمية. قال الرجل: ويحك، فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما من جوار، ففعلت. فخرج ذلك الرجل إليهما فأنبأهما: أن رجلاً من الخزرج يُضْرَب بالأبطح، وهو يهتف باسمهما، ويذكر أن بينه وبينهما جواراً. فسألاه عن اسمي. فقال: «سعد بن عبادة»، فقالا: صدق والله، إنه كان يُجير ثُجَّارنا ويمنعهم أن يُظلموا في بلاده. فجاءا وخلصاني من أيديهم.

وغادر سعد مكة بعد هذا العدوان الذي صادفه، ليعلم كم تتسلح قريش بالجريمة ضد قوم عَزَل يدعون إلى الخير والحق والسلام.

وقد شحذ هذا العدوان عزمه على أن يتفانى في نُصرة رسول الله ﷺ ودين الإسلام.

أعماله ومناقبه

١ - يسخر ماله لخدمة رسول الله ﷺ والمهاجرين

ويهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومن قبله هاجر أصحابه، فكان سعد من أسعد الناس وأكثرهم بهجة بقدوم رسول الله ﷺ وصحبه فسخر أمواله لخدمة رسول الله ﷺ والمهاجرين. فلقد كان سعد بن عبادة جواداً بالفطرة وبالوراثة.

وهاك بعض من مشاهد جوده وكرمه:

* فقد كانت جفنة سعد بن عبادة من الثريد تدور على رسول الله ﷺ في كل يوم أينما دار.

* كان الرجل من الأنصار في كل ليلة ينطلق إلى بيته بالرجل أو الرجلين أو الثلاثة من المهاجرين. أما سعد بن عبادة فكان ينطلق بالثمانين.

الفوز بدعاء رسول الله ﷺ

ومن أجل ذلك كان سعد بن عبادة يسأل الله دائماً المزيد من خيره وورزقه، فكان يقول: «اللهم ارزقني مالاً أستعين به على فعالي، فإنه لا يُصلح الفِعال إلا المال».

ففاز بدعاء رسول الله ﷺ له. يقول رسول الله ﷺ: «جزى الله الأنصار عنا

خيراً، ولا سيما عبد الله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عُبادة».

٢- جهاده وبلاؤه في ميادين القتال

لم يضع «سعد بن عُبادة» ماله وثروته فقط في خدمة الإسلام والمسلمين، بل وضع قوته ومهارته ونفسه فداءً لله ورسوله. فقد كان يُجيد الرماية وكانت له من المواقف الفدائية الكثير مع رسول الله ﷺ في كل المشاهد.

السعدان

لا يُذكر سعد بن عُبادة إلا ويُذكر معه سعد بن مُعاذ، فهما زعيما أهل المدينة. فسعد بن مُعاذ زعيم الأوس، وسعد بن عُبادة زعيم الخزرج. وقد ظلّا معاً في خدمة رسول الله ﷺ ودين الإسلام، حتى استشهد سعد بن مُعاذ.

موقفه يوم بدر

لما كانت غزوة بدر، وأراد رسول الله ﷺ استشارة أصحابه، فتكلم أبو بكر وعمر والمقداد وكلهم من المهاجرين. فأراد رسول الله ﷺ أن يعرف رأي الأنصار فقال: «أشيروا عليّ أيها الناس».

فقال له السعدان (سعد بن مُعاذ وسعد بن عُبادة): لكأنك تُريدنا يا رسول

الله؟ يقصدا الأنصار. فقال: «أجل».

فقال سعد بن عبادة: والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخوض البحر لخنضناه. فكان لمقالة سعد بن عبادة ومن قبله سعد بن مُعَاذ أثر كبير في شحذ الهمم، وكانت المعركة التي نصر الله فيها المؤمنين.

حامل راية الأنصار

يقول ابن عباس: كان لرسول الله ﷺ في المواطن كلها رايتين: مع علي بن أبي طالب راية المهاجرين، ومع سعد بن عبادة راية الأنصار.

موقفه يوم الخندق

وفي غزوة الخندق، لما علم رسول الله ﷺ بخيانة بني قُريظة وأراد أن يتحقق منها فأرسل السعدين للتأكد من الخبر. فتأكدا وعادا إلى رسول الله ﷺ يخبرانه بما سمعاه وما رأياه من بني قُريظة. (انظر فصل حياة سعد بن مُعَاذ).

المشاهد كلها

شهد سعد بن عبادة مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وأبلى فيها بلاءً حسناً.

٣- شخصية قوية شديدة في الحق

لقد تميزت شخصية سعد بن عبادة بطابع القوة والشدة، فهو شديد في الحق، شديد في تشبُّهه بما يرى لنفسه من حق. فهو لا يعرف المُدارة، ولا المُسايرة. وقد أظهرت كثيرٌ من المواقف طبيعة هذه الشخصية.

نذكر منها:

اليوم يوم الملحمة

لما كان يوم فتح مكة، وكان سعد بن عبادة حامل راية الأنصار. فلما رأى مكة مُدعنة مُستسلمة، وتذكَّر كلَّ صور العذاب الذي صبَّته على المؤمنين وعليه هو ذات يوم. وتذكر الحروب التي شتَّتها على المسلمين، فدفعته شدته لتوعد قريش. فقال: اليوم يوم الملحمة.. اليوم أذلَّ الله قريشًا. فلما سمع أبو سفيان ذلك هرع إلى رسول الله ﷺ، وقال: أَمَرْتَ بقتل قومك؟ فإن سعد يزعم أنك قاتلنا، وردَّ ما قاله سعد. فقال رسول الله ﷺ: «بل اليوم يوم الرحمة»، ونزع الراية من سعد وأعطها لابنه قيس.

أين أنت من ذلك يا سعد؟

وتمشيًا مع هذه السجية في شخصية سعد بن عبادة من الصراحة والوضوح،

كان موقفه بين يدي رسول الله ﷺ بُعيد غزوة حُنين.

فلما انتهى المسلمون من تلك الغزوة منتصرين ظافرين بكثير من الغنائم؛ راح رسول الله ﷺ يوزع غنائمها، واهتم اهتمامًا خاصًا بالمولفة قلوبهم. وكانت حكمة رسول الله ﷺ هي تأليف قلوب من كانوا بالأمس أعداءه، خاصة الأشراف الذين دخلوا الإسلام قريبًا، كما أعطى كذلك ذوي الحاجة من المقاتلين.

أما الأنصار فلم يُصيبهم شيء من هذه العطايا. فجعلوا يتحدث بعضهم لبعض، حتى قال قائل منهم: إن هذا لهو العجب، يُعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ فلما سمع زعيم الأنصار «سعد بن عُبادة» هذا الهمس فلم يُرِضه، واستجاب لطبيعته الصريحة، وذهب من فوره إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يُصب هذا الحي من الأنصار منها شيء. فسأله رسول الله ﷺ: «وأين أنت من ذلك يا سعد؟». فأجاب: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي.

هكذا قال الرجل الواضح كل ما في نفسه، وكل ما في أنفـس قومه، وأعطى رسول الله ﷺ صورة أمينة عن الموقف.

رضينا برسول الله قسماً وحظاً

هنالك أمر رسول الله ﷺ بالأنصار دون غيرهم أن يأتوا إليه. فلما اجتمعوا أتاهم رسول الله ﷺ، ودار بينه وبينهم الحوار التالي:

رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟، وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟»

الأنصار: بلى لله ورسوله المنّ والفضل.

رسول الله ﷺ: «ألا تحبوني يا معشر الأنصار؟»

الأنصار: بما نجيبك يا رسول الله؟ لله المنّ والفضل.

رسول الله ﷺ: «أما والله، لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم: أتينا مُكذِّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك. أوجدتم عليّ يا معشر الأنصار في لُعاة - أي: شيء قليل - من الدنيا تألفت بها قوماً يُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعون برسول الله في رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.»

هنالك بكى الأنصار حتى اخضلت لحاهم، وصاحوا جميعاً وسعد بن عبادة معهم: رضينا برسول الله قسماً وحظاً. وعاد رسول الله ﷺ والأنصار معه إلى المدينة.

وظل سعد بن عبادة في خدمة رسول الله ﷺ مخلصاً له ولدينه، حتى مات رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ.

الفصل الأخير

وبعد حياة طويلة مليئة بالجود والكرم، والتضحية والكفاح، يرقد سعد بن عبادة على فراش الموت. وتصعد روحه الطاهرة إلى بارئها، ليلقى رسول الله ﷺ مع الصديقين والنبين والشهداء. وكان ذلك في خلافة عمر بن الخطاب.

فرحمة الله وبركاته عليك يا نصير رسول الله ﷺ.

يا من أخلصت لله فرفعك مع النبين والصديقين.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «سعد بن عبادة».

عبد الله بن سلام

والآن أحبائي تعالوا نستقبل هذا الصحابي الجليل، الذي آمن مرتين، ونزل فيه قرآن يُتلى إلى يوم الدين، وشهد له رسول الله ﷺ بأنه من أهل الجنة؛ إنه «عبد الله بن سلام».

حَبْر من أخبار اليهود

كان الحُصَيْن بن سلام حَبْرًا من أخبار اليهود في يثرب، وكان أهل المدينة على اختلاف مِلَلهم يُجَلُّونه ويوقِّرونه، لما كان عليه من تقوى وصدق وصلاح. وكان الحُصَيْن يُتَسَّم وقته إلى ثلاث:

- قسم في المعبد للوعظ والتعبد.

- قسم في البستان للعناية بزراعته من نخيل وأشجار.

- قسم مع التوراة للتحفة في دين اليهودية.

وكان الحُصَيْن كلما قرأ التوراة فوقعت عيناه على الأخبار التي تُبَشِّر بظهور خاتم الأنبياء، فكان يزداد شوقًا لرؤية هذا النبي، ويهتز فرحًا خاصة لما علم أنه سيهجر بلده (مكة) التي بُعث فيها، وأنه سيهاجر إلى يثرب (المدينة) التي ستكون له مستقرًا ومقامًا.

فأخذ يستقصي أوصاف هذا النبي المرتقب وعلاماته. ولطالما كان يتوجه بالدعاء إلى الله أن يمد في عمره حتى يشهد ظهور هذا النبي، وتكتحل عيناه برؤيته، ويكون أول المؤمنين به.

إسلامه

ويمد الله في عمر الحُصَيْن بن سلام حتى بعثه رسول الهدى والرحمة. ويهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ليحظى الحُصَيْن بلقائه وصحبته، ويكون أول المؤمنين به من اليهود.

والآن أعزائي تعالوا بنا نستمع إلى الحُصَيْن «عبد الله بن سلام» يروي لنا قصة إسلامه.

يقول عبد الله بن سلام: لما سمعت بظهور رسول الله ﷺ أخذت أتحرى عن اسمه ونسبه وصفاته وزمانه ومكانه. وأطابق بينها وبين ما هو مسطور عندنا في الكتب، حتى استيقنت من صدق نبوته. ثم كتمت ذلك عن اليهود. حتى قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، ونزل بقباء.

فنزل علينا رجل وجعل ينادي في الناس معلناً قدمه، وكنت ساعته في رأس نخلة لي أعمل فيها، وكانت عمتي «خالدة بنت الحارث» جالسة تحت شجرة.

فما أن سَمِعَت الخبر حتى هتفت: الله أكبر.. الله أكبر.

فقال لي عمتي: خيِّبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما فعلت شيئًا فوق ذلك. فقلت لها: أي عمّة، إنه والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، وبُعث بما بُعث به. فسكتت، ثم قالت: أهو النبي الذي كنتم تُخبروننا أنه يُبعث مُصدِّقًا لما قبله ومُتمِّمًا لرسالات ربه؟ فقلت: نعم. قالت: فذاك إذن.

أول ما سمعت من رسول الله ﷺ

ثم مضيت من توي - أي: فوراً من غير إبطاء - إلى رسول الله ﷺ، فرأيت الناس يزدحمون ببابه، فزاحمتهم حتى صرت قريباً منه. فكان أول ما سمعته منه قوله: «أيها الناس، أفضوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

عبد الله بن سلام

فجعلت أتفرس فيه، وأتملى منه، فأيقنت أنه هو النبي المرتقب، وأن وجهه ليس بوجه كذاب. فدنوت منه وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فالتفت إليّ وقال: «ما اسمك؟» قلت: الحُصين بن سلام، قال:

«بل، عبد الله بن سلام» فقلت: نعم، عبد الله بن سلام، والذي بعثك بالحق ما أحب أن لي به اسمًا آخر بعد اليوم.

اليهود قوم بُهت

يقول عبد الله بن سلام: فرجعت إلى أهلي ودعوتهم إلى الإسلام فأسلموا جميعًا، وأسلمت معهم عمتي خالدة. ثم كتبت إسلامي عن اليهود. ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ، وقلت له: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت وباطل، وإني أحب أن تسترني عنهم في حجرة من حجراتك، ثم تسألهم عن منزلتي عندهم قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا بإسلامي بهتوني وعابوني. فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض حجراته.

فلما دخل اليهود عليه ساءلوه وجادلوه، فلما يئس من إيمانهم. قال لهم: «ما منزلة الحُصين بن سلام فيكم؟» قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، وعالمنا وابن عالمنا. فقال: «أفرايتم إن أسلم فتسلمون؟». قالوا: حاشا لله، ما كان ليُسلم، أعاده الله من أن يُسلم.

فلما فرغوا من كلامهم، خرجتُ عليهم وقلت: يا معشر اليهود، اتقوا الله، واتبعوا ما جاءكم به محمد، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، وتجدونه مكتوبًا في التوراة باسمه ووصفه. وإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به

وأصدقته وأعرفه.. فقالوا: كذبت، والله إنك لشرنا وابن شرنا جاهلنا وابن جاهلنا، ولم يتركوا عيبًا إلا عابوني به. فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أقل لك إنهم قوم بُهتان وباطل، وأنهم أهل غدر وفجور.

أعماله ومناقبه

ويظل «عبد الله بن سلام» ملازمًا لرسول الله ﷺ: ملازمة العين لأختها، لينهل من علمه وأخلاقه.

وهاك بعض الأوسمة التي وضعها رسول الله ﷺ على صدر «عبد الله بن سلام»، وبعض من مناقبه:

١- بُشْرَى بِالْجَنَّةِ

متمسكًا بالعروة الوثقى

يقول سعد بن أبي وقاص: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض أنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام - يعني: غير العشرة المبشرين -.

ولهذه البشارة قصة يرويها قيس بن عباد فيقول: كنت جالسًا في مسجد

رسول الله ﷺ في حلقة من حلقات العلم، وكان في الحلقة شيخ تأنس به النفس ويستريح له القلب، فجعل يحدث الناس حديثاً حلواً مؤثراً، فلما قام قال القوم: هذا رجل من أهل الجنة. فقلت: من هذا؟ قالوا: عبد الله بن سلام. فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فاستأذنت عليه، فأذن لي. وقال: ما حاجتك يا ابن أخي؟ فقلت له: سمعت القوم يقولون عنك: أنك رجل من أهل الجنة، فمضيت على أثرك لأف ف على خبرك. فقال: الله أعلم بأهل الجنة.

فقلت: نعم، ولكن لا بد لما قالوا من سبب. فقال: سأخبرك عن سببه؛ إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ؛ إذ أتاني رجل فقال لي: قم، فأخذ بيدي، فإذا أنا بطريق عن شمالي، فهممت أن أسلكه فقال لي: دعها فإنها ليست لك، فنظرت فإذا بطريق عن يميني فقال لي: اسلكه، فسلكتها حتى أتيت روضة غناء واسعة الأرجاء كثيرة الخضرة، وفي وسطها عمود من حديد أصله في الأرض ورأسه في السماء وفي أعلاه حلقة من ذهب. فقال لي: اصعد فوق هذا. فقلت: لا أستطيع. فأخذ بيدي ورفعني حتى صرت في أعلى العمود وأخذت بالحلقة واستمسكت بها. واستيقظت وإنما لفي يدي.

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فقصت عليه رؤيائي، فقال: «أما

الطريق التي رأيتها عن يسارك، فهي طريق أصحاب الشمال من أهل النار، أما الطريق التي رأيتها عن يمينك، فهي طريق أصحاب اليمين من أهل الجنة. أما الروضة التي أعجبتك خضرتها فهي الإسلام. وأما العمود فهو عمود الدين. وأما الحلقة فهي العروة الوثقى، ولن تزال متمسكًا بها حتى تموت».

رجل من أهل الجنة يأكل من هذه الفضلة

يقول سعد بن أبي وقاص: أتى لرسول الله ﷺ بقصعة من ثريد، فأكل منها ففضلت منه فضلة، فقال: «يدخل من هذا الفجّ رجل من أهل الجنة، يأكل من هذه الفضلة». قال سعد: كنت تركت أخي عمير بن أبي وقاص يتوضأ فطمعت أن يكون هو، فجاء عبد الله بن سلام فأكلها.

٢- علمه

وكما كان عبد الله بن سلام حَبْرًا من أحبار اليهود، كان أيضًا عالمًا وفقيرًا من علماء المسلمين.

يقول معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة: «التمسوا العلم عند أربعة: أبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام، الذي

كان يهوديًا فأسلم».

له أجران

يقول رسول الله ﷺ: «ثلاثة يُؤْتَوْنَ أجرهم مرتين.. وذكر منهم: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي». فيا لها من منقبة عظيمة فاز بها «عبد الله بن سلام»!

٣- تواضعه

لقد كان حال عبد الله بن سلام، كما هو حال جُلِّ أصحاب رسول الله ﷺ، قمةً في التواضع كما علمهم معلم البشرية الحبيب المصطفى ﷺ. يقول عبد الله بن حنظلة: مرَّ عبد الله بن سلام في السوق، وعليه حزمة من حطب، فقيل له: ما يحملك على هذا، وقد أغناك الله عن هذا؟ فقال: أردت أن أقمع الكبر في نفسي. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر».

الفصل الأخير

وبعد حياة مليئة بالعمل والعلم والتعليم، عاشها عالماً، عابداً، صائماً، قائماً.
 ينام عبد الله بن سلام على فراش الموت لتفيض روحه الطاهرة إلى بارئها،
 وهو مستمسك بالعروة الوثقى، كما بشره رسول الله ﷺ، ليلحق به في
 جنات الرضوان.

فهنيئاً لك يا مَنْ آمنت مرتين فنلت الأجر كفلين.

يا مَنْ بُشِّرَتْ بالجنة.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «عبد الله بن سلام».

أبو أيوب الأنصاري

لو تخيلت عزيزي القارئ أن رسول الله ﷺ، نزل ضيفاً عزيزاً على مدينتك التي تقطن فيها. فكم هو فخر وسعادة وفرح هذا الذي سيفوز بشرف استضافة رسول الله ﷺ في بيته من دون بيوت الناس جميعاً؟ لقد كان هذا هو حال بطلنا «أبو أيوب الأنصاري». فتعالوا معاً نقرب أكثر من حياة هذا الصحابي الجليل.

نسبه

هو: خالد بن زيد بن كليب من بني النجار وكُنيتُه: «أبو أيوب الأنصاري»؛ نسبة إلى الأنصار.

إسلامه

كان أبو أيوب الأنصاري من السابقين للإسلام. فقد أسلم قبل أن تكتحل عيناه برؤية رسول الله ﷺ، فكان من الذين بايعوا رسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية؛ الذين شدوا أيانهم على يمين رسول الله ﷺ مبايعين مناصرين.

أعماله ومناقبه

١ - شرف استضافة رسول الله ﷺ

لما دخل رسول الله ﷺ المدينة مختتماً رحلة هجرته المباركة. ويظفر أبو أيوب الأنصاري بأكرم وأشرف وسام، رفع الله به ذكره، وأعلى في الأنام قدره، حين اختار الله بيته من دون بيوت المسلمين جميعاً لينزل فيه رسول الله ﷺ لما حلَّ في المدينة. وحسبه بذلك فخراً.

ولنزول رسول الله ﷺ، في بيت أبي أيوب قصة... وما أحلاها! وما أروعها من قصة!

المرء مع رَحْله

لما دخل رسول الله ﷺ المدينة ممتطياً ظهر ناقته، وقد تزاخم الناس حول زمامها، كُلُّ يُريد أن يظفر بشرف استضافة رسول الله ﷺ، فكانوا يقودون الناقة سيداً إثر سيد، ويقولون: «أقم عندنا يا رسول الله، فلدينا العدد والعدة والمنعة». فيقول لهم رسول الله ﷺ: «خَلُّوا سبيلها؛ فإنها مأمورة». وتظل الناقة تمضي إلى غايتها، فإذا أجازت منزلاً حزن أهله وأصابهم اليأس، بينما يُشرق الأمل في نفوس من يليهم. وما زالت الناقة تمضي على حالها هذه حتى بلغت ساحة خلاء أمام بيت أبي أيوب الأنصاري وبركت

فيه. فبادر أبو أيوب إلى رسول الله ﷺ يرحِّب به، وحمل رَحْله بين يديه، ومضى به إلى بيته، ودخل معه رسول الله ﷺ، وكان كلما طلب أحدٌ من رسول الله ﷺ أن ينزل عنده كان يقول: «المرء مع رَحْله».

كُن أنت في العلو يا رسول الله

كان منزل أبي أيوب يتألف من طابقين، فأخلى الطبقة العُلْيا لينزل فيها رسول الله ﷺ، لكن رسول الله ﷺ آثر الطبقة السفلى، فامتثل أبو أيوب لرغبته. ولما أقبل الليل، وآوى رسول الله ﷺ إلى فراشه، وصعد أبو أيوب وزوجه إلى العُلْية. وما أن انتبه أبو أيوب إلى هذا الوضع حتى قال لزوجته: أنمشي فوق رأس رسول الله ﷺ؟ ولم تسكن لهما ساكنة إلا حين انحازا إلى جانب العُلْية الذي لا يقع فوق رسول الله ﷺ، والتزما ألا يبرحانه. فلما أصبح الصبح قالوا لرسول الله ﷺ: والله ما أغمض لنا جفن الليلة. فقال رسول الله ﷺ: «وفيم ذاك يا أبا أيوب؟». قال: تذكرت أني وزوجتي على ظهر بيت أنت تحته، وأنا إذا تحركنا تناثر عليك الغبار، فكن أنت في العُلْو يا رسول الله، ونكون نحن في السُّفل.

فقال له رسول الله ﷺ: «هون عليك يا أبا أيوب، إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفلى البيت». يقول أبو أيوب: فامتثلت لأمر رسول الله ﷺ إلى

أن كانت ليلة باردة، فانكسرت لنا جَرَّة وأريق ماؤها في العُلية، فقمتم إلى الماء أنا وأم أيوب وليس لدينا إلا قطيفة كنا نتخذها لحافاً، وجعلنا نمسح بها الماء خوفاً من أن يصل إلى رسول الله ﷺ.

فلما كان الصباح غدوت إلى رسول الله ﷺ، وقصصت عليه خبر الجرَّة، وما زلت أستعطفه ليكون في العُلية حتى استجاب، وصعد إلى العلية، ونزلنا أنا وأم أيوب إلى السُّفل.

سبعة أشهر في بيت أبي أيوب

أقام رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب نحواً من سبعة أشهر، حتى تم بناء مسجده. وكان أبو أيوب يصنع الأكل كل يوم، ثم يبعث به إلى رسول الله ﷺ يأكل منه أولاً ثم يأكلوا من بعده. وفي يوم بعثوا إليه عشاء فيه ثوم وبصل، فردَّه رسول الله ﷺ دون أن يأكل منه شيئاً. فجاءه أبو أيوب جزعاً، وقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك. فقال رسول الله ﷺ: «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة (الثوم والبصل) وإني رجل أناجي الناس، أما أنتم فكلوه». فأكله أبو أيوب وزوجه، ولم يصنع له بعد ذلك طعاماً فيه ثوم أو بصل.

دار الأرقم ودار أبي أيوب

وينال أبو أيوب هذا الشرف الذي لا يُدانيه شرف، وتكون داره منارة للدعوة في المدينة، انطلقت منها بداية نفحات الإيمان بالمدينة. كما كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم هي منارة الدعوة الإسلامية في مكة؛ فقد اتخذ رسول الله ﷺ من داره مقراً للدعوة طوال فترة إقامته بها، وكان الناس يغدون ويروحون على داره ليقتبسوا من نور الحق والهدى.

فكان نزول رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب بأمر من الله، منقبة عظيمة لأبي أيوب، ويا لها من منقبة!

٢- كرمه ومحبه لرسول الله ﷺ

وبعد أن تم بناء مسجد رسول الله ﷺ وحجرته، انتقل رسول الله ﷺ من بيت أبي أيوب إلى بيته.. ويُصبح أبو أيوب وزوجه ليجدا بيتها الذي كان عامراً بنور المصطفى ﷺ وبالوحي الذي ينزل عليه، وبالصحبة العطرة من «الصحب الكرام» التي تملأ البيت كل يوم. يجدا هذا البيت أصبح خاوياً، وهو ما أحزنهما حزناً شديداً.

جارُّ لرسول الله ﷺ

ولكن ما خَفَّف من هذا الحزن والألم، هو أن رسول الله ﷺ انتقل إلى بيته الذي هو أمام بيت أبي أيوب، فغداً جاراً لرسول الله ﷺ وكما أحب أبو أيوب رسول الله ﷺ حباً ملك قلبه ولُّبهُ، أحب رسول الله ﷺ أبا أيوب حباً أزال الكلفة فيما بينهما، وجعل ينظر إلى بيت أبي أيوب كأنه بيته، يزوره كل حين.

ما أخرجنا إلا ما نجده من شدة الجوع

يقول ابن عباس: خرج أبو بكر بالهاجرة - أي: وسط النهار في شدة الحر - إلى المسجد فرآه عمر فقال: يا أبا بكر ما أخرجك في هذه الساعة؟ فقال: ما أخرجني إلا ما أجد من شدة الجوع. فقال عمر: وأنا والله، ما أخرجني غير ذلك. فبينما هما كذلك؛ إذ خرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: «ما أخرجكما هذه الساعة؟». قالوا: والله ما أخرجنا إلا ما نجده في بطوننا من شدة الجوع. قال رسول الله ﷺ: «وأنا والذي نفسي بيده، ما أخرجني غير ذلك، فوما معي». فانطلقوا فأتوا باب أبي أيوب الأنصاري، وكان أبو أيوب يدَّخر كل يوم طعاماً لرسول الله ﷺ: فإذا أبطأ عنه ولم يأت إليه في حينه، أطعمه أهله.

فلما بلغوا الباب خرجت إليهم أم أيوب، وقالت مرحباً بنبي الله ومن معه. فقال لها رسول الله ﷺ: «أين أبو أيوب؟» فسمع أبو أيوب صوت رسول الله ﷺ، وكان يعمل في نخل قريب له؛ فأقبل يُسرع ويقول: مرحباً برسول الله وبمن معه، ثم أتبع قائلاً: يا نبي الله، ليس هذا بالوقت الذي تجيء فيه. فقال رسول الله ﷺ: «صدقت». ثم انطلق أبو أيوب إلى نخيله فقطع منه عِدْقاً - غصن له شَعَب - فيه تمر، ورُطِب - ما نضج من تمر النخل، وبُسْر - تمر لم يكتمل نضجه - . فقال له رسول الله ﷺ: «ما أردت أن تقطع هذا، ألا جنيت لنا من تمره؟» قال: يا رسول الله أحببت أن تأكل من تمره ورُطبه وبُسره، ولأذبحن لك أيضاً. قال: «إن ذبحت فلا تذبحن ذات لَبْن».

بادر بهذه القطعة إلى فاطمة

فأخذ أبو أيوب جدياً فذبحه، ثم قال لامرأته: اعجني واخيزي لنا. ثم أخذ بنصف الجدي فطبخه، وعمد إلى النصف الآخر فشواه، فلما نضج الطعام وضعه بين يدي رسول الله ﷺ وصاحبيه، فأخذ رسول الله ﷺ قطعة من الجدي ووضعها في رغيف، وقال: «يا أبا أيوب، بادِرْ بهذه القطعة إلى فاطمة، فإنها لم تُصَبْ مثل هذا منذ أيام».

فلما أكلوا وشبعوا قال رسول الله ﷺ: «خبز، ولحم، وتمر، وبُسْر، ورُطِب؟»

ودمعت عيناه ثم قال: «والذي نفسي بيده إن هذا هو النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة. فإذا أصبتم مثل هذا، فضربتم بأيديكم فقولوا: بسم الله، فإذا شبعتم فقولوا: الحمد لله الذي أشبعنا وأنعم علينا من فضله».

استوصِ بها خيراً

ثم نهض رسول الله ﷺ وقال لأبي أيوب: «ائتنا غداً». وكان رسول الله ﷺ لا يصنع له أحد معروفاً إلا أحب أن يُجازيه عليه، لكن أبا أيوب لم يسمع ذلك. فقال له عمر: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تأتيه غداً يا أبا أيوب. فقال أبو أيوب: سمعاً وطاعة لرسول الله.

فلما كان الغد، ذهب أبو أيوب إلى رسول الله ﷺ فأعطاه جارية صغيرة كانت تخدمه، وقال له: «استوصِ بها خيراً يا أبا أيوب، فإننا لم نر منها إلا خيراً ما دامت عندنا»، وعاد أبو أيوب إلى بيته ومعه الجارية، فلما رأتها أم أيوب قالت: لمن هذه يا أبا أيوب؟ قال: إنها إلينا منحنا إياها رسول الله ﷺ فقالت: أعظمُ به من مانح! وأعظمُ بها من منحة! فقال: وقد أوصاني بها خيراً. فقالت: وكيف نصنع بها حتى نُنفذ وصية رسول الله ﷺ؟ فقال: والله، لا أجد لوصية رسول الله ﷺ بها خيراً من أن أعتقها. فقالت: هُديت إلى الصواب، فأنت موفق.. ثم أعتقها.

مصعب بن عُمير أخ لأبي أيوب

وظل أبو أيوب ملازمًا لرسول الله ﷺ في حِلِّه وترحاله. وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين مصعب بن عُمير.

٣- موقفه من حادثة الإفك

وتأتي حادثة الإفك، التي دبرها وتولى كبرها رأس المنافقين «عبد الله بن أبي بن سلول»، والتي أراد بها رسول الله ﷺ ليناؤها منه في بيته، بعد ما فشلوا في النيل منه في ميادين القتال.

ويقف أبو أيوب من هذه الحادثة موقفًا سجَّله التاريخ بأحرف من ذهب، بل ونزل فيه قرآن يُتلى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة.

فلما كانت الحادثة التي خاض فيها كثير من الناس. فقالت أم أيوب لزوجها: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله.

قال: فعائشة والله خير منك.. فهذا إفكٌ مُبين؛ فنزل قوله تعالى: **{لَوْلَا إِذْ**

سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ}

[النور: ١٢]. يقول الحافظ ابن كثير في هذه الآية: "نزلت في أبي أيوب

الأنصاري وامرأته".

٤- علمه وحرصه على التعلم

لقد كان أبو أيوب الأنصاري شديد الحرص على العلم والتعلم؛ فقد نهل من فيض رسول الله ﷺ ما نهل. وقد روى عن رسول الله ﷺ أكثر من خمسين حديثاً.

رحلته إلى مصر

ومن شدة حرصه على العلم والتعلم كان دائماً يتحرى الدقة فيما ينقل عن رسول الله ﷺ، فأراد يوماً أن يستوثق من حديث سمعه من رسول الله ﷺ، ولم يبقَ أحدٌ سمعه غيره إلا «عُقبة بن عامر» وهو بمصر. فركب أبو أيوب راحلته وسافر من المدينة إلى مصر ليسأل عُقبة عن الحديث.

فلما وصل مصر أتى منزل والي مصر «مسلمة بن مخلد الأنصاري»؛ فلما خرج إليه وعانقه، قال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ قال: حديثٌ سمعته من رسول الله ﷺ، لم يبقَ أحدٌ سمعه غيري وغير عُقبة بن عامر، فأبعث معي من يدلني على منزله. فبعث معه من يدلّه على منزل عُقبة.

فلما لقيه عُقبة عانقه، وقال له: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ في ستر المؤمن لم يبقَ أحدٌ سمعه غيري وغيرك. قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ ستر مؤمناً في الدنيا، ستره الله

يوم القيامة». فقال أبو أيوب: صدقت.

ثم انصرف إلى راحلته فركبها وعاد إلى المدينة من دون أن يمكث في مصر أي وقت. فقد جاء في مهمة أداها وقفل عائداً إلى المدينة. هكذا كان حرصه على أمانة نقل الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

٥- جهاده

إلى جانب ما تقدم من بعض صور حياة أبي أيوب الأنصاري في سلمه؛ فقد كان عظيماً في حربه وجهاده في سبيل الله.

انفروا خفافاً وثقالاً

عاش أبو أيوب حياته غازياً في سبيل الله. فقد شهد مع رسول الله ﷺ غزوة بدر، وأحد، والخندق، وكل المشاهد. وبعد وفاة رسول الله ﷺ لم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون إلى زمن معاوية بن أبي سفيان، إلا إذا كان منشغلاً عنها بأخرى، وكان شعاره الذي يردده دائماً قول الله تعالى: **{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** [التوبة: ٤١].

الفصل الأخير

وتستمر رحلة العطاء والتضحية مع بطلنا الجليل، حتى أصبح شيخاً طاعناً في السن يجبو نحو الثمانين من عمره. ليسطرَّ أبو أيوب الأنصاري الفصل الأخير من حياته. بل ويسطر على جبين التاريخ صورة من أزهى صور النقاء والفداء.

فلم يمنعه تقدم سنِّه من أن يكون غازياً في سبيل الله. فلم يكد يُبصر جيش المسلمين يتحرك نحو القسطنطينية، حتى ركب فرسه وحمل سيفه، وخاض البحر مع المسلمين بحثاً عن النصر أو الشهادة في سبيل الله.

هل لك من حاجة يا أبا أيوب؟

ولم يمرض غير قليل على منازل العدو حتى مرض أبو أيوب مرضاً أفعده عن مواصلة القتال. فجاءه قائد الجيش «يزيد بن معاوية» ليعوده وسأله: هل لك من حاجة يا أبا أيوب؟

فقال: إذا أنا مت، فاحملوني فوق فرسي وتوغلوا بي في أرض العدو إلى أبعاد غاية، وهناك ادفنوني.

وما أن انتهى من وصيته حتى لفظ أنفاسه الطاهرة.

يزيد يُنجز الوصية

وينجز يزيد بن معاوية وصية أبي أيوب؛ فكثروا على جند العدو كَرَّة بعد كَرَّة، حتى بلغوا أسوار القسطنطينية، وهم يحملون أبا أيوب معهم. وهناك حفروا له قبراً ودفنوه فيه. وفي القسطنطينية -هي اليوم إسطنبول - ثوى جثمان هذا الصحابي الجليل. فقد أراد أن يكون مثواه الأخير حيث يزحف جيش المسلمين، حتى يسمع وَقَع حوافر خيولهم فوق قبره. فيدرك آنذاك أنهم قد أدركوا ما يبتغون من نصر وفوز.

الروم يستسقون به إذا قحطوا

ومن العجب، بل من الكرامات التي اختص الله بها «أبا أيوب الأنصاري»، أنه لما علم الروم بمكان قبره كانوا يتعاهدونه بالزيارة، ويدعون الله عنده إذا قَلَّ المطر.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من اختصك الله بضيافة المصطفى ﷺ.

يا من اختصك الله بنور البصيرة، ليكون مثواك الأخير على أسوار

القسطنطينية.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «أبا أيوب الأنصاري».

زيد بن أرقم

والآن أعزائي، نحن على موعد مع زهرة جديدة من أزاهير «الصحبة العطرة»، صحابي أخلص لله ولرسوله، فكَّرمه الله بأن أنزل فيه قرآنًا مُصدقًا له ومؤيدًا لمقاتله. فيعيش في كَنَف رسول الله ﷺ ورعايته. إنه الصحابي الجليل «زيد بن أرقم».

نسبه ونشأته

هو: زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الخزرجي. نشأ زيد يتيم الأبوين، فعاش في كَنَف أحد سادات الخزرج «عبد الله بن رواحة»، الذي كان يرعاه ويوجِّهه، فعوّضه عن فقد أبويه.

إسلامه

* لما ذهب عبد الله بن رواحة للحج مع قومه وعشيرته. وكان اللقاء مع رسول الله ﷺ، وتمت بيعة العقبة الثانية التي كان ابن رواحة فيها أحد المبايعين، وواحدًا من النقباء الاثني عشر.

* ويعود ابن رواحة إلى المدينة سعيداً فَرِحًا بما حَقَّق، ويبدأ في حمل أمانة الدعوة، وسرعان ما استجاب له زيد بن أرقم، وكثير من أهل المدينة.

* ويهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ويسعد زيد بن أرقم، كما هو حال كل أهل المدينة، يسعدون بقدوم رسول الله ﷺ سعادةً بالغة ملأت النفوس بهجةً وسرورًا.

مناقبه

ظل زيد بن أرقم ملازمًا لرسول الله ﷺ ملازمة العين لأختها، ينهل من هديه وأخلاقه.

وهاك بعض من مناقبه:

١ - بناء مسجد رسول الله ﷺ

على الرغم من صِغَر سِنِّه، إلا أن زيد بن أرقم كان من المسارعين إلى المشاركة في بناء مسجد رسول الله ﷺ.

٢ - حرصه على الجهاد

كان زيد بن أرقم، ورغم حداثة سِنِّه، كان شديد الحرص على الجهاد في سبيل الله. ففي غزوة بدر عرض نفسه على رسول الله ﷺ، ولكنه رُدَّه

لصغر سنّه مع ثلّة من أقرانه، وكذلك كان الحال في غزوة أُحد.
 أما فيما بعدها ومع إصراره على الجهاد في سبيل الله، فقد أجازه رسول الله
 ﷺ، فقد شهد كل المشاهد مع رسول الله ﷺ، وكان قد نضج وأصبح مُعدًّا
 لخوض القتال.

٣- الصبر ووعد بالجنة

ويعلم رسول الله ﷺ زيداً درساً في الصبر. يقول زيد بن أرقم: رمدت،
 فعادني رسول الله ﷺ فقال: «أرأيت يا زيد إن كانت عينك لما بهما، كيف
 تصنع؟». قلت: أصبر وأحتسب. فقال رسول الله ﷺ: «إن فعلت دخلت
 الجنة».

٤- دوره في غزوة بني المصطلق

وتأتي غزوة بني المصطلق ليُكتب لزيد بن أرقم منقبة عظيمة، وينزل فيه
 قرآن يُتلى إلى يوم القيامة مُصدقاً لقوله ومؤكداً عليه..
 ولهذه المنقبة العظيمة قصة فيها عبرة:

فقد بلغ رسول الله ﷺ أن الحارث بن أبي ضرار - زعيم بني المصطلق -
 يجمع قومه يريد حرب رسول الله ﷺ وقتله. فخرج لهم رسول الله ﷺ،

وجعل لواء المهاجرين لأبي بكر، ولواء الأنصار لسعد بن عُبادة. وسار رسول الله ﷺ ومن معه حتى لقيهم على ماء يُقال له المُرَيْسِيع، فاقتتل الناس، وهزم الله بني المُصْطَلِق. ولما فرغ رسول الله ﷺ من الغزوة أقام على المُرَيْسِيع كعادة المنتصر لعدة أيام.

المنافقون والفتنة بين المسلمين

كان قد خرج مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة رَهْطٌ من المنافقين، وعلى رأسهم «عبد الله بن أبي بن سلول»، لا رغبة في الجهاد ولا طمَعًا في إدخال الفشل على جيش المسلمين -كعادتهم-، ولكنهم خرجوا ليُصَيِّبُوا من الغنائم، إذ كانوا يوقنون بانتصار المسلمين، فكان خروجهم في مظهر المؤمن المجاهد. وقد صدق ظنهم، وأنعم الله على المسلمين بالنصر ووفرة الغنائم. وبينما الناس على المُرَيْسِيع، تزاحم رجلان على الماء للسقيا؛ سنان بن وبر الجُهَني (من الأنصار)، وجَهْجَاه بن مسعود الغفاري، وكان أجيراً لعمربن الخطاب (من المهاجرين). فاشتبك دلو سنان بدلو جَهْجَاه، فتنازعا فضرب جَهْجَاه سناناً.

فنادى سنان: يا معشر الأنصار، وصاح جَهْجَاه: يا معشر المهاجرين. فأقبل جمعٌ من الأنصار وجمعٌ من المهاجرين، وشهروا السلاح حتى كادت

تكون فتنة.

فلما سمع بها رسول الله ﷺ خرج إليهم وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟، دعوها فإنها فتنة»؛ فترك المضروب حقه، وهدأت الفتنة.

لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل

ولكن كان هناك من لا يريد للفتنة أن تهدأ، فلما علم عبد الله بن أبي بها حدث، وكان جالسًا في رهط من قومه؛ فقال: أو قد فعلوها؟، نافرونا، وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأولين: سَمَّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل. يقصد بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ.

زيد بن أرقم يُبلغ رسول الله ﷺ بمقولة عبد الله بن أبي

وكان من بين القوم الذين أطلق عبد الله بن أبي لسانه أمامهم بطلنا «زيد بن أرقم»، وكان غلامًا حدثًا، لم يحسب له القوم حسابًا لصغر سنّه، وكان الغلام صادق الإيمان، شديد الحب لرسول الله ﷺ. فلم يعجبه مقالة بن أبي، فذهب إلى رسول الله ﷺ وعنده بعض أصحابه من المهاجرين والأنصار.

ونقل زيد المقالة لرسول الله ﷺ فتغير وجهه، فقال عمر بن الخطاب: "مُرُّ أحدنا فيقتله يا رسول الله".

حِكْمَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَحْسُمُ الْفِتْنَةَ

وهنا ظهر رسول الله ﷺ كدأبه مظهر القائد المحنك والحكيم. فلما سمع من عمر ما قاله، التفت إليه وقال: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس، وقالوا: إن محمداً يقتل أصحابه؟».

لكن رسول الله ﷺ في الوقت نفسه قدّر إنه إن لم يتخذ حُطَّةً حازمة فقد يستفحل الأمر. لذلك أمر أن يؤذن في الناس بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل فيها المسلمون، فارتحل الناس.

فلما علم بذلك أُسيد بن حُضَيْرٍ - أحد أشراف الأنصار - فسأل رسول الله ﷺ عن سبب أمره بالرحيل في وقت لم يعهد لها الناس.

فقال رسول الله ﷺ: «أوما بلغك ما قال صاحبكم؟»

قال: وأي صاحب يا رسول الله؟

قال: «عبد الله بن أُبي، زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل».

فقال أُسيد: أنت والله يا رسول الله تُخرجه إن شئت، وهو والله الذليل وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فو الله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوّجوه، فإنه يرى أنك استلبت مُلكه.

ابن أبي ينفى مقولته

أما ابن أبي فلما علم أن زيد بن أرقم قد بَلَغ الخبر. فجاء إلى رسول الله ﷺ مهرولاً يحلف بالله أنه ما قال شيئاً من هذا.

فقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام -أي: زيد بن أرقم- قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل. فقبل رسول الله ﷺ عُذر ابن أبي، ولكنه لم يُغير قراره بالرحيل.

أصابني غمّ لم يُصبني مثله

وراح الأنصار يلومون زيدا ويكذبونه، وكانوا يقولون: إنَّ عبد الله بن أبي شيخ كبير، ولا يُصدّق عليه كلام غلام مفتون.

وهو ما أصاب زيد بالحزن الشديد. يقول زيد: فأصابني غم لم يُصبني مثله قط، وقال لي عمي: ما أردت إلا أن كذّبتك رسول الله ﷺ ومقتك؟

إن الله قد صدّقك

أما زيد فاستحى وصار يبعد عن رسول الله ﷺ ويخشى ملاقاته، حتى أنزل

الله القرآن مُصدَّقاً له: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُسُوا لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: ٧، ٨]؛ فلما نزلت تلك الآيات على رسول الله ﷺ، أرسل إلى زيد وقال له: «إن الله قد صدَّقك». وهكذا أنزل الله قرآناً ليُصدِّق زيد بن أرقم، وليدافع عنه كما دافع هو عن رسول الله ﷺ. وكان لهذه الحادثة أثر كبير في حياة زيد بن أرقم، ومنزلته بين أصحاب رسول الله ﷺ، فقد علا شأنه وازداد احترام الناس له، رغم حداثة سنه.

٥- غزوة مؤتة وفراق الأحبة

ويعيش زيد بن أرقم في رعاية وكنف عبد الله بن رواحة - كما أسلفنا - حتى كان يوم مؤتة حيث أمر رسول الله ﷺ «زيد بن حارثة» على جيش المسلمين، وقال: «إن قُتل زيد فجعفر، وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة» - وقد ذكرنا فيما سبق أخبار موقعة مؤتة بالتفصيل -.

وخرج زيد بن أرقم مع عبد الله بن رواحة الذي طالما أحسن إليه وربَّاه. يقول زيد بن أرقم: «كنت يتيمًا في حجر ابن رواحة، فخرج بي معه إلى مؤتة

مُردفي على حقيية رحله».

وخرج القوم وانتهت المعركة باستشهاد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة. ويعود زيد بن أرقم من مؤتة وقد فقد حبه الذي كفله ورباه وأحسن إليه؛ «عبد الله بن رواحة»، فحزن عليه حزناً شديداً.

الفصل الأخير

وظل «زيد بن أرقم» ملازماً لرسول الله ﷺ حتى توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ. وبقي زيد عابداً زاهداً مجاهداً. وقد عرف الصحابة له قدره ومكانته، فحملوا له كل الحب والإجلال. وبعد حياة مليئة بالبذل والعطاء، يرقد بطلنا على فراش الموت لتفيض روحه الطاهرة إلى بارئها، ليلحق برسول الله ﷺ وصحبه في جنات النعيم.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من نزل القرآن مصدقاً لك.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «زيد بن أرقم».

عبد الله بن أم مكتوم

والآن أعزائي، لنا إطلالة على هذا النجم من نجوم «الصحب الكرام»، لنقتدي به؛ إنه مَنْ نزل فيه قرآن يُتلى إلى يوم القيامة مرتين؛ مرة عُوتِبَ فيه رسولُ الله ﷺ، ومرة أخرى استجاب ربه لنجواه ودعائه؛ إنه الصحابي الجليل «عبد الله بن أم مكتوم».

نسبه ونشأته

اختلف على اسمه، فسماه أهل المدينة «عبد الله»، أما أهل العراق فكانوا يدعونه «عمرًا». أما أبوه: فهو قيس بن زائدة ولا خلاف عليه. وأمه: عاتكة بنت عبد الله. ولقد دُعيت بأم مكتوم لأنها ولدتها أعمى مكتومًا. وتربط «ابن أم مكتوم» برسول الله ﷺ صلة رحم، فقد كان ابن خال أم المؤمنين «خديجة بنت خويلد» -رضي الله عنها-.

إسلامه

لما أشرقت الأرض بنور الإسلام، شرح الله صدر «عبد الله بن أم مكتوم»

فكان من السابقين إلى الإسلام.

وقد نال نصيبه من أذى قريش وبطشها، وعانى كما هو حال السابقين الأولين.

إلا أنه ورغم فقدانه لبصره، فلم تَلِنْ له عزيمة، ولم تفتّر له حماسة، ولم يضعف إيمانه. إنما ازداد استمساكاً بدين الحق، وتعلقاً بكتاب الله، وحرصاً على تعلُّمه، وإقبالاً على رسول الله ﷺ.

أعماله ومناقبه

عبس وتولى

بلغ من حرص «ابن أم مكتوم» على تعلُّم القرآن والتفقه فيه، أنه كان لا يترك فرصة إلا اغتنمها في تعلُّم هدايات الوحي.

فكان يسأل رسول الله ﷺ وحوله رجال يستمعون له، أو وهو في طريقه إلى الكعبة، أو في أي مكان.

وقد كان رسول الله ﷺ في هذه الأثناء كثير التصدي لسادات قريش، شديد الحرص على إسلامهم. فالتقى يوماً بعُتْبَة بن ربيعة وأخيه شيبه وعمرو بن هشام (أبو جهل) وأمّية بن خلف والوليد بن المغيرة، وظل يُفاوضهم

ويناجيهم، ويعرض عليهم الإسلام؛ طمعًا في أن يستجيبوا ويكفُّوا أذاهم عن المسلمين، ويزداد الإسلام بهم قوة.

وفيما هو كذلك أقبل عليه «عبد الله بن أم مكتوم» يسأله عن آية في الكتاب ويُلح عليه.

وودَّ رسول الله ﷺ لو كفَّ ابن أم مكتوم ساعته تلك؛ ليتمكن من مخاطبة سادة قريش، فعبس رسول الله ﷺ في وجهه وأعرض عنه، وولَّى وجهه نحو أولئك النفر من قريش وأقبل عليهم.

وما أن قضى رسول الله ﷺ حديثه معهم وفرغ من نجواهم حتى نزل قوله تعالى معاتبًا رسول الله ﷺ في ابن أم مكتوم: {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَا مِنْ اسْتَعْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَكِّي وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١-١٦].

مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي

ست عشرة آية نزلت على قلب رسول الله ﷺ في شأن «عبد الله بن أم مكتوم»، لا تزال تُتلى إلى يومنا هذا، وستظل تُتلى إلى يوم القيامة.

ومنذ ذلك الوقت ما فتى رسول الله ﷺ، يُكرم عبد الله بن أم مكتوم، وكلما رآه مقبلاً عليه، بسط له رداءه، وقال: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي»، ويسأله عن شأنه ويقضي له حاجته.

الهجرة إلى المدينة

ولما اشتد إيذاء قريش لرسول الله ﷺ والذين آمنوا معه. أذن رسول الله ﷺ لصحبه بالهجرة. فكان عبد الله بن أم مكتوم أسرع القوم مفارقة لوطنه وفراراً بدينه.

يقول البراء: «أول من قدم علينا، مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلنا يُقرئان الناس القرآن». وهكذا كان ابن أم مكتوم هو ومصعب بن عمير أول من قدم إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ، وظلا يُعلمان الناس شرائع الدين ويهيأ قلوبهم لاستقبال الحبيب ﷺ.

بلال وابن أم مكتوم مؤذنان

ولما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة اتخذ عبد الله بن أم مكتوم وبلال بن رباح مؤذنين للمسلمين يصدعان بكلمة التوحيد كل يوم خمس مرات. فكان بلال يؤذن، وابن أم مكتوم يُقيم الصلاة. وربما أذن ابن أم مكتوم، وأقام

بلال.

ولقد كان لبلال وابن أم مكتوم في رمضان شأن آخر؛ فقد كان المسلمون في المدينة يتسحرون على أذان أحدهما، ويُمسكون على أذان الآخر. فكان بلال يؤذن ويوقظ الناس، فإذا أذن ابن أم مكتوم كان إيذاناً بالامتناع عن الطعام والشراب وإمساك الصائمين.

استجابة الله لدعائه

لما أنزل الله من القرآن ما يرفع به شأن المجاهدين، ويُفصلهم على القاعدين، أثار ذلك في نفس ابن أم مكتوم، وعزَّ عليه أن يُحرِّم من هذا الفضل. فقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت. ثم توجه إلى الله متضرعاً: «اللهم أنزل عُذري.. اللهم أنزل عُذري»؛ فما أسرع أن استجاب الله لدعائه!

يقول زيد بن ثابت - كاتب الوحي لرسول الله ﷺ -: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فنزل عليه الوحي وقال: اكتب يا زيد: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدين في سبيل الله»، فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُمليها عليّ. فقال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى -.

فما انقضى كلامه حتى نزل الوحي على رسول الله ﷺ فقال: «اقرأ ما كتبت». فقرأت: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين»، فقال: «اكتب: غير أولي الضرر». فكانت الآية: **{ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }** [النساء: ٩٥].

وهكذا كرم الله ﷺ ابن أم مكتوم، وأنزل فيه قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة مرتين: الأولى، لما عاتب الله ﷺ رسوله الكريم ﷺ - فيه، «عبس وتولى...». والثانية، لما أنزل الله ﷺ عُذْرَهُ «غير أولي الضرر». فيا لها من منقبة عظيمة نالها ابن أم مكتوم!

حرصه على الجهاد

على الرغم من أن الله ﷺ قد أعفى عبد الله بن أم مكتوم وأمثاله من الجهاد، إلا أنه أبى أن يقعد مع القاعدين، وعقد العزم على الجهاد في سبيل الله. فحرص على ألا تفوته غزوة، وحدد لنفسه وظيفة في ساحات القتال. فكان يقول: أقيموني بين الصفين، وحملوني اللواء أحمله لكم وأحفظه، فأنا أعمى لا أستطيع الفرار.

رسول الله ﷺ يستخلفه على المدينة

وقد بلغ من إكرام رسول الله ﷺ لابن أم مكتوم، أن استخلفه على المدينة عند غيابه بضع عشرة مرة. كانت إحداها يوم غادرها لفتح مكة.

الفصل الأخير

ويستمر فيض العطاء لهذا الصحابي الجليل «عبد الله بن أم مكتوم»، ورغم أنه مكفوف البصر، فقد ظل يخدم دينه في كل الميادين علمًا وفقهًا وجهادًا. حتى كانت السنة الرابعة عشرة للهجرة لما عقد عمر بن الخطاب العزم على أن يخوض مع الفرس معركة فاصلة، تُزيل دولتهم وتفتح الطريق أمام المسلمين. فكتب إلى عماله يقول: "لا تدعوا أحدًا له سلاح، أو فرس، أو خبرة، أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليَّ".

الفوز بالشهادة

فطفقت جموع المسلمين تُلبي نداء الفاروق، وتنهال على المدينة من كل حذب وصوب. وكان من جملة هؤلاء المكفوف البصر «عبد الله بن أم مكتوم».

فأمّر الفاروق على جيش المسلمين «سعد بن أبي وقاص»، ولما بلغ الجيش

«القادسية» برز عبدالله بن أم مكتوم لابساً درعه مستكملاً عُدَّته. وندب نفسه لحمل راية المسلمين والحفاظ عليها، أو الموت دونها. والتقى الجمعان في أيام ثلاثة قاسية عابسة، وكانت حرباً لم يشهد التاريخ لها مثيلاً. حتى انجلى اليوم الثالث على نصر مؤزر للمسلمين، فزال دولة الفرس، ورُفعت راية التوحيد.

وكان ثمن هذا النصر المبين مئات الشهداء، وكان من بينهم عبد الله بن أم مكتوم. فقد وُجِدَ صريعاً وهو يعانق راية المسلمين.

وهكذا رحل هذا الصحابي الجليل الذي وإن كان حُرِمَ نعمة البصر في الدنيا، إلا أن الله قد أنعم عليه بنعمة البصيرة، ونال الشهادة وصُحبة «خير

الأنام» ﷺ

فرحمة الله عليك يا من نزل فيك قرآن يُتلى إلى يوم القيامة مرتين.

يا من نلت الشهادة وجنات الفردوس الأعلى.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «عبد الله بن أم مكتوم».

أبو موسى الأشعري

وها نحن أحبائي على موعد مع ريحانة أخرى من رياحين «الصحبة العطرة»؛ إنه صاحب الصوت العذب الذي يطرب منه رسول الله ﷺ، وكل من يستمع لتلاوته للقرآن الكريم. إنه مَنْ أسلم على يديه أهل اليمن. إنه الزاهد العابد الفقيه.. «أبو موسى الأشعري».

نسبه ونشأته

هو: عبد الله بن قيس المكنى «بأبي موسى الأشعري». نشأ أبو موسى في أرض اليمن بين أهلها المعروف عنهم رقة القلب والرحمة، ورغم حداثة سنّه إلا أنه كان يمقت عبادة الأصنام، ويُنكر على قومه عبادتهم لتلك الأصنام التي لا تُضرّ ولا تنفع. وكان دائماً يتمنى أن يأتي مَنْ يُنقذ البشرية من أوحال الشرك والوثنية.

إسلامه

ولم يمضِ غير قليل حتى سطعت شمس الحق بنور اليقين، وأرسل الله ﷺ

مَنْ يُحَقِّقْ لِأَبِي مُوسَى أَمَانِيهِ وَأَحْلَامِهِ. فَمَا أَنْ سَمِعَ بِبِعْثَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،
حَتَّى انْطَلَقَ إِلَى مَكَّةَ يَسَابِقُ الرِّيحَ لِيُظْفِرَ بِرُؤْيَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَسْتَمِعَ إِلَيْهِ.

بين يدي رسول الله ﷺ

وَمَا أَنْ وَصَلَ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى أَسْلَمَ لِلَّهِ ﷻ، وَنَطَقَ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ بَيْنَ يَدَيِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَلَمْ يَكُنْ أَبُو مُوسَى وَحِيداً فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ، بَلْ كَانَ
مَعَهُ عَمَّهُ «أَبُو عَامِرٍ»، فَلَمَّا أَسْلَمَ بَدَأَ فِي حَمْلِ مَسْئُولِيَّتِهِ فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ. فَبَدَأَ
بِعَمِّهِ الَّذِي مَا لَبِثَ أَنْ صَحَبَهُ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَمَّنَ وَشَهِدَ
شَهَادَةَ الْحَقِّ.

وَلَمَّا أَخْبَرَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَعَنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ فَرَّوْا بِدِينِهِمْ
إِلَى الْحَبْشَةِ؛ هَرَباً مِنْ إِيْذَاءِ قُرَيْشٍ وَبَطْشِهَا، وَأَكَّدَ لَهُمَا أَنَّ دِينَهُ لَا بَدَأَ أَنْ يَظْهَرَ
وَسَيَعْتَنِقُهُ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ.

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ الرَّجُلَيْنِ، وَقَالَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مُرْنَا بِأَمْرِكَ يَا رَسُولَ
اللَّهِ؛ إِنْ شِئْتَ بَقِينَا عِنْدَكَ وَتَحْمَلُنَا كَمَا تَحْمَلُ إِخْوَانَنَا، وَإِنْ شِئْتَ رَجَعْنَا إِلَى
قَوْمِنَا فَدَعُونَاهُمْ إِلَى دِينِكَ، وَإِنْ شِئْتَ لَحَقْنَا بِإِخْوَانِنَا فِي الْحَبْشَةِ لَنَكُونَ
مَعَهُمْ».

رسول الله ﷺ ونظرة إلى المستقبل

كان رسول الله ﷺ ينظر بعين المستقبل البعيد ويزرع بذور الإيمان في كل أرجاء المعمورة. فكما فعل مع أبي ذر الغفاري- انظر حياة أبي ذر الغفاري، وأمره بالذهاب إلى دياره في غفار لنشر كلمة التوحيد هناك. فكذلك أمر أبا موسى الأشعري وعمه بالرجوع إلى قومها في اليمن والدعوة إلى الله هناك، حتى إذا ظهر أمره هاجرا إليه مع قومها. فقالوا: سمعًا وطاعةً يا رسول الله. ثم مكثا عدة ليالي في مكة مع رسول الله ﷺ أقرأهما فيها عددًا من سور القرآن، وعلمهما الكثير من أمور الدين.

نشر الدعوة في اليمن

ويعود أبو موسى وعمه فرحين مستبشرين بما أنعم الله عليهما به من إيمان ويقين. وظل أبو موسى يدعو قومه لنور الحق، فأسلم على يديه خلقٌ كثير من أهل اليمن.

الهجرة إلى مدينة رسول الله ﷺ

ويظل أبو موسى يعمل بكل جدّ واجتهاد في نشر دين الله في اليمن؛ كما أمره رسول الله ﷺ، حتى علم بأن الله قد أظهر أمر رسول الله ﷺ والمسلمين، وقد خرج لفتح خيبر. فخرج أبو موسى مهاجراً إلى مدينة رسول الله ﷺ، ولكنه هذه المرة لم يخرج وحده بل خرج ومعه بضع وخمسون رجلاً من أهل اليمن لقنهم الإسلام، وأخوان شقيقان له هما: أبو رهم وأبو بُردة.

في الحبشة ولقاء جعفر بن أبي طالب

فلما ركب أبو موسى السفينة هو ومن معه ألقتهم إلى النجاشي بالحبشة، فوافقوا جعفر بن أبي طالب وصحبه هناك. فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا. فأقاموا معهم حتى قدموا جميعاً. وقد وافق قدومهم عودة رسول الله ﷺ من فتح خيبر، فأسهم لهم جميعاً.

قوم يحبهم الله

سمى رسول الله ﷺ قوم أبي موسى بالأشعريين. وقبل وصولهم قال لأصحابه: «يقدم عليكم غداً قوم هم أرق قلوباً للإسلام منكم»، فقدم الأشعريون.

ولما نزلت الآية: **{فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}** [المائدة: ٥٤]؛ قال رسول الله ﷺ لأبي موسى: «هم قومك يا أبا موسى»، وأوماً إليه.

أصحاب الهجرتين

لما تكلم الناس، وقالوا لأصحاب السفينة - جعفر وأبو موسى ومن معها - نحن سبقناكم بالهجرة. فلما علم رسول الله ﷺ بهذه المقولة قال: «لهم هجرة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان؛ هاجرتم إلى النجاشي وهاجرتم إليَّ».

هم مني وأنا منهم

ولازم أبو موسى وقومه رسول الله ﷺ، الذي أحببهم حباً جمّاً لما رأى منهم من رقة القلوب، وصدق القول والأفعال. فكان كثيراً ما يمتدحهم ويثني عليهم بين أصحابه، فيقول: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل في أيديهم الطعام، جمعوا ما عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم بالسوية، فهم مني وأنا منهم».

مناقبه

جمع أبو موسى الأشعري مزيجاً من عدة صفات عظيمة.
نوجزها فيما يلي:

١ - عذوبة صوته بالقرآن

لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أندى وأحسن صوتاً من أبي موسى، فكان إذا قرأ القرآن بصوته تشعر وكأن الدنيا كلها تتمايل طرباً بصوته العذب الرخيم.

* قال رسول الله ﷺ: «يا أبا موسى، لقد أوتيت زمماراً من مزامير آل داود».

* يقول بُريدة: خرجت ليلة من المسجد؛ فإذا رسول الله ﷺ عند الباب قائم، وإذا رجل يصلي، فقال لي: «يا بُريدة، أترأه يُرائي؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «بل هو مؤمن منيب، لقد أُعطي زمماراً من مزامير آل داود». فأتيته فإذا هو أبو موسى الأشعري، فأخبرته.

* يقول أبو عثمان النهدي: «ما سمعت زمماراً ولا طنبوراً ولا صنجاً أحسن من صوت أبي موسى، إنه كان ليصلي بنا فنودُّ أنه قرأ البقرة من حُسن صوته».

* يقول أبو سلمة: «كان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى وهو جالس في المجلس: يا أبا موسى ذكّرنا بربنا، فيقرأ عنده أبو موسى وهو جالس في المجلس ويتلاحن».

* وكان أبو موسى الأشعري من المعدودين الذين كانوا يقرءون على

رسول الله ﷺ، ويجب أن يستمع إليهم.

٢- أبو موسى قاضياً وأميراً

لقد كان «أبو موسى الأشعري» فقيهاً حصيفاً ذكياً، يتألق روعة وجمالاً وبهاءً وعدلاً في الإفتاء والقضاء. حتى قيل: إن قضاة الأمة أربعة: عمر وعلي وأبو موسى وزيد بن ثابت.

ومن شواهد ذلك:

* أن رسول الله ﷺ بعثه مع مُعَاذ بن جبل إلى اليمن ليفقها الناس ويحكمها بينهما بالعدل. فقال لهما: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنْفِرَا».

* في زمن عمر بن الخطاب: بعثه أميراً على البصرة. فلما وصل إلى هناك جمع أهلها وقام فيهم خطيباً، وقال: «إن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم، أعلمكم كتاب ربكم، وسنة نبيكم، وأنظف لكم طرقكم».

فتعجب الناس وأخذتهم الدهشة فإنهم ليفهمون كيف يكون تثقيف الناس وتفقيهم في دينهم من واجبات الحاكم والأمير، أما أن يكون واجباته تنظيف طرقاتهم فذلك شيء جديد عليهم، بل ومثير للعجب..

لذلك أقره عمر بن الخطاب أربع سنوات، رغم أنه لم يكن يُقر أي عامل

أكثر من سنة. فعن الشعبي قال: كتب عمر في وصيته: لا يُقَرَّر عامل أكثر من سنة، وأقروا الأشعري أربع سنوات.

* في زمن عثمان بن عفان: ولَّاه على الكوفة، وكان له في أهلها شأن عظيم.

* لما سُئِل الإمام عليٌّ عن أصحاب رسول الله ﷺ. قال: عن أيهم تسألوني؟ قالوا: عن أبي موسى الأشعري. فقال: صُبِّغَ في العلم صبغةً، ثم خرج منها.

٣- حياؤه

كان أبو موسى الأشعري ممن زينهم الله بزينة الحياء. - يقول أبو موسى: «إني لأغتسل في البيت المظلم، فأحني ظهري حياءً من ربي».

- يقول أنس: «إن أبا موسى كان له سراويل - أي: ثياب طويلة - يلبسها عند النوم، مخافة أن تنكشف عورته وهو نائم».

٤- عابد أبواب

كان أبو موسى الأشعري شديد الورع والخوف من الله، فكان عابداً، أوَّاباً، بكاءً، صواماً، قواماً؛ ففي الأيام القائظة - شديدة الحر - التي يكاد حرها يُزهق بالأنفاس، تجد أبا موسى يلقاها بشوق ليصوم فيها. حتى قيل عنه: ما تكاد تلقاه في يوم حارٍّ إلا صائماً. ويقول: لعل ظمأ الهواجر يكون لنا رِيّاً - أي: يروينا - يوم القيامة.

٥ - صفحات من جهاده.. سيد الفوارس

على الرغم من تلك الرقة التي كانت في قلب «أبي موسى الأشعري»، والحياء الذي اكتسب به، إلا أنه كان مقاتلاً جسوراً ومناضلاً صلباً إذا حمي الوطيس، واضطر للقتال. حتى قال عنه رسول الله ﷺ: «سيد الفوارس أبو موسى».

فتح أصبهان

لما اقتحم المسلمون بلاد الفرس، هبط الأشعري بجيشه على أهل أصبهان الذين صالحوه على الجزية فصالحهم.

فطنة وذكاء أبي موسى

بيد أنهم في صلحهم ذلك لم يكونوا صادقين، إنما أرادوا أن يهبوا لأنفسهم

فرصة لالتقاط الأنفاس والإعداد لضربة غادرة. ولكن فطنة أبي موسى التي لا تغيب في مواطن الحاجة إليها، كانت تستشف أمر أولئك وما يُبيِّتون.

فلما هموا بضربتهم لم يؤخذ هذا العابد على غرّة، بل كان في أتم الاستعداد واليقظة لغدرهم.. فقاتلهم قتالاً شرساً، ولم يتتصف النهار حتى كان قد انتصر نصراً باهراً على أهل الغدر والخيانة.

موقعة تُستر

وفي تلك الموقعة انسحب الهُرمزان بجيشه إلى تُستر، وتحصَّن بها. وحشد فيها جيوشاً هائلة. فأرسل عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعري وأمده بأعداد هائلة من المقاتلين على رأسهم «عمار بن ياسر، والبراء بن مالك»، وغيرهما. فحاصر المسلمون بقيادة أبي موسى الفرس بقيادة الهُرمزان داخل تُستر.

أبو موسى يُعمل عقله

ويستمر الحصار أياماً طويلة كثر فيها القتل بين الفريقين، حتى أعمل أبو

موسى عقله وحيلته. فقد نجح في أن يُجند رجلاً من أهل البلد ليعمل لصالح المسلمين وأعطاه أبو موسى الأمان، على أن يدل المسلمين على مكان يدخلوا منه إلى البلد.

واختار أبو موسى مائتي فارس من الرجال الشجعان. فدَهَّم الرجل على مدخل المدينة، وهو أيضاً مدخل الماء إليها. فلم تكد الأبواب تُفتح وجنود الطليعة يقتحمون الحصن، حتى انقض أبو موسى بجيشه ودخلوا المدينة المُحصَّنة.

وما هي إلا سويغات حتى كانت المدينة بمن فيها تحت سيطرة المسلمين بقيادة «أبي موسى الأشعري»، واستسلم قادة الفرس.

٦ - اعتزال الفتنة

وتأتي الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، لِيُسَطَّر التاريخ لأبي موسى الأشعري موقفاً يُكتَب بأحرف من ذهب. فعلى الرغم من شجاعته وإقدامه في قتال أهل الشرك، إلا أنه حين يكون القتال بين المسلمين؛ فإن دوره يكون في محاولة الإصلاح بينهما.

وهكذا فعل في تلك الفتنة والافتتال بين علي ومعاوية، وقد كان أميراً على الكوفة آنذاك. فكان يرى قعود الناس عن هذه الفتنة وعدم الاشتراك فيها.

فلما أَلح عليه أهل الكوفة، قال لهم: «إنما هما أمران؛ إما القعود في سبيل الآخرة، أو الخروج في سبيل الدنيا».

نصيحة غالية

وظل أبو موسى على موقفه المحايد المعتزل للفتنة، ولا ينتمي إلى أيٍّ من المعسكرين فكان يرفض كل عرض من أي من الفريقين، وقال لهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة؛ النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خيرٌ من القاعد، والقاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب الساعي إليها».

ثم قال: إن الله قد جعلنا إخواناً وقد حرّم علينا دماءنا وأموالنا. فيا ليت القوم قد سمعوا لصوت العقل، ونُصح أبي موسى، هذا العابد الأواب. ولكنه لم يستمع إليه أحدٌ، وكانت الفتنة وحدث الاقتتال. ونقول: يا ليت أمتنا اليوم، وقد داهمتها الفتن من كل حذب وصوب يا ليتنا نستمع إلى مقالة «أبي موسى الأشعري». (للاستزادة: انظر الجزء الثاني «حياة العشرة المبشرين بالجنة» للمؤلف).

الفصل الأخير

ويتخذ أبو موسى لنفسه مكاناً بعيداً عن كل الفتن، واعتزل كل ما قد يؤدي

إليها. واستقر بمكة ليقضي فيها آخر أيام حياته.

ما بقي من أجلي إلا قليل

وقد اجتهد الأشعري قبل موته اجتهاداً شديداً في العبادات والطاعات. ف قيل له: لو أمسكت ورفقت بنفسك؟ فقال: «إن الخيل إذا أُرسلت فقاربت رأس مجراها - أي: قاربت نهاية سعيها - أخرجت جميع ما عندها، والذي بقي من أجلي أقل من ذلك».

وبعد حياة طويلة مليئة بالجهد والعطاء، ينام أبو موسى الأشعري على فراش الموت وقلبه ولسانه رطب بذكر الله، لتفيض روحه الطاهرة إلى بارئها.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من أوتيت مزمارة من مزامير آل داود.

يا من كنت بطلاً في قتال المشركين.

مُسالماً مُعتزلاً كل الفتن في اقتتال المسلمين بعضهم لبعض.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «أبا موسى الأشعري».

أبو الدرداء

والآن أحبائي تعالوا نرحب بهذا الصحابي الجليل. فإنك إن تحدثت عن الزهد فهو الزهد نفسه. إنه رجل باع الدنيا بالآخرة. إنه من دفع عنه الدنيا بالراحتين والصدر، فأصبح حكيم الأمة؛ إنه «أبو الدرداء».

نسبه

هو: عويمر بن مالك الخزرجي، وكُنيتُه «أبو الدرداء».

إسلامه

اختلاف العقيدة لا يُفسد المحبة والوُدَّ

كان أبو الدرداء صديقاً حميماً لعبد الله بن رواحة، وكانت تربطها محبة ووُدَّ، فقد كانا متآخيين في الجاهلية. فلما جاء الإسلام، اعتنقه ابن رواحة، وأعرض عنه أبو الدرداء. ولكن ذلك لم يقطع ما بين الرجلين من وثيق الأواصر، فظلا يتعاهدن الزيارة، ويهتم كل منهما بشأن الآخر رغم اختلاف عقيدتهما. بيد أن ابن رواحة ومن شدة حبه لأخيه «أبو الدرداء» ظل يدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم فيه.

ينتصر على أصنامه يوم نصر المسلمين

ويخرج أبو الدرداء يوماً متوجّهاً إلى متجره، فإذا بشوارع المدينة وطرقاتها تضيق بأتباع رسول الله ﷺ، وهم عائدون من بدر وأمامهم أفواج الأسرى من قريش. فأعرض عنهم، لكنه ما لبث أن تذكر أخاه «عبد الله بن رواحة»، فأقبل على أحدهم يسأله عليه، فقال له: لقد أبلى بلاءً حسناً وعاد سالماً غانماً. فاطمأن أبو الدرداء، ومضى إلى متجره.

أما ابن رواحة فكان ما زال مهموماً بأمر أخيه «أبو الدرداء»، وما به من ضلالة وعبادة للأوثان فتوجه إلى منزله فوجد امرأته «أم الدرداء»، فاستأذن بالدخول فأذنت له، ثم توجه مباشرة إلى الحجر التي يضع فيها أبو الدرداء صنمه الذي يعبده، فكسره وخرج. فما أن رأت أم الدرداء الصنم وقد تهشم وتبعثرت أجزائه، فجعلت تلطم، وتقول: أهلكني يا ابن رواحة.

إن ربي وعدني بأبي الدرداء أن يُسلم

ويعود أبو الدرداء إلى منزله ليجد صنمه الذي يعبده أشلاءً على الأرض. فلما عرف من زوجته ما حدث، غضب غضباً شديداً. ثم ما لبث أن سكت عنه الغضب، وفكّر فيما حدث، ثم قال: لو كان في هذا الصنم خير لدفع الأذى عن نفسه. ثم انطلق من توه إلى رسول الله ﷺ، وكان عنده أخوه

«ابن رواحة»، فما أن رآه ابن رواحة مقبلاً حتى قال: يا رسول الله، هذا أبو الدرداء، ما أراه إلا جاء في طلبنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما جاء ليُسلم، إن ربي وعدني بأبي الدرداء أن يُسلم»، ويُعلن أبو الدرداء إسلامه بين يدي رسول الله ﷺ، ويتنصر على شيطانه وأصنامه يوم انتصار المسلمين على المشركين ببدر.

في رحاب الإسلام

فكان أبو الدرداء آخر أهل حيّه إسلامًا، وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين سلمان الفارسي. وما أن آمن أبو الدرداء، وخالط الإيمان قلبه وكيانه، حتى ندم ندمًا كبيراً على ما فاته من خير. فعقد العزم على أن يستدرك ما فاته. فظل ملازمًا لرسول الله ﷺ ينهل من علمه وأخلاقه، وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها. ففي أحد أمره رسول الله ﷺ يومئذ أن يرد من على الجبل، فردَّهم وحده. وظل هكذا مجاهدًا مع رسول الله ﷺ.

يبيع الدنيا بالآخرة

لقد كان أبو الدرداء تاجرًا ناجحًا من تجار المدينة الناهمين. ولكنه ولما أسلم، أحسَّ أن التجارة ستشغله عن طاعة الله، وستنغص عليه لذة العبادة، وتُفقوت عليه مجالس العلم، فتركها غير متردد وغير آسِف.

ولما سُئِلَ عن ذلك قال: «كنت تاجرًا قبل عهدي برسول الله ﷺ، فلما أسلمت أردت أن أجمع بين التجارة والعبادة، فلم يجتمعوا، فتركت التجارة ولزمت العبادة».

لا أقول إن الله حرم البيع

ويستدرك أبو الدرداء فيقول: والله ما أحب أن يكون لي حانوت على باب المسجد، فلا تفوتني صلاة مع الجماعة، ثم أبيع وأشتري فأربح كل يوم ثلاثمائة دينار. إلا أني لا أقول: إن الله حرم البيع، ولكني أحب أن أكون من الذين لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

أرأيتم أعزائي من هو بطلنا؟ أرأيتم صدق كلامه ودقة حديثه. فهو يُسرع قبل أن يسأله أحد: وهل حَرَّمَ الله التجارة يا أبا الدرداء؟. فيشير إلى الهدف الأسمى الذي كان ينشده، والذي من أجله ترك التجارة. فقد كان ينشد تخصصًا روحياً وتفوقاً يربو إلى درجات الكمال الميسور لبني الإنسان.

كل مُيسَّر لما خُلِقَ له

ولقد كان من أصحاب رسول الله ﷺ من لم تُلهيهم تجارتهم ولا بيعهم عن

ذكر الله، بل اجتهدوا في إنماء تجارتهم وأموالهم وجعلوها في خدمة الإسلام، كالصديق وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما. ولكن منهجهم لا يُقلل من منهج أبي الدرداء، ولا منهجه يُقلل من منهجهم. فكل مُيسَّر لما خُلِقَ له. فلقد كان زهد أبي الدرداء هو زهد رجل توفرت له الفطنة فجعلها حركة حية في بناء الروح.

مقتطفات من أقواله وحِكَمه

وينجح أبو الدرداء في صقل نفسه وتزكيتها، فأصبح معلماً عظيماً وحكيماً قوياً.

والآن أعزائي فلنقترب منه أكثر، ولنعش في رحاب هذه النفحات من أقوال وأفعال حكيمة هذه الأمة:

التفكير والاعتبار

لما سُئلت أم الدرداء: أي عبادة أبي الدرداء أكثر؟ قالت: التفكير والاعتبار. وكان أبو الدرداء كثيراً ما يحضُّ إخوانه على التأمل والتفكير فيقول: «تفكُّر ساعة خيرٌ من عبادة ليلة».

أين متاعكم؟

نزل عند أبي الدرداء جماعة في ليلة شديدة البرودة، فأرسل لهم طعامًا ساخنًا، ولم يبعث إليهم باللُّحْف، فلما هموا بالنوم جعلوا يتشاورون في أمر اللُّحْف. فقال أحدهم: إني ذاهب إليه أكلمه، فمضى حتى وقف على باب حجرته فرآه مضطجعًا وعليه ثوب خفيف لا يقي من برد، فقال لأبي الدرداء: ما أراك إلا بتَّ كما نبيت نحن، أين متاعكم؟

فقال: لنا دار هناك تُرسل إليها كل ما نحصل عليه من متاع، ولو كنا استبقينا في هذه الدار شيئًا منه لبعثناه إليكم.

فقال له الرجل -وقد أدرك ما يقصده أبو الدرداء- أما وإنك ما زلت قائمًا في هذه الدار أفلا تُبقي فيها شيئًا يُعينك على الحياة فيها؟

فقال: إن في طريقنا الذي نسلكه إلى تلك الدار عقبات صعبة، فأردنا أن نتخفف من أثقالها؛ علنا نجتاز تلك العقبات.

ثم قال للرجل: أفهمت؟ قال: نعم فهمت وجزيت خيرًا.

فلسفته تجاه الدنيا ومباهجها

- كان المال عند أبي الدرداء وسيلة للعيش القنوع، وليس غاية في حد ذاته.

لذلك كان يدعو إلى الكسب الحلال في رفق واعتدال فيقول: «لا تأكل إلا طيبًا، ولا تكسب إلا طيبًا، ولا تدخل بيتك إلا طيبًا».

- وكان يدعو إلى امتلاك الدنيا بالاستغناء عنها. فيقول: «من لم يكن غنيًا عن الدنيا فلا دنيا له».

- ويكتب لصاحبه ناصحًا: «أما بعد، فلست في شيء من عرض الدنيا إلا وقد كان لغيرك قبلك، وهو صائر لغيرك بعدك، وليس لك منه إلا ما قدمت لنفسك».

مالي أراكم تجمعون ما لا تأكلون

وفي خلافة الفاروق عمر، أراد أن يوليّه الشام وأصرَّ على ذلك. فقال أبو الدرداء: إن أردت مني أن أذهب إليهم لأعلمهم كتاب ربهم وسنة نبيهم ذهبت. فرضي منه عمر بذلك، ومضى إلى الشام، وهناك وجد الناس قد أولعوا في الترف وانغمسوا في النعيم، فهاله ذلك.

فدعا الناس إلى المسجد وقام فيهم خطيبًا، وكانوا قد تباطؤوا في السعي إليه، وقد ألهتهم ملذات الحياة. فقال: «يا أهل الشام، أنتم الإخوان في الدين والجيران في الدار، والأنصار على الأعداء. يا أهل الشام، ما الذي يمنعكم من مودتي والاستجابة لنصيحتي؟، وأنا لا أبتغي منكم شيئًا، فنصحي لكم

ومؤنتي على غيركم».

ثم يبدأ في نصحه لهم فيقول:

- ما لي أرى علماءكم يذهبون - أي: يأخذهم الموت - وجُهالكم لا يتعلمون؟

- وأراكم قد أقبلتم على ما تكفل لكم من الله ﷻ، وتركتم ما أمرتم به؟

- ما لي أراكم تجمعون ما لا تأكلون.

- وتبنون ما لا تسكنون.

- وترجون ما لا تبلغون.

- لقد كانت القرون من قبلكم يجمعون فيوعون، فأصبح جمعهم بوراً، وأملهم غروراً، وبيوتهم قبوراً. فأولئك قوم عاد ملئوا الدنيا أموالاً وأولاداً..

ثم صاح بهم بسخرية: «من يشتري مني تركة عاد بدرهمين؟»، فجعل الناس يبكون حتى سُمع صوت بكائهم خارج المسجد.

لا تُحاسبوا الناس دون ربهم

مر أبو الدرداء يوماً على رجل وقد تجمهر الناس عليه، وجعلوا يضربونه ويشتمونه، فلما سأل عن الخبر قالوا له: إنه وقع في ذنب كبير.

فقال: أرايتم إن وقع في بئر، أفلم تكونوا تُخرجيه منه؟. قالوا: بلى.

قال: فلا تسبُّوه ولا تضربوه وبصِّروه وانصحوه، واحمدوا الله الذي عفاكم من الوقوع في ذنبه.

قالوا: ألا تبغضه؟ قال: إنما أبغض فعله، فإن تركه فهو أخي.
فلا تُحاسبوا الناس دون ربهم. فتركوه وأخذ الرجل يبكي وأعلن توبته.

أين يُصبح دينها يومئذ؟

وفي أثناء إقامته بالشام بعث إليه معاوية بن أبي سفيان، وكان والياً على الشام، يخطب ابنته الدرداء لابنه يزيد. فردّه ولم يقبل خطبته. ثم زوّجها لواحد من فقراء المسلمين وصالحهم. فسار ذلك في الناس واندهشوا.
فلما سُئل أبو الدرداء عن ذلك قال: إنها تحريت فيما صنعت صلاح أمر الدرداء، فما ظنكم بالدرداء إذا قام بين يديها العبيد يخدمونها، وبهرها زخرف القصور، أين يُصبح دينها يومئذ؟

عمر في زيارة أبي الدرداء

وخلال إقامة أبي الدرداء في الشام قدم إليها عمر بن الخطاب متفقداً أحوال أهلها. فزار صاحبه أبا الدرداء في منزله ليلاً، فدخل عليه في البيت في بيت مُظلم، فرحب به أبو الدرداء وأجلسه وأخذ الرجلان يتبادلان الحديث

والظلام يحجب كل منهما عن عيني صاحبه.

فتحسس عمر وسادة أبي الدرداء، فإذا بردعة - كساء يُلقى على ظهر الدابة -، وتحسس فراشه فإذا هو حصي، وتحسس غطاءه فإذا هو كساء رقيق لا يقي من برد الشام القارص. فقال له عمر: رحمك الله يا أبا الدرداء، ألم أوسَّع عليك؟ ألم أبعث إليك؟

فقال أبو الدرداء: أتذكر يا عمر حديثاً حدثنا به رسول الله ﷺ، قال: وما هو؟ قال: ألم يقل ﷺ: ليكن بلاغ أحدكم في الدنيا كزاد الراكب». قال: بلى.

قال: فماذا فعلنا بعده يا عمر؟

فبكى عمر وبكى أبو الدرداء، وما زالا يتجاوبان بالبكاء حتى طلع عليهما الصبح.

العلم والعمل به

كان أبو الدرداء يُقدِّس العلم، ويُقدِّس أكثر العمل به.

- فكان يقول: «لا يكون أحدكم تقيًّا، حتى يكون عالمًا، ولن يكون بالعلم جميلًا، حتى يكون به عاملاً».

- ويقول: «أخشى ما أخشاه أن يُقال لي يوم القيامة على رؤوس الخلائق:

يا عُويمر، هل علمت؟ فأقول: نعم، فيقال لي: فماذا عملت فيما علمت؟». - ويقول: «ويل للذي لا يعلم مرة، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات».

حقوق الإخاء

وتستوصي حكمة أبي الدرداء بالإخاء خيراً فيقول:
- «معاينة الأخ خير لك من فقدته».
- «أعط أخاك ولن له، ولا تُطع فيه حاسداً فتكون مثله».
- «غدأ يأتي الموت، فيكفيك فقدته، وكيف تبكي بعد الموت، وفي الحياة ما كنت أدّيت حقه».

الدعاء لأخيك بالغيث

تقول أم الدرداء: كان لأبي الدرداء ثلاثمائة وستون خليلاً في الله، يدعو لهم في الصلاة. فقلت له في ذلك. فقال: إنه ليس رجل يدعو لأخيه في الغيب، إلا وكلَّ الله به ملكين يقولان: ولك بمثل ما قلت. أفلا أرغب أن تدعولي الملائكة!

ما أهون العباد على الله إذا هم عصوه!

عندما فُتحت قبرص وحملت الغنائم والسبي إلى المدينة، فلما مروا على أبي

الدرداء بكى، فاقترب الناس منه يسألونه: يا أبا الدرداء، ما يُبيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله. فأجاب أبو الدرداء في حكمة بالغة وفهم عميق: «ما أهون العباد على الله إذا هم عصوه، فتلك أمة ظاهرة قاهرة، كان لها الملك. تركت أمر الله فصارت إلى ما ترون».

هكذا كان أبو الدرداء يُعلّل الهزائم والانهيار السريع الذي يحل بالأمم، بأن سببه الرئيس هو معصية الله، والبُعد عن أوامره. وكان أبو الدرداء يخشى على المسلمين أيامًا يضعف فيها إيمانهم وروابطهم بالله، فتنتفلت الدنيا من أيديهم بنفس السهولة التي انفلتت بها من قبل إليهم.



كان ذلك أعزائي بعضٌ يسير من أقوال ومواعظ «حكيم الأمة»، والتي لا يتسع المجال لذكرها جميعًا.

مكانته في قلوب الصحابة

لقد احتلَّ أبو الدرداء مكانة سامية في قلوب الصحابة.

وهذه باقة من المأثورات والفضائل:

- كان الصحابة يقولون: أتبعنا للعلم والعمل به «أبو الدرداء».

- قال أبو ذر الغفاري لأبي الدرداء: "ما حملت ورقاء، ولا أظلت خضراء أعلم منك يا أبا الدرداء".
- يقول ابن عمر: "حدثونا عن العاقلين، فيقال: مَنْ العاقلان؟ فيقول: مُعَاذ وأبو الدرداء".

الفصل الأخير

وظل أبو الدرداء في الشام، يعظ الناس ويُعلِّمهم الكتاب والحكمة. وبعد حياة طويلة مملوءة بالجهادين: الجهاد الأصغر (الجهاد في ميادين القتال)، والجهاد الأكبر (جهاد النفس)، يستعد أبو الدرداء إلى الرحلة التي أعدَّ لها زادها، لينتقل إلى الدار التي نقل إليها كل ما يحصل عليه من متاع.

من يعمل مثل يومي هذا؟

وينام على فراش الموت، ويدخل عليه أصحابه يعودونه،

فقالوا: ما تشتهي؟

قال: ذنوبي.

قالوا: وما تشتهي؟

قال: عفوري.

ثم نظر إليهم ليُلقي حكمته الأخيرة فيقول: «من يعمل مثل يومي هذا؟، من يعمل مثل ساعتني هذه؟، من يعمل مثل مضجعي هذا؟».

أسألك ربي أن تزوجنيه في الجنة

ولما اشتد على أبي الدرداء المرض، ورأت أم الدرداء أنها ستفارق الزوج

الذي أحبته، ونعمت معه بالزهد في الحياة والقرب من الله.
فتوجهت إلى الله بالدعاء، وقالت: «اللهم إن أبا الدرداء خطبني فتزوجني
في الدنيا، اللهم فأنا أخطبه إليك، فأسألك ربي أن تزوجنيه في الجنة».

نعم الزوجة الصالحة!

هكذا أحبائي كانت الزوجة الصالحة، التي أعانت زوجها على طاعة الله
والقرب منه. رغم شظف العيش الذي حوَّ لها إليه أبو الدرداء، فبعد أن كان
تاجراً واسع التجارة التي تفيض عليهم فكانوا في رغد من العيش الميسر،
فيزهد أبو الدرداء في كل متاع الدنيا. فلم تشتك امرأته، ولم تعض الأنامل
ندماً على ما فاتها من رغد العيش، بل كانت سعيدة هنيئة بما رزقها الله من
حلاوة الإيمان والقرب منه ﷺ. ليس ذلك فحسب، بل أرادت أن تكون
له زوجة في الجنة.

وتفيض روح أبي الدرداء الطاهرة لتصعد إلى بارئها مع النبيين والصديقين
والشهداء.

وكان ذلك على أرض الشام سنة ٣٢ هجرية في خلافة عثمان بن عفان.

يدفع عنه الدنيا بالراحتين والصدر

وتمضي الأيام، ويرى عوف بن مالك الأشجعي فيما يرى النائم: مرجًا أخضر فسيح الأرجاء، فيه قبة عظيمة من آدم، حولها غنم رابضة، لم تر العين مثلها قط. فقال: لمن هذه؟ قيل له: لعبدالرحمن بن عوف. فطلع عليه عبد الرحمن بن عوف من القبة، وقال: يا ابن مالك، هذا ما أعطانا الله **ﷻ** بالقرآن. ولو أشرفت على هذه الثنية - أي: الطريق - لرأيت ما لم تر عينك، وسمعت ما لم تسمع أذنك، ووجدت ما لم يخطر على قلبك. فقال ابن مالك: ولِمَن ذلك يا أبا محمد؟ قال: أعده الله لأبي الدرداء؛ لأنه كان يدفع عنه الدنيا بالراحتين والصدر.

فهنيئاً لك يا من بعث الدنيا بالآخرة.

فملت رضى الله في الدارين.

ورضى الله عنك وأرضاك «يا أبا الدرداء».

البراء بن مالك

والآن أعزائي دعونا نستقبل بطلاً آخر من هؤلاء «الصحب الكرام»؛ إنه بطل شعاره «الله والجنة»، فحين تراه وهو يقاتل ترى رجلاً يتوق إلى الشهادة، يحب الموت كما يحب أعداءه الحياة. إنه ثاني أخوين عاشا في الله، وأحبا رسول الله ﷺ. فهو الأخ الشقيق لخادم رسول الله ﷺ «أنس بن مالك»؛ إنه «البراء بن مالك»؛ الذي لو أقسم على الله لأبره.

في رحاب رسول الله ﷺ

ظل البراء بن مالك في رحاب رسول الله ﷺ، جندياً من جنوده وتحت إمرته، ولقد كانت السمة البارزة في شخصيته هي الإقدام والفروسية. فقد كان من المشهورين بالشدة والبأس.

مشاهد في حياة رسول الله ﷺ

* كانت غزوة أحد أول مشاهد البراء في صحبة رسول الله ﷺ، ثم تلاها بالخذق، وقد أبلى فيها بلاءً حسناً يشهد بقوته وبأسه.

* ولما سار رسول الله ﷺ إلى الحديبية كان البراء في معيته، وكان من أهل بيعة الرضوان لما التقت يمينه بيمين رسول الله ﷺ، وبايعه تحت الشجرة.

* لو أقسم على الله لأبره

ويمنح رسول الله ﷺ «البراء بن مالك» وسام شرف عالي المقام، ومَنْقَبَة لا تعدلها مَنْقَبَة.

يقول رسول الله ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر، ذي طمرين - أي: ثوب شديد القدم - لا يؤبه له - أي: لا يُعرف لقلّة شأنه - لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك».

* ويتابع البراء جهاده تحت إمرة رسول الله ﷺ، فشهد فتح مكة، وغزوة حُنين وغيرهما. حتى انتقل رسول الله ﷺ، إلى الرفيق الأعلى وهو راضٍ عنه.

اليامة وإقدام البراء

ولما تولى أبو بكر الصديق أمر الخلافة، وارتد من ارتد من العرب. فقام الصديق ليتصدى لتلك الفتنة، وصمد صمود الجبال الراسيات. فجَهَّز أحد عشر جيشًا، ودفع بهم إلى أرجاء جزيرة العرب ليُعيدوا المرتدين إلى

سبيل الهدى والحق.

وكان أقوى المرتدين بأسًا وأكثرهم عددًا بنو حنيفة، أصحاب مُسيلمة الكذاب. هزم مُسيلمة أول جيش خرج إليه بقيادة عكرمة بن أبي جهل، فأرسل الصديق جيشًا ثانيًا بقيادة سيف الله «خالد بن الوليد»، حشد فيه كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، وكان في طليعة هؤلاء وهؤلاء «البراء بن مالك».

يا أهل المدينة لا مدينة لكم

وعلى أرض اليمامة في نجد، التقى الجيشان وفي البداية رجحت كفة مُسيلمة وأصحابه، حتى أنهم اقتحموا خيمة خالد بن الوليد، الذي هبَّ إلى جيشه لما رآهم منهزمين، وأعاد تنظيم صفوفه. وانطلق زعماء المسلمين وخطبائهم يلقون من فوق صهوات جيادهم كلمات التثيت، وكان البراء بن مالك جميل الصوت عاليه، فناداه خالد وقال: قم يا براء. فصاح البراء بكلمات تناهت في الجزالة والدلالة والقوة قائلاً: «يا أهل المدينة.. لا مدينة لكم.. إنما هو الله وحده والجنة».

فسرت كلمات البراء في نفوس المسلمين وتغيَّر سير المعركة، فالمسلمون يتقدمون وزلزلت أقدام مُسيلمة وأصحابه، فلجأوا إلى الحديقة التي عُرِفَت

في التاريخ بعد ذلك «بحديقة الموت» لكثرة من قُتل فيها. وهي حديقة كبيرة عالية الجدران، دخلها مُسيلمة وأتباعه وتحصَّنوا بها، وجعلوا يُمطرون المسلمين بنبالهم من داخلها.

احملوني وألقوني عليهم في الحديقة

عند ذلك تقدم المغوار الباسل «البراء بن مالك»، فعلا ربوة عالية، وصاح: يا معشر المسلمين، احملوني وألقوني عليهم في الحديقة. وفي لمح البصر اعتلى البراء جدار الحديقة، فقد كان ضئيل الحجم، وألقى بنفسه داخل الحديقة بين الآلاف المؤلفة من جند مُسيلمة. فنزل عليهم نزول الصاعقة، وما زال يجالدهم أمام باب الحديقة حتى قتل منهم عشرة وفتح الباب فتدفق المسلمون على حديقة الموت. وكان النصر المين، ومقتل مُسيلمة. ولكنَّ البراء لم يظفر بالشهادة التي كان يشقاق إليها هذه المرة، رغم أن جسده كان به بضع وثمانون جرحاً ما بين رمية بسهم أو ضربة بسيف. وقد ظلَّ يُداوى من جراحه شهراً كاملاً بعد المعركة، وكان خالد بن الوليد يُشرف بنفسه على علاجه وتمريضه.

معركة تُستر والفصل الأخير

ويبرأ «البراء» من جراحات اليمامة. وينطلق مع جيوش المسلمين تتوق نفسه إلى الشهادة، فطفق يخوض المعارك واحدة بعد الأخرى، شوقاً إلى تحقيق أمنيته الكبرى، وهي الشهادة في سبيل الله. حتى كان يوم «تُستر»، فقد احتشد من الفرس جيش كثيف لِينْجِزُوا المسلمين. فكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص بالكوفة ليرسل إلى الأهواز جيشاً، وكتب إلى أبي موسى الأشعري بالبصرة ليرسل إلى الأهواز جيشاً قائلاً في رسالته: اجعل أمير الجيش «سُهَيْل بن عدي»، وليكن معه «البراء بن مالك».

يُنْقِذُ أَخَاهُ مِنْ هَلَاكِ مُحَقِّقٍ

والتقى القادمون من الكوفة بالقادمين من البصرة ليواجهوا الفرس في معركة ضارية. وكان الأخوان العظيمان: «أنس بن مالك والبراء بن مالك» من بين جنود المسلمين، ولما اشتد بأس المسلمين تحصَّن الفرس في إحدى القلاع المحصنة، فحاصرهم المسلمون وأحاطوا بهم، إحاطة السوار بالمعصم.

فلما طال الحصار واشتد البلاء على الفرس، جعلوا يدلون من فوق أسوار

القلعة سلاسل من حديد عُلقَت بها كلاليب من فولاذ مُحميت بالنار، حتى أصبحت أشد توهجًا من الجمر، فكانت تخطف مَنْ تناله من المسلمين الذين لا يستطيعون منها فكاكًا.

فسقط أحد هذه الكلاليب وتعلق بأنس بن مالك، ولم يستطع أن يمسك السلسلة ليخلص نفسه، فقد كانت تتوهج لهبًا ونارًا. فما أن رآه البراء حتى أسرع نحو أخيه الذي كانت السلسلة المحماة تصعد به على سطح جدار الحصن.

فوثب البراء على جدار الحصن وقبض على السلسلة المحماة التي تحمل أخاه، وراح يعالجها في بأس شديد حتى قصها، دون أن يأبه ليدته التي أخذت في الاحتراق، وبدأت تُدخن، حتى نجَّأ أخاه من هلاك محقق. وهبط على الأرض ليجد كفه قد ذهب كل ما فيها من لحم، وبقي هيكلها العظمي محترقًا.

يا براء اقسام على ربك

ولما اشتد القتال، وجالد الأعداء وبلغت القلوب الحناجر، وراح القتلى يتساقطون من الفريقين. اقترب بعض الصحابة من البراء وقالوا له: يا براء! إن رسول الله ﷺ قال: إنك لو أقسمت على الله لأبرك، فاقسم على الله

ليهزمهم وينصرنا.

فرفع البراء ذراعه إلى السماء ضارِعًا داعيًا: «اللهم امنحنا أكتافهم، وانصرنا، وألحقني اليوم بنبيك».

ويبرّ الله ﷻ قسم البراء، وينصر المسلمين نصرًا مؤزرًا، ويبلغ المسافر مُنتهاه، وينال البراء شرف الشهادة التي كان ينشدها، ويلحق برسول الله

ﷺ.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من لو أقسمت على الله لأبرك.

ورضي الله عنك وأرضاك يا أيها البطل «البراء بن مالك».

أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ

وها نحن أعزائي في استقبال ضيف جديد من هذه الصحبة العطرة من «الصحب الكرام». فهو أحد زعماء الأنصار، وعاقل من عقلائهم. تنزل الملائكة لتسمع إليه وهو يتلو القرآن. أحب رسول الله ﷺ، وأحبه رسول الله ﷺ؛ إنه الصحابي الجليل «أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ».

نشأته

نشأ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ في عائلة ذات جاه وشرف. فأبوه «حُضَيْرُ بْنُ الْكَتَّابِ»، كان زعيم الأوس وواحدًا من كبار أشراف العرب ومقاتليهم الأشداء. وقد قُتِلَ «يَوْمَ بُعَاثٍ» - وقعة بين الأوس والخزرج في الجاهلية انتصر فيها الأوس - فلما قُتِلَ حُضَيْرٌ توجهت القبيلة صوب ابنه «أُسَيْدُ»، وتوجَّته زعيمًا لها خلفًا لوالده.

وقد ورث أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ عن أبيه شجاعته، وجوده، ورجاحة عقله. فورث المكارم كابرًا عن كابر. وكان لأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ صديق حميم، عاشا طفولتهما وشبابهما معًا، وهو «سعد بن معاذ»، فكانا لا يتفارقان في ظعن ولا إقامة، ولا يتباعدان

إلا عندما يأوي كلُّ منهما إلى فراشه.

إسلامه

ويأتي اليوم الذي يُشرق فيه نور اليقين على قلب أُسيد، ويشهد شهادة الحق: أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.. ولذلك قصة فيها عبرة.. فلما قدم سفير الإسلام الأول «مصعب بن عمير» إلى المدينة ليدعو إلى دين الله تعالى، ويرشد الناس إلى الصراط المستقيم، فنزل على أسعد بن زُرارة، واتخذ من داره مقاماً ومنطلقاً لبثّ دعوته إلى الله. وبعذوبة حديثه ووضوح حجته ورقة شمائله استطاع «مصعب بن عمير» أن يجذب قلوب الناس فدخلوا في دين الله.

أنوار الإيمان تقرب من أُسيد

وفي ذات يوم خرج أسعد بن زُرارة بصحبة ضيفه مصعب بن عمير، ليلقى جماعة من بني عبد الأشهل - قوم أُسيد وسعد بن مُعاذ - فجلسا على بئر يقال لها «مَرَق»، فاجتمع على مصعب جماعة ممن أسلموا، وآخرون يريدون يسمعوا، فانطلق يدعو والناس منصتون.

فلما جاء من أخبر أُسيد بن حُضير وسعد بن مُعاذ - وهو ابن خالة أسعد

بن زُرارة - فلما جاءهما الخبر قال سعد بن مُعاذ لأُسيد: لا أبا لك يا أُسيد، انطلق إلى الرجلين اللذين أتيا ديارنا لِيُسفِّها ضعفاءنا فازجرهما، وحذرهما أن يأتيا ديارنا بعد اليوم. ثم أردف يقول: لولا أن أسعد بن زُرارة مني حيث علمت لكفيتك ذلك، فأخذ أُسيد حربته ثم مضى إليهما. فلما رآه أسعد بن زُرارة مقبلاً، قال لمصعب: هذا سيد قومه، وأرجحهم عقلاً، فإن يُسلم يتبعه في إسلامه خلقٌ كثير. فاصدق الله فيه.

ما أحسن هذا الكلام وأجمله!

ويقف أُسيد عليهما متشتمًا فقال: ما جاء بكما إلى ديارنا تُسفِّهان ضعفاءنا؟ ارحلوا عنا، إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب بلهجته الصادقة الآسرة: هل لك أن تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرنا قبلته، وإن كرهته كففتنا عنك ما تكره، وتحولنا عنكم ولم نُعد إليكم. وكان أُسيد رجلاً مُستنير العقل، ذكي القلب، حتى لقبه قومه بالكامل، وهو لقب كان يحمله أبوه من قبل. فلما رأى مصعبًا يحتكم إلى المنطق والعقل، غرس حربته في الأرض، وقال لمصعب: لقد أنصفت هات ما عندك.

فأقبل عليه مصعب يقرأ عليه القرآن، ويشرح له حقيقة الإسلام بأسلوبه

العذب. فما هي إلا لحظات حتى انبسطت أسارير أُسيد وأشرق وجهه، حتى قال الذين حضروا: والله لقد عرفنا في وجه أُسيد الإسلام قبل أن يتكلم. ولم يكد مصعب ينتهي من حديثه حتى صاح أُسيد مبهوراً: ما أحسن هذا الكلام وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم الدخول في هذا الدين؟ فقال مصعب: تغتسل وتطهر ثوبك وتشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين. فقام أُسيد فاغتسل وتطهر، وشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وصلى ركعتين. وكان إسلامه سبباً في إسلام سعد بن مُعاذ، وكان إسلامهما سبباً في أن تُسلم بنو عبد الأشهل وجموع كبيرة من الأوس.

في رحاب رسول الله ﷺ

أولع أُسيد بن حُضير بالقرآن منذ أن سمعه من مصعب بن عُمير، وتعلق قلبه بالحبيب المصطفى ﷺ قبل أن تراه عيناه. فلما كانت العقبة الثانية، كان أُسيد في طليعة المبايعين لرسول الله ﷺ، ثم كان أحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم رسول الله ﷺ. ولما هاجر رسول الله ﷺ فرح أُسيد فرحاً جماً بقدوم رسول الله ﷺ، وظل ملازماً له يقتبس من علمه وهديه وأخلاقه.

الملائكة تستمع إلى تلاوته

ظل أُسيد ينهل من هذا المعين العذب، فكان لا يُرى إلا مجاهدًا، غازيًا أو عاكفًا يتلو كتاب الله، وكان رخيم الصوت مُشرق الأداء، تطيب له قراءة القرآن أكثر ما تطيب إذا سكن الليل. وكان الصحابة يترقبون تلك الساعات التي يقرأ فيها أُسيد القرآن فيتسابقون إلى سماع تلاوته.

وقد استعذب أهل السماء تلاوته كما استعذبها أهل الأرض.. ففي جوف ليلة من الليالي، كان أُسيد جالسًا في مربده -فضاء خلف البيت - وابنه «يحيى» نائم إلى جانبه، وفرسه مربوطة غير بعيد عنه. فانطلق يقرأ القرآن بصوته الرخيم الحنون.

فإذا به يسمع فرسه وقد جالت حوله حتى كادت تقطع رباطها. فسكت عن القراءة، فسكتت الفرس، فعاد يقرأ فجالت الفرس حوله أشد من ذلك وأقوى.. تكرر ذلك مرارًا، فكان إذا قرأ جالت ونفرت، وإذا سكت سكتت وقرّت، فخاف على ابنه «يحيى» أن تطأه الفرس، فمضى إليه ليوقظه. فإذا به يرى غمامة في السماء كالمظلة وقد عُلق بها أمثال المصابيح ملأت الآفاق ضياءً، وهي تصعد إلى أعلى حتى غابت عن ناظره.

فلما أصبح مضى إلى رسول الله ﷺ، وقصَّ عليه ما رأى؛ فقال له رسول الله ﷺ: «تلك الملائكة كانت تستمع إليك يا أُسيد، ولو أنك مضيت في قراءتك لرآها الناس، ولم تستر عنهم».

حُبُّه لرسول الله ﷺ

وكما أولع أُسيد بكتاب الله، فقد أولع برسول الله ﷺ، فكان - كما حدَّث هو عن نفسه - أصفى ما يكون صفاءً وشفافية، حين يقرأ القرآن أو يسمعه، وحين ينظر إلى رسول الله ﷺ وهو يخُطب أو يُحدِّث.

يتمنى أن يمَسَّ جسدهُ جسَدَ رسول الله ﷺ

لم يكتفِ أُسيد بهذا الحبِّ والولع لرسول الله ﷺ، بل كان يتمنى أن يمَسَّ جسده جسَدَ رسول الله ﷺ. وقد أُتيح له ذلك ذات مرة: فقد كان أُسيد رجلاً صالحًا ضاحكًا مليحًا.

وفي ذات يوم كان يُحدِّث القوم ويضحكهم، فوكَّزه رسول الله ﷺ بيده، كأنه يستحسن ما يقول، فقال له أُسيد: أوجعتني يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «اقتص مني يا أُسيد». فقال أُسيد: يا رسول الله، إنَّ عليك قميصًا، ولم يكن عليَّ قميص.

فرفع رسول الله ﷺ قميصه فاحتضنه أُسيد، وجعل يُقبِّل جَسَدَ رسول الله ﷺ، وهو يقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إنها أمنية كنت أتمناها منذ عرفتكَ، وقد بلغتُها الآن.

نعم الرجل أُسيد!

وكان رسول الله ﷺ يبادلُه حبًّا بحب، ويحفظ له سابقته في الإسلام، وزَوَّده عنه يوم أحد، حتى أنه طُعن يومها سبع طعنات مميتات. فكان رسول الله ﷺ يقول عنه: «نعم الرجل أُسيد».

رسول الله ﷺ لا يرد له شفاععة

كان رسول الله ﷺ يعرف لأُسيد قدره ومنزلته في قومه، فإذا شَفَع في أحد منهم شَفَعَه فيه.

يقول أُسيد: جئت إلى رسول الله ﷺ فذكرت له أهل بيت من الأنصار فيهم فقراء ومحتاجين، وجُلُّ أهل ذلك البيت نسوة. فقال رسول الله ﷺ: «لقد جئنا يا أُسيد بعد أن أنفقنا ما بأيدينا، فإذا سمعت بشيء قد جاءنا، فاذكر لنا أهل ذلك البيت». فلما جاء بعد ذلك مال خبير، قسم رسول الله ﷺ بين المسلمين، وأعطى الأنصار وأجزل، وأعطى أهل ذلك البيت وأجزل. فقلت: جزاك الله عنهم خيراً يا نبي الله. فقال رسول الله ﷺ: «وأنتم يا معشر الأنصار، جزاكم الله أطيب الجزاء. فإنكم أعفء صُبر، وإنكم ستلقون أثرة بعدي، فاصبروا حتى تلقوني، وموعدكم الحوض».

غزوة بني المصطلق: العقل والحكمة

وتأتى غزوة بني المصطلق لتتجلى فيها رجاحة عقل وحكمة أُسيد بن حُضير. ففي تلك الغزوة أراد رأس النفاق «عبد الله بن أبي بن سلول» أن يؤلِّب الناس على رسول الله ﷺ، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم. فإذا والله أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعرز منها الأذل.

سمع بذلك الصحابي الجليل «زيد بن أرقم»، فمشى إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر. فتألم رسول الله ﷺ كثيراً لهذه المقولة.

ولكسر حدة الفتنة التي أرادها ابن سلول، أمر رسول الله ﷺ بالرحيل في ساعة لم يكن يرحل فيها، فارتحل الناس.

فلما لقي أُسيد رسول الله ﷺ قال له: يا نبي الله، والله لقد رُحت في ساعة مُنكرة، ما كنت تروح فيها من قبل.

فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟».

قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبي».

قال أُسيد: وماذا قال؟

قال رسول الله ﷺ: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل». فقال أُسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه على المدينة ملكًا. فإنه يرى أنك استلبته مُلكه.

دروس نتعلمها

فيا لها من حكمة ورجاحة عقل تحلَّى بها أُسيد، فإنه لم يكن يدافع عن المنافق «ابن سلول»، ولكنه ومن شدة حبه لرسول الله ﷺ أراد أن يخفف عنه ويهون من وقع هذه الكلمات الحادة.

فلعلنا أعزائي نتعلم ونقتدي بصحابة رسول الله ﷺ، نتعلم أن نحاول تهدئة النفوس إذا ما وقع خلاف بين الناس، ولا نكون ممن يريدونها ناراً مشتعلة لا تنطفئ، فيعمق من الخلاف. كمن يصبُّ الزيت على النار فيزيدها اشتعالاً.. لعل الله يهدينا وينفعنا بهؤلاء «الصحب الكرام».

في عصر الخلفاء الراشدين

وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وهو راضٍ عن أُسيد بن حُضير. وأصبح كذلك موضع تكريم الصديق ﷺ أثناء خلافته. وكذلك كان له نفس المكانة في قلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

يقول أُسيد: لما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب. قسم بين المسلمين مالاً ومتاعاً، فبعث إليَّ بحُلة فاستصغرتها. فبينما أنا في المسجد إذ مر بي شاب من قريش عليه حُلة طويلة واسعة من تلك التي أرسل إلى منها عمر، وهو يجُرُّها على الأرض جرًّا. فذكرت لمن معي قول رسول الله ﷺ: «إنكم ستلقون أثره من بعدي»، وقلت: صدق رسول الله ﷺ، فانطلق رجل إلى عمر وأخبره بما قلت. فجاءني مسرعاً وقال: ماذا قلت؟، فأخبرته بما رأيت وبما قلت.

فقال: عفا الله عنك، تلك حُلة بعثت بها إلى فلان وهو أنصاري، فشراها منه هذا الفتى القرشي ولبسها. أفتظن هذا الذي أخبر به رسول الله ﷺ يكون في زمانِي؟ يقول أُسيد: والله يا أمير المؤمنين لقد ظننت أن ذلك لا يكون زمانك.

الفصل الأخير

وبعد سنوات من الجهاد والبذل والعطاء، وفي خلافة عمر بن الخطاب في شهر شعبان سنة عشرين للهجرة، ينقطع الصوت الذي تنزل الملائكة لتستمع إليه وهو يتلو القرآن. وينتقل أُسَيْد بن حُضَيْر إلى جوار ربه ليلقى رسول الله ﷺ. ويأبى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلا أن يحمل نعشه فوق كتفه حتى يُدْفَن، ويُوَارَى إلى مثواه الأخير.

كان في عون الناس فكان الله في عون أولاده

ولما مات أُسَيْد كان عليه دَيْنٌ مقداره أربعة آلاف درهم، فَهَمَّ ورثته ببيع أرض له لوفاء دَيْنه. فلما عرف بذلك عمر بن الخطاب قال: «لا أترك بني أخي أُسَيْد عالة على الناس»، ثم كَلَّمَ الغرماء، فرضوا أن يشتروا منه ثمار الأرض لمدة أربع سنين كل سنة بألف. وهكذا، كما كان أُسَيْد في عون الناس ومساعدتهم، يسَّر الله له مَنْ يُعِين أولاده ويحفظهم من بعده.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من تنزلت الملائكة لتسمع تلاوتك.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «أُسَيْد بن حُضَيْر».

عبد الله بن عمر

والآن أعزائي، فلنقترب من هذه الزهرة من أزاهير الصحبة العطرة من «الصحب الكرام». إنها زهرة ذات رحيق خاص، فهو صحابي كان مُعلمه رسول الله ﷺ، وأبوه عمر بن الخطاب. فقد تعلم من أبيه خيراً كثيراً، وتعلم مع أبيه من رسول الله ﷺ الخير كله. إنه المثابر الأواب، الذي وصفه رسول الله ﷺ بالرجل الصالح؛ إنه «عبد الله بن عمر» رضي الله عنهما.

إسلامه

أسلم عبد الله بن عمر وهو صغير، وهاجر مع أبيه قبل أن يبلغ الحلم.

جهاده

عُرِض ابن عمر على رسول الله ﷺ يوم أُحُد، وكان ابن أربع عشرة سنة، فلم يُجِزْهُ لِصِغَرِ سِنِّهِ، ولما كان يوم الخندق، وقد بلغ الخامسة عشر من عمره أجازهُ رسول الله ﷺ، وكلفه مع آخرين بحراسة الذرية والنساء في المدينة كتدريب أول على تحمُّل المسؤولية.

وبعد ذلك شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وشهد في الخلافة الرشيدة اليرموك، وفتح مصر، وفتح إفريقية.

فضائله ومناقبه

لقد كان عبد الله بن عمر تجتمع فيه أروع الفضائل، فكان جوده وزهده وورعه تعمل معاً لتشكّل إنساناً عظيماً. فهو يُعطي؛ لأنه جواد، ويُنفق الحلال الطيب مما يُحب؛ لأنه ورع، ولا يبالي أن يتركه الجود فقيراً لأنه زاهد. فلنقترب أكثر أعزائي من هذا الصحابي الجليل، ولنعيش لحظات مع بعض من مناقبه وفضائله.

١ - حبه لرسول الله ﷺ وحرصه على اتباعه

لقد أحسن عبد الله بن عمر، كما أحسن أبيه، الإيمان بالله وبرسوله ﷺ، ومن ثمّ كانت متابعته لحظي رسول الله ﷺ أمراً يُبهر الألباب. فكان ينظر ماذا كان رسول الله ﷺ يفعل في كل أمر فيحاكيه في دقة وإتقان. وهاك بعض الشواهد على ذلك:

* كان يصلي في ذات المكان الذي رأى رسول الله ﷺ يصلي فيه.

فإن كان رسول الله ﷺ يدعو قائماً، فيدعو ابن عمر قائماً، وإن كان رسول

الله ﷺ يدعو جالسًا فيدعو ابن عمر جالسًا.

* كان عبد الله بن عمر يتتبع آثار رسول الله ﷺ في كل مكان مرَّ به، حتى إنه رأى رسول الله ﷺ نزل تحت شجرة، فكان يتعاهد تلك الشجرة، فيصب في أصلها الماء لكيلا تيبس.

* رأى ابن عمر رسول الله ﷺ وهو في سفره ينزل من فوق ناقته، ويصلي ركعتين في بقعة ما من الأرض. فكان إذا جمعه سفر بنفس البقعة، يصنع ما صنع رسول الله ﷺ، وينزل من فوق ناقته ويصلي ركعتين في نفس المكان.

* كان ابن عمر إذا سافر في طريق سافر فيه رسول الله ﷺ، يقوم برأس راحلته يُثنيها، ويقول: لعل الخفَّ يقع على الخف، يقصد أن خفَّ راحلته يقع موضع خفَّ راحلة رسول الله ﷺ.

* وبنفس القوة والنهج في اتباع خطى رسول الله ﷺ، كان ابن عمر يتهيب الحديث عن رسول الله ﷺ، فكان إذا روى حديثًا عن رسول الله ﷺ لا يزيد ولا يُنقص منه حرفًا. حتى قال معاصروه: «لم يكن من أصحاب رسول الله ﷺ أحد أشد حذرًا من ألا يزيد في حديث رسول الله ﷺ أو يُنقص منه من عبد الله بن عمر».

* ومن فرط حرصه واتباعه لرسول الله ﷺ، قالت السيدة عائشة: «ما كان أحد يتبع آثار رسول الله ﷺ في منزله، كما تبعه ابن عمر».

* روى عاصم بن محمد العمري عن أبيه قال: ما سمعت ابن عمر ذكر النبي ﷺ، إلا بكى.

٢- نِعَمَ الرجل عبد الله

رأى عبد الله بن عمر في شبابه رؤيا فسرها له رسول الله ﷺ تفسيراً جعل قيام الليل شرعته ومنهاجه، ومناطق غبطته وسروره.

يقول ابن عمر: كنت غلاماً عزباً، وكنت أنام في المسجد على عهد النبي ﷺ فرأيت في المنام كأن بيدي قطعة من إستبرق، وكأني لا أريد مكاناً في الجنة إلا طارت بي إليه.

ورأيت كأن ملكين أخذاني وأرادا أن يذهبا بي إلى النار، أعوذ بالله من النار. فتلقاهما ملك آخر فقال لي: لا تُرْعُ - أي: لا تخف - فخلياً عني. فقصصتها على حفصة، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «نِعَمَ الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل فيكثر»... وفي رواية قال ﷺ: «إن عبد الله رجل صالح».

ومنذ ذلك اليوم إلى أن لقي ابن عمر ربه، لم يدع قيام الليل في حله وترحاله. وكان إذا فاتته العشاء في جماعة أحياناً ليلته.

٣- خوفه وبكاؤه

كان ابن عمر كأبيه عظيم الخشية من الله، شديد المراقبة له في السر والعلانية، تهطل دموعه حين يسمع آيات النذير في القرآن.

وهاك بعض من مشاهد خشيته وخوفه من الله ﷻ:

* عن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ: **{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ}** [الحديد: ١٦] بكى حتى يغلبه البكاء.

* يقول عبيد بن عمير: قرأت يوماً على عبد الله بن عمر: **{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}** [النساء: ٤١]، فجعل يبكي حتى نديت لحيته من دموعه.

* جلس ابن عمر يوماً بين إخوانه فقرأ: **{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ}** [المطففين: ١] حتى بلغ قوله **{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** [المطففين: ٦].

فمضى يردد **{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}**، ودموعه تسيل كالطر، حتى وقع من شدة وجده وبكاؤه.

* عن سمير الرياحي عن أبيه قال: شرب عبد الله بن عمر ماءً بارداً، فبكى واشتد بكاؤه. فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت قوله تعالى: **{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ}** [سباء: ٥٤]، فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئاً شهوتهم للماء، وقد قال الله تعالى: **{وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ**

أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ} [الأعراف: ٥٠].

٤ - عبادته

ولنقترب أكثر أعزائي من ابن عمر، لنرى كيف كان أسلوبه في العبادة، كما نقله لنا معاصروه:

* فقد كان له مهراس، يصلي فيه ما قُدِّر له، ثم يصير إلى الفراش فيغفي إغفاءة الطائر. ثم يقوم فيتوضأ ويصلي. ويفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمس.

* قيل لنافع: ما كان يصنع ابن عمر في منزله؟ قال: لا تطيقون: الوضوء لكل صلاة أو المصحف فيما بينهما.

٥ - تواضعه

لقد كان ابن عمر شديد التواضع؛ فكان الغرور لا يعرف إليه سبيلاً، وإن أطراه الناس وامتدحوه.

* فذاك رجل يقول له: يا خير الناس، يا ابن خير الناس. فقال له: «ما أنا بخير الناس، ولا ابن خير الناس، لكنني عبد من عباد الله أرجو الله وأخافه».

* وهذا آخر يقول له: لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله فيهم. فغضب وقال: «وما يُدريك ما يُغلق عليه ابن أمك بابه» - يقصد نفسه - .

٦- حرصه على معرفة أحوال أهل الجنة

لقد كان ابن عمر شديد الحرص على كل عمل يدخله الجنة، ومن شدة حرصه هذا كان يتتبع ويراقب من يسمع أنه من أهل الجنة.

يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة

يقول أنس بن مالك: كنا جلوس مع رسول الله ﷺ، فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»، فطلع رجل من الأنصار يتقطر الماء من لحيته من وضوئه، وقد تعلّق نعليه في يده الشمال. فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع نفس الرجل مثل المرة الأولى.

فلما كان اليوم الثالث، قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع نفس الرجل مثل حاله الأولى.

فلما قام رسول ﷺ، تتبّع ابن عمر ذلك الرجل، وقال له: إني خاصمت أبي فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤوني إليك حتى تمضي

الثلاث ليالٍ؟

فقال الرجل: نعم. فبات معه ابن عمر تلك الليالي الثلاث. فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا استيقظ وتقلّب على فراشه ذكر الله ﷻ، وكبرّ حتى يقوم لصلاة الفجر. غير أنه لم يسمعه يقول إلا خيراً.

لا أجد في نفسي لأحد غشاً ولا أحسد أحداً

فلما مضت الثلاث ليال، قال عبد الله: إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر. ولكنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مراراً: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»، فطلعت أنت في المرات الثلاث. فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك لأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل. فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟

فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أنني لا أجد في نفسي لأحد غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطق.

٧- كرمه

لقد كان ابن عمر تاجراً أميناً ناجحاً، وقد آتاه الله مالاً وفيراً. ولكنه كان لا يدخر منه شيئاً، وينفق كل ما عنده. فالمال بين يديه خادماً لا سيّداً.

يا معشر التجار.. ما تصنعون بالدنيا؟

يحدثنا «أيوب بن وائل الراسبي» عن واحدة من مكرمات ابن عمر فيخبرنا أنه جاءه يوماً أربعة آلاف درهم وقطيفة. وفي اليوم التالي رآه «أيوب بن وائل» في السوق يشتري لراحلته علفاً نسيئة - أي: ديناً -، فذهب ابن وائل إلى أهل بيته وسألهم: أليس قد أتى لأبي عبد الرحمن - يعنى: ابن عمر - بالأمس أربعة آلاف وقطيفة؟ قالوا: بلى، قال: فإني رأيتك اليوم بالسوق تشتري علفاً لراحلته ولا يجد ثمنه. قالوا إنه لم يبت بالأمس حتى فرقها جميعاً، ثم أخذ القطيفة وألقاها على ظهره وخرج، ثم عاد وليست معه فسألناه عنها فقال: إنه وهبها لفقير.

فخرج ابن وائل يضرب كفاً بكفٍّ، حتى أتى السوق فصعد مكاناً عالياً وصاح في الناس: «يا معشر التجار، ما تصنعون بالدنيا، وهذا ابن عمر يأتيه أربعة آلاف درهم فيوزعها، ثم يُصبح فيستدين علفاً لراحلته؟».

تَدْعُونَ الشُّبَاعَ وَتَدْعُونَ الجِياع!

كان ابن عمر قلماً يأكل طعاماً وحده، فلا بد من أن يكون معه أيتام أو فقراء. وكان يُعاتب من يدعون الأغنياء، ولا يأتون الفقراء، ويقول لهم: «ما لي أراكم تدعون الشُّبَاعَ وَتَدْعُونَ الجِياع».

ولقد كان الفقراء يعرفون عطفه، وذاقوا حلاوة برّه وحنانه. فكانوا يجلسون في طريقه كي يصحبهم إلى داره، فيُطعمهم ويعطيهم ما يريدون. فكانوا يحفُّون به كما تحفُّ أفواج النحل بالأزهار لترتشف من رحيقها.

من خدعنا بالله انخدعنا به

كان ابن عمر إذا اشتد عجبته بشيء من ماله قرَّبَه لربه ﷺ؛ عملاً بقوله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢]، وكان رقيقه قد عرفوا ذلك عنه، فكانوا يشمرون سواعدهم ويلزمون المسجد، فإذا رأهم على هذه الحالة من القوة يعتقهم لوجه الله. فيقول له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، والله ما بهم إلا أن يخدعوك. فيقول ابن عمر: «فمن خدعنا بالله انخدعنا به».

يقول نافع: ما مات ابن عمر حتى أعتق ألف إنسان أو زاد.

٨- زهده

لقد أعان ابن عمر على هذا الجود الواسع زهده. فالمال عنده هو وسيلة لضرورات العيش لا للترف، فكان لا يتهالك على الدنيا، ولا يسعى لها، بل لا يرجو منها إلا ما يستر الجسد من لباس، ويُقيم الأود من طعام.

حتى قال جابر بن عبد الله عنه: «ما منا أحدٌ أدرك الدنيا، إلا وقد مالَ بها ومالَتْ به إلا عبد الله ابن عمر». .

وهاك بعض الشواهد على زهده:

أخاف أن يجعلني مختالاً فخوراً

جاءه يوماً أحدُ إخوانه من خُرسان بحُلَّة ناعمة، وقال له: لقد جئتكَ بهذا الثوب، وإنه لتَقَرَّ عيناى أن أراك تنزع عنك ثيابك الخشنة هذه، وترتدي هذا الثوب الناعم. فلمسه ابن عمر وقال: أحرير هذا؟ قال صاحبه: لا إنه قطن.

فدفعه ابن عمر بيمينه، وقال: لا إني أخاف أن يجعلني مُختالاً فخوراً، والله لا يجب كل مختال فخور.

عهدت يوماً يشبعون مرة ويجوعون مرة

أتاه رجل بدواء فسأله ابن عمر: وماذا يُطيب هذا الدواء؟ قال: يهضم الطعام، فتبسم ابن عمر وقال لصاحبه: يهضم الطعام؟ إني لم أشبع من طعام قط منذ أربعين عاماً، وما ذلك لقلّة الطعام، ولكنني عهدت يوماً

يشبعون مرة، ويجوعون مرة. إني أخاف إن خالفتهم، ألا ألحق بهم.

متاعه يساوي مئة درهم

يقول ميمون بن مهران: «دخلت على ابن عمر فقومت كل شيء في بيته من فراش ولحاف وبساط، ومن كل شيء فيه، فما وجدته يساوي مئة درهم». فلم يكن زهده ذلك عن فقر فقد كان ثرياً، ولا عن بخل فقد كان جواداً سخياً. إنما هو التزام لمنهجه في الصدق والورع.

زهده في الإمارة

لم يكن ابن عمر يزاحم الدنيا، بل كانت الدنيا تسعى إليه. فكان يرفض الإمارة في كل أشكالها وصورها:

* فقد دعاه الخليفة «عثمان بن عفان» يوماً وطلب منه أن يشغل منصب القضاء فاعتذر، وقال له: إن القضاة ثلاثة:

- قاضٍ يقضي بجهل فهو في النار
 - وقاضٍ يقضي بهوى فهو في النار
 - وقاضٍ يجتهد ويصيب فهو كفاف، لا وِزْر ولا أجر
- وإني أسألك الله أن تعفيني.

* ولما استشهدَ عثمان بن عفان، قالوا لابن عمر: اخرج ليبياعك الناس. فرفض الخلافة، برغم ما تعرَّض له من تهديدات وأحياناً إغراءات. فلم تجد كل هذه التهديدات والإغراءات إلى قلب العابد الزاهد سبيلاً.

٩- اعتزاله الفتنة

لما عصفت الفتنة بالمسلمين، كان ابن عمر من الذين اعتزلوها، فلم يقاتل مع هذا ولا ذاك.

من قال حي على الصلاة أجبته

لقد كان ابن عمر يقف موقف الحياد والعزلة جاعلاً شعاره: «من قال: حي على الصلاة، أجبته. ومن قال: حي على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله، فلا».

أفأقاتل من يقول لا إله إلا الله؟

ولما سُئل ابن عمر عن سبب موقفه هذا، وامتناعه عن الانضمام لأي الفريقين قال: «يمنعني أن الله -تعالى- حرّم عليّ دم المسلم. ولقد قال ﷺ: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: ٣٩]، ولقد

فعلنا، وقاتلنا المشركين حتى كان الدين كله لله.

أما اليوم ففيمَ نقاتل؟ لقد قاتلت والأوثان تملأ الحرم من الركن إلى الباب حتى نحاهها الله من أرض العرب. أفأقاتل اليوم من يقول: لا إله إلا الله؟».

ما أحب أن يُقتل بسيفي رجل واحد

وظل ابن عمر على موقفه هذا، حتى بعد أن استقر الأمر لمعاوية، ثم لابنه يزيد من بعده الذي ترك ابنه معاوية الثاني بن يزيد، الذي كان زاهداً في الحكم فتركه، حتى ذلك اليوم وابن عمر شيخ مُسن كبير، كان لا يزال هو أمل الناس، وأمل الخلافة.

فذهب إليه مروان وقال له: هَلُمَّ يدك نبايعك، فإنك سيد العرب وابن سيدها. قال: كيف أصنع بأهل المشرق؟ قال مروان: تضرهم حتى يُبايعوا. قال: والله ما أحب أنها دانت لي سبعين سنة، وأنه قُتل في سيفي رجل واحد.

هكذا كان منطقته وكانت قناعته. وظل حتى آخر أيامه حريصاً على ألا يكون له في الفتن المسلحة دور أو نصيب.

١٠- كلمات من نور

والآن أعزائي وقبل أن نودّع هذا الصحابي الجليل، فلنعيش لحظات مع قبس من أقواله التي تملأ القلوب نوراً:

* كتب رجل لابن عمر، أن اكتب لي بالعلم كله. فكتب إليه: «إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كاف اللسان من أعراضهم، لازماً لأمر جماعتهم؛ فافعل».

* قيل لعبد الله بن عمر: توفي فلان الأنصاري، قال: رحمه الله. فقالوا: ترك مائة ألف، قال: لكنها لم تتركه.

* كان ابن عمر إذا أصبح قال: «اللهم اجعلني من أعظم عبادك نصيباً في كل خير تقسمه الغداة، ونوراً تهدي به، ورحمة تنشرها، ورزقاً تبسطه، وخيراً تكشفه، وبلاءً ترفعه، وفتنةً تصرفها».



فرضي الله عن ابن عمر وأبيه، وأين مثل ابن عمر في دينه وورعه وعلمه وخوفه؟! يا له من رجل تُعرض عليه الخلافة فيأبأها، والقضاء من قبل عثمان فيردّه، ونيابة الشام من قبل عليّ فيهرب منها. فالله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب.

الفصل الأخير

وبعد حياة طويلة ملاًها العابد الزاهد ابن عمر بالبذل والتضحية.
وفي العام الثالث والسبعين للهجرة، وقد بلغ من العمر خمسة وثمانين عاماً
تفيض روحه الطاهرة إلى بارئها ليلقى رسول الله وصحبه في جنة الخلد.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من وصفك رسول الله ﷺ بالرجل الصالح.
ورضي الله عنك وأرضاك يا «عبد الله بن عمر».

مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ

ولنعيش اللحظات القادمة أعزائي مع عَلمٍ من أعلام الصحابة، أكثرهم علمًا وفقهًا، من الأوائل السابقين للإسلام، شهد بيعة العقبة الكبرى. إنه إمام الفقهاء وكنز العلماء «مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» الذي قال له رسول الله ﷺ: «يا معاذ والله إني لأحبك».

وصفه وصفاته

لقد كان معاذ بن جبل من أفضل شباب يثرب، فكان يمتاز عن أترابه بحدة الذكاء، وقوة البديهة، وروعة البيان، وعلو الهمة. وكان إلى ذلك جميلاً وسيماً، أبيض الوجه، برّاق الثنايا، أجعد الشعر، أكحل العينين. يبهر الأبصار بهدوئه، وإذا تحدث أخذ الألباب، وازدادت الأبصار انبهاراً.

إسلامه

كان معاذ بن جبل من أوائل من أسلموا في المدينة، وكان إسلامه على يد الداعية المكي؛ أول سفير للإسلام «مصعب بن عمير».

فكان ثمرةً مباركة من ثمرات الدعوة إلى الله، التي قام بها مصعب بن عمير بأسلوبه الراقي الهادئ، الذي يعتمد على الحكمة والموعظة الحسنة. وفي ليلة العقبة، كان مُعَاذ بن جبل من الذين شهدوا البيعة، ووضع يده في يد رسول الله ﷺ لمبايعته.

الدعوة إلى الله

وما أن عاد معاذ بن جبل من مكة، وقد امتلأ قلبه نوراً بمبايعة رسول الله ﷺ، فعقد العزم على نشر دين الله والدعوة إلى نور الحق. وبدأ هو ونفر من الشباب حملة لكسر الأوثان، وانتزاعها من بيوت المشركين في يثرب في السرِّ والعلانية.

إسلام عمرو بن الجموح

كان من أثر هذه الحركة لفتيان يثرب أن أسلم رجل كبير من رجالات يثرب، هو عمرو بن الجموح الذي كان سيِّداً من سادات «بني سلمة» وشريف من أشرفهم. وكان ابنه «معاذ بن عمرو» قد أسلم وشهد العقبة، وكان صديقاً حميماً لمعاذ بن جبل، وانضم لمجموعة الفتیان الذين يقومون بتكسير الأصنام.

كان لعمر بن الجموح صنمٌ من خشب يُقال له: مناة، وكما كانت الأشراف يصنعون يتخذة إهًا يعظّمه ويطهّره ويعطّره كل صباح بالطيب، ويضعه في مكان خاص بمنزله.

محاولة تطهير منزله من الأوثان

فقام الفتيان الصغار، معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو وآخرون، قاموا إلى صنمه تحت جُنجح الظلام فحملوه من مكانه وطرحوه في حفرة كانت تُجمع فيها القاذورات ومخلفات قضاء الحاجة.

فلما أصبح عمرو بن الجموح افتقد صنمه فلم يجده في مكانه، فلما وجدته منكبًا على وجهه في الحفرة غارقًا في الأقدار، قال: ويلكم، مَنْ عدا على إلهنا هذه الليلة؟

ثم أخرجته وغسله وطهّره وطبّبه، وأعادته إلى مكانه، وقال له: أي مناة، والله لو أعلم مَنْ فعل هذا بك لأُخزيتّه. فلما أمسى الشيخ ونام، تسلل الفتية إلى صنمه وفعلوا به ما فعلوه في الليلة السابقة. فيغدو فيجده في مثل ما كان عليه من الأذى فيغسله ويطهره ويضعه في مكانه، ثم يعدون عليه إذا أمسى.

إن كان فيك خير فادفع عن نفسك

فلما تكرر ذلك منهم استخرجه من حيث ألقوه، وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، وقال له: «والله إني لا أعلم من يفعل بك ما ترى، فإن كان فيك خيرٌ فادفع عن نفسك، وهذا السيف معك». فلما أمسى الشيخ ونام، غدا الفتية على الصنم، وأخذوا السيف من عنقه، ثم ربطوه بعنق كلب ميت وألقوهما في حفرة من تلك الحفر.

فلما أصبح عمرو بن الجموح، فلم يجده في مكانه فخرج يتبعه حتى وجده مُلقى بين الأقدار مقروناً بكلب ميت. فلما رآه وأبصر شأنه، فقال: تالله لو كنت إلهًا لم تكن أنت وكلب مقروناً وسط تلك القاذورات. فأسلم عمرو بن الجموح وحسن إسلامه.

في رحاب رسول الله ﷺ

خير تلميذ لخير مُعلم

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لزمه «معاذ بن جبل» ملازمة العين لأختها، وأخذ عنه القرآن، وتلقى عليه شرائع الإسلام. حتى غدا من أقرأ الصحابة لكتاب الله وأعلمهم بشرعه.

فلا عجب فمعاذ تربى في مدرسة الحبيب المصطفى ﷺ، ونهل العلم من

ينابيعه الغزيرة، فكان خير تلميذ لخير مُعلم.

أوسمة على صدر مُعاذ

وهاك بعض الأوسمة التي وضعها رسول الله ﷺ على صدر مُعاذ بن جبل:

يا معاذ إني لأحبُّك

يقول معاذ بن جبل: لقيني رسول الله ﷺ فأخذ بيدي، وقال: «يا معاذ إني لأحبك في الله». فقلت: وأنا والله يا رسول الله، أحبك في الله. قال: «أفلا أعلمك كلمات تقولهن في دُبُر كل صلاة: اللهم أعني على ذِكرك وشكرك وحسن عبادتك».

خذوا القرآن من أربعة

يقول رسول الله ﷺ: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وأبي، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى حُذيفة».

نعم الرجل مُعاذ

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمَ الرجل أبوبكر، نعمَ الرجل

عمر، نِعَمَ الرجل معاذ بن جبل».

أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدّها في دين الله عمر، وأصدقها حياءً عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

كنت رديف رسول الله ﷺ

يقول معاذ بن جبل: كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار يُقال لها عُفَيْر. وهذا دليل على عظيم تواضع رسول الله ﷺ، وعلى قدر معاذ ومكانته عند رسول الله ﷺ.

إن معاذًا كان أمة

وقد علم أصحاب رسول الله ﷺ مكانة معاذ، فكانوا يحملون له كل الحب والتقدير. يقول ابن مسعود: «كنا نُشبه معاذ بإبراهيم عليه السلام؛ إن معاذًا كان أمة قانتًا لله».

أعماله في عصر النبوة

لقد كان رسول الله ﷺ يعلم قَدْر الرجال ومواضع قوتهم وطاقتهم، فكان يوظف تلك الطاقات في خدمة دين الله، فيضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

مُعَاذُ مُعَلِّمًا

* لما فتح الله على رسوله والمؤمنين، ورأى رسول الله ﷺ جموع الناس تدخل في دين الله أفواجا بعد فتح مكة. فشرع بحاجة المسلمين الجدد إلى مُعَلِّم يعلمهم الإسلام ويفقههم بشرائعه. فتعهد بخلافته على مكة لعتاب بن أُسيد، واستبقى معه معاذ بن جبل لِيُعَلِّم الناس القرآن ويفقههم في دين الله.

* ولما جاءت ملوك اليمن إلى رسول الله ﷺ تعلن إسلامها وإسلام من وراءها، وتسأله أن يبعث معهم مَنْ يُعَلِّم الناس دينهم. فانتدب رسول الله ﷺ لهذه المهمة نفراً من الدعاة الهداة من أصحابه، وأمر عليهم معاذ بن جبل.

منهاج الدعوة

ويُنير مُعلم البشرية ﷺ لمعاذ بن جبل الطريق، ويُعلمه منهاج الدعوة:

* فلما بعث رسول الله ﷺ معاذًا إلى اليمن سأله: «كيف تقضي إن عُرض عليك قضاء؟» قال: أقضي بما في كتاب الله. قال رسول الله ﷺ: «فإن لم تجد في كتاب الله؟» قال معاذ: أقضي بما قضى به رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟» قال معاذ: أجتهد رأيي ولا ألو - أي: لا أتجاوز-، فتهلل وجه رسول الله ﷺ وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله.»

* وعن أبي موسى الأشعري: أن نبي الله ﷺ لما بعثه ومعاذًا إلى اليمن قال لهما: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنْفِرَا.»

رسول الله ﷺ يودّع معاذ الوداع الأخير

وخرج رسول الله ﷺ يودّع بعثة الهدى والنور هذه التي يقودها معاذ، ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلة معاذ ومن معه، فقال: «يا معاذ إنك عسى ألا تلتقاني بعد عامي هذا، ولعلك تمر بمسجدي وقبري»، فبكى معاذ جزعًا لفراق مُعلمه ورسوله، وبكى معه المسلمون.

وسافر معاذ إلى اليمن، يدعو إلى الله، ويُعلم الناس شرائع الإسلام. وصدقت نبوءة رسول الله ﷺ، فما اكتحلت عينا معاذ برؤية رسول الله ﷺ

بعد تلك الساعة. فقد انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى قبل أن يعود معاذ من اليمن. فلما عاد إلى المدينة ولم يجد فيها الحبيب بكى وأحس وكأن الدنيا كلها أظلمت من حوله.

مناقبه وفضائله

١ - عصر المثل العليا

وبعد وفاة رسول الله ﷺ تولى أبو بكر الخلافة، وكان يعرف لمعاذ قدره ومكانته..

وإليكم أعزائي هذا المشهد الرائع من تلاميذ مدرسة الحبيب المصطفى ﷺ، فلنستمع ونتأمل:

عاد معاذ من اليمن في خلافة أبي بكر، وكان معه من المال والرقيق، فلما لقيه عمر قال له: ما هؤلاء؟ قال: أهدوا إليّ، قال: ادفعهم إلى أبي بكر. كان معاذ طاهر الكفِّ والذمة، فإنه لم يكتسب إثماً ومن ثمَّ فقد رفض عرض عمر وناقشه رأيه.

وفي الغداة ذهب معاذ إلى دار عمر مهرولاً، ولا يكاد يلقاه حتى يعانقه ودموعه تسبق كلماته ويقول: «لقد رأيت الليلة في منامي أني أخوض حومة ماء، أخشى على نفسي الغرق فيها. حتى جئت فخلصتني يا عمر».

وذهبا معاً إلى أبي بكر، وطلب معاذ منه أن يُشاطرهُ ماله. فأبى أبو بكر وقال: «لا آخذ منك شيئاً». فنظر عمر إلى معاذ، وقال له: «الآن حلّ وطاب».

فما كان أبوبكر الورع ليترك لمعاذ درهماً واحداً لو علم أنه أخذه بغير حق. وما كان عمر مُتجنياً على معاذ بتهمة أو ظنٍّ. إنما هو عَصْر المثل العليا، كان يزخر بقوم يتسابقون إلى ذرى الكمال الميسور، فمنهم الطائر المحلّق، ومنهم المهرول، ومنهم المقتصد. ولكنهم جميعاً في قافلة الخير سائرون.

٢- كان معي رقيب

لما تولى الخلافة عمر بن الخطاب، أرسل معاذ إلى بني كلاب ليقسم فيهم أعطياتهم، ويوزّع على فقرائهم الصدقات. فقام بما عهد إليه، وعاد إلى زوجته بحِلْسِه - ما يُوضَع على ظهر الدابة تحت السرج - الذي خرج به يلفّه على رقبته.

فقالت له امرأته: أين ما جئت به مما يأتي به الولاية من هدايا لأهلهم؟ فقال: لقد كان معي رقيب يقيظ يُحْصِي عليّ - يقصد الله ﷻ -.

فقالت: قد كنت أميناً عند رسول الله ﷺ، وأبي بكر، ثم جاء عمر فيبعث معك رقيباً يُحْصِي عليك؟ وأشاعت ذلك في نسوة عمر واشتكته هن.

فبلغ ذلك عمر، فدعا مُعَاذًا وقال: أأنا أبعث معك رقيبًا يُحْصِي عليك؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين، ولكنني لم أجد شيئًا أعتذر به إليها إلا ذلك. فضحك عمر وأعطاه شيئًا، وقال له: أَرْضِهَا به.

٣- من أراد الفقه فليأت معاذ بن جبل

ولما احتاج أهل الشام إلى مَنْ يُعَلِّمُهُم القرآن ويُفَقِّهُهُمْ في الدين، دعا أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» نفر الخمسة الذين جمعوا القرآن في زمن النبي ﷺ، وهم: معاذ بن جبل، وعُبادَة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصاري، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء.

وقال لهم: إن إخوانكم من أهل الشام قد استعانوني بمن يُعَلِّمُهُم القرآن ويُفَقِّهُهُمْ في الدين، فأعينوني بثلاثة منكم، فإن أحببتم فاقترعوا، وإلا أنتدب منكم ثلاثة. فقالوا: ولم نقترع؟ فأبو أيوب شيخ كبير، وأبي رجل مريض، وبقينا نحن الثلاثة.

فقال عمر: ابدأوا بحمص، فإن رضيتم حال أهلها، فخلفوا أحدكم فيها وليخرج واحد منكم إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين. فقام أصحاب رسول الله ﷺ الثلاثة بما أمرهم الفاروق في حمص، ثم تركوا فيها عبادة بن الصامت، وذهب أبو الدرداء إلى دمشق، ومضى معاذ إلى فلسطين.

وكان عمر بن الخطاب يُقدِّر لمعاذ علمه وفقهه:

* فقد روى موسى بن علي بن رباح عن أبيه قال: خطب عمر الناس بالجابية فقال: «من أراد الفقه فليأت معاذ بن جبل».

* وكان عمر بن الخطاب يستشير كثيرًا، ويقول: «لولا معاذ هلك عمر».

٤ - وقعت محبته في قلبي

قال رسول الله ﷺ: «إذا أحب الله عبدًا دعا جبريل فقال له: إني أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبُّوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يُوضَع له القبولُ في أهل الأرض».

ولقد كان معاذ بن جبل من هذا الصَّنْف الكريم، كان يقع القبول والحب في قلب كل من يلقاه. يقول أبو مسلم الخولاني: دخلت مسجد حمص فإذا فيه نحو ثلاثين كهلاً من الصحابة، يتوسطهم شابُّ براق الشنايا، أكحل العينين، صامت لا يتكلم، فإذا اختلفوا في شيء، أقبلوا عليه فسألوه. قلت لجليس لي: من هذا؟ قال: معاذ بن جبل. ف وقعت محبته في قلبي.

٥- يخرج من فمه نور ولؤلؤ

حدّث يزيد بن قُطيب قال: دخلت مسجد حمص، فإذا بفتى أجعد الشعر قد اجتمع الناس حوله. إذا تكلم كأنها يخرج من فمه نور ولؤلؤ، فقلت: من هذا؟ قالوا: معاذ بن جبل.

٦- قبس من أقواله وحكمه

ولنقترب أعزائي من هذا الفقيه الورع، ولنستمع إلى بعض من حكمه وأقواله:

إن للحق نورًا

كان معاذ يدعو الناس إلى التماس العلم الصحيح النافع فيقول: «احذروا زيغ الحكيم، واعرفوا الحق بالحق، فإن للحق نورًا».

علمني يا معاذ

كان معاذ يرى العبادة قصدًا وعدلاً، بلا تقصير ولا إفراط. قال رجل لمعاذ: علمني يا معاذ. فسأله معاذ: وهل أنت مُطيعي؟ قال: إني على طاعتك لحريص. فقال: صُمْ وأفطر، وصلِّ ونَمْ، واكتسب ولا تأثم، ولا

تموتن إلا وأنت مسلم، وإياك ودعوة المظلوم».

صلِّ صلاة مودِّع

قال معاذ بن جبل لابنه: «يا بُنَيَّ إذا صليت فصلِّ صلاة مودِّع، لا تظن أنك تعود إليها أبداً، واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حستين؛ حسنة قدَّمها وحسنة أخرها».

دعاؤه إذا تهجد

كان معاذ بن جبل إذا تهجد من الليل قال: «اللهم قد نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت حي قيوم، اللهم طلبي للجنة بطيء وهربي من النار ضعيف، اللهم اجعل لي عندك هُدًى ترده إلى يوم القيامة، إنك لا تُخلف الميعاد».

٧- كرمه وإيثاره

لقد كان معاذ سَمَّح اليد والنفس والخلق. فلا يُسأل عن شيء إلا أعطاه مُغْتَبِطاً. ولقد ذهب جوده وسخاؤه بكل ماله.

إخوة بعضهم من بعض

أرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أربعمئة دينار، وقال لرسوله: انتظر ساعة وانظر ما يصنع، فذهب الغلام بها وقال لأبي عبيدة: يقول أمير المؤمنين لك: اجعل هذه في حاجتك، فقال أبو عبيدة: وصله الله ورحمه، ثم قال لجاريتته: اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وهذه الخمسة إلى فلان، وظل هكذا حتى أنفذها.

ورجع الغلام إلى أمير المؤمنين وأخبره بما رأى، فوجده أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل، وقال له: افعل بها مثلما فعلت مع أبي عبيدة. ويذهب الغلام إلى معاذ، وما أن أعطاه المال حتى قال: يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، وبيت فلان بكذا. فاطلعت زوجة معاذ وقالت: ونحن والله مساكين، وكان المال قد نفذ ولم يبق في الصرّة إلا ديناران فأعطاهما لها.

ورجع الغلام إلى أمير المؤمنين ليُخبره بما رأى وما سمع، فسُرَّ بذلك وقال: «إنهم إخوة بعضهم من بعض».

ولعلك عزيزي القارئ، قد تجد مثيلات تلك الروايات من كرم وإيثار كلما مررت على سيرة أي من «الصحب الكرام»، فلا عجب في هذا. فجميعهم تربوا وتعلموا وتخرجوا من أفضل مدرسة عرفتها البشرية؛ مدرسة الحبيب

المصطفى ﷺ.

٨- جهاده في سبيل الله

ومع ما كان له من علم غزير، وفقه وفير، فقد كان معاذ بن جبل في ميادين القتال قائداً مغواراً.

فقد شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، حتى مات رسول الله ﷺ، وهو عنه راضٍ.

ثم كان كذلك جندياً لا يهاب الموت، ويبحث عن الشهادة في خلافة الشيخين؛ «أبي بكر وعمر».

فقد شهد موقعة «أجنادين»، وكان قائداً للميمنة، وأبلى فيها بلاءً حسناً. وكذلك في موقعة «فحل»، لما فاوض الروم ممثلاً للمسلمين، وكان مفاوضاً عنيداً، قتل صلفهم وغرورهم بكل حنكة واقتدار. ثم كانت «اليرموك»، وكان قائداً من قوادها، وكان له دور كبير فيها بما بثه من روح في جنوده ألهبت حماسهم، وجعلتهم يقاتلون قتال الأبطال، لا يهابون الموت ويرجون الشهادة. فكان نصر الله المبين.

الفصل الأخير

واليًا على الشام

لما أُصيب أبو عبيدة بن الجراح بالطاعون، استخلف عمر معاذًا واليًا على الشام. ولم يمضِ في موقعه سوى بضعة أشهر حتى حان موعد الرحيل.

ليس برجز ولكن رحمة ربكم

وبدأ الطاعون يحصد الأرواح حصداً، فصَرَخ الناس إلى معاذ: ادع الله أن يرفع عنا الرجز. فقال: «إنه ليس برجز، ولكن رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم. اللهم فآت آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة».

ستجدني إن شاء الله من الصابرين

واستجاب الله لمعاذ، فهاتت ابتاه ودفنهما في قبر واحد. وما أمسى حتى أُصيب بالطاعون ابنه عبد الرحمن وأحب الناس إليه، الذي كان يُكنَّى به. فلما وجده معاذ مكروباً قال له: يا عبد الرحمن، كيف أنت؟ قال له عبد الرحمن: يا أبت {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} {آل عمران: ٦٠}، فقال معاذ: أما أنا يا بني {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} {الصفات:

[١٠٢]. فمات عبد الرحمن في ليلته ودُفن في الغد.

مرحبًا بالموت زائر بعد غياب

ولم يُمهّل الطاعون معاذًا، وحن أجله ودُعي للقاء ربه. فلما كان في سكرات الموت، استقبل القبلة وهو يُحدِّق في السماء وقال مناجيًا ربه: «اللهم إني كنت أخافك، لكنني اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لِغرس الأشجار وكري الأنهار، ولكن لظمًا الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء عند حلق الذكر». «مرحبًا بالموت.. مرحبًا زائر جاء بعد غياب، وحبيب وفد على شوق..».

وتفيض روحه الطاهرة إلى بارئها، وقد بلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا. ليرحل عن الدنيا، ويبقى علمه وسيرته العذبة.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من قال لك رسول الله ﷺ: «إني لأحبك».

ورضي الله عنك وأرضاك يا «معاذ بن جبل».

عبد الله بن عمرو بن العاص

ولنستعد أعزائي لاستقبال هذا الصحابي الجليل، هذا العابد، القانت، الأواب، الذي أعطى وقته كله للعبادة وطاعة الله، فلم يعد الليل والنهار يتسعان لتعبُّده ونُسكِهِ؛ إنه مَنْ رَدَّ جبريل عليه السلام؛ إنه «عبد الله بن عمرو بن العاص».

إسلامه

سبق عبد الله بن عمرو أباه «عمر بن العاص» إلى الإسلام، وأخفى إسلامه عن أبيه. وكما تعرَّض المسلمون الأوائل للتنكيل والتعذيب، أخذ عبد الله بن عمرو حظَّه من التعذيب على يد كفار قريش ومَنْ ولاهم.

أعماله ومناقبه

منذ أن وضع عبد الله بن عمرو يمينه في يمين رسول الله ﷺ مبايعاً ومصدقاً، حتى أصبح قلبه مُضاءً بنور الله ونور طاعته.

وهناك بعض من أعماله ومناقبه:

١ - يحفظ القرآن ويعمل به

عكف عبد الله بن عمرو أولاً على القرآن، فكان كلما نزلت منه آيات حفظها وفهمها وعمل بها. فيحل ما أحلَّ، ويحرم ما حرَّم. فكان يداوم على قراءته وتدبره، باكي العين مما يثيره في قلبه من خشية الله تعالى.

٢ - مجاهد في سبيل الله

شهد عبد الله بن عمرو المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، والخلفاء من بعده. فكان مجاهداً في سبيل الله، مقاتلاً مغواراً، لا يهاب الموت، ويتمنى الشهادة بروحٍ مُحبِّبٍ.

٣ - العابد الزاهد الأواب

وإذا وضعت الحرب أوزارها، فلم يكن هناك ما يشغله عن العبادة والتقرب إلى الله. فكان المسجد هو مقامه، أو في بيته صائماً، قائماً، لا يعرف لسانه حديثاً من أحاديث الدنيا مهما كان حلالاً. إنها هو رطب بذكر الله، تالياً للقرآن، مسبِّحاً بحمد الله فانشغل ابن عمرو بالعبادة حتى إنه لم يجد

متسَعًا ليستمتع بشيء من لذات الدنيا التي أحلَّها الله له.
فكان إن لم يكن هناك خروج في غزوة، فإن أيامه كلها تتلخص في أنه من
الفجر إلى الفجر في عبادة موصولة؛ صيام، وصلاة، وتلاوة للقرآن.

رسول الله ﷺ يدعو إلى القصد في العبادة

فلما علم بذلك أباه «عمر بن العاص» وهجره لأهله، وانقطاعه للعبادة.
فشكاه إلى رسول الله ﷺ، فدعاه مُعلم البشرية ﷺ، الذي جاء يدعو الناس
إلى عبادة الله، دعاه ليعلمه القصد في العبادة وعدم الغلو فيها.. فقال له
رسول الله ﷺ: «أتصوم النهار وتقوم الليل؟» قال: نعم.
قال رسول الله ﷺ: «صُم من كل شهر ثلاثة أيام»، قال: إني أطيق أكثر من
ذلك.

قال رسول الله ﷺ: « فحسبك أن تصوم من كل جمعة يومين». قال: إني
أطيع أكثر من ذلك.
فقال له رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام هو صيام أخي داود، صُم يومًا
وأفطر يومًا».

ثم عاد رسول الله ﷺ يسأله: «علمت أنك تجمع القرآن كله في ليلة؟». قال:
نعم.

قال رسول الله ﷺ: «اقرأه في كل عشرة أيام». قال: إني أطيق أكثر من ذلك.
 قال رسول الله ﷺ: «اقرأه مرة كل ثلاثة أيام».
 وفي نصيحة شاملة كاملة لعبد الله بن عمرو، ولعلها لكل من يغلو في
 عبادته. قال رسول الله ﷺ: «إني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج
 النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ

فلما كبر عبد الله بن عمرو، ووهن منه العظم، وأصبح لا يقوى على هذه
 العبادة. كان يذكر دائماً نُصَح رسول الله ﷺ ويقول: يا ليتني قبلت رخصة
 رسول الله ﷺ.

٤ - جبريل يرد عليه السلام

يقول عبد الله بن عمرو: كنت يوماً مع رسول الله ﷺ في بيته فقال: «هل
 تدري من معنا في البيت؟». قلت: مَنْ يا رسول الله؟. قال: «جبريل عليه
 السلام». قلت: السلام عليك يا جبريل ورحمة الله. فقال رسول الله ﷺ:
 «إنه ردَّ عليك السلام».

٥ - أكتب ما أسمع منك يا رسول الله؟

وبرخصة من رسول الله ﷺ، كان عبد الله بن عمرو من أكثر الصحابة حديثاً عن رسول الله ﷺ. يقول عبد الله بن عمرو: قلت: يا رسول الله، أكتب ما أسمع منك؟، قال: «نعم». قلت: في الرضا والغضب؟ قال: «نعم، فإني لا أقول إلا حقاً».

وعن أبي هريرة أنه قال: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه يكتب ولا أكتب.

٦ - كرم وتواضع وزهد

وإليك عزيزي القارئ هذا المشهد الذي تتجلى فيه باقّة من فضائل الخصال في هذا العابد الزاهد «عبد الله بن عمرو».

فعن سلمان بن ربيعة أنه حجّ في جماعة من قُراء أهل البصرة. فقال: والله، لا نرجع حتى نلقى رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ليحدثنا بحديث.

فلم نزل نسأل حتى علمنا أن عبد الله بن عمرو نازل في أسفل مكة، فعمدنا إلى منزله فوجدنا عنده ثلاثمائة راحلة. فقلنا: لمن هذا الثقل؟

فقالوا: لعبد الله بن عمرو.

فقلنا: أكل هذا له؟ وكنا نحدّث أنه من أشد الناس تواضعاً وزهداً، فقالوا:

مئة لإخوانه يحملهم عليها، والمائتان فلِمَن نزل عليه من أهل الأمصار
ولأضيافه.

فعجبنا من ذلك، فقالوا: لا تعجبوا من ذلك، فإن عبد الله رجل غني، وإنه
يرى عليه أن يكتز من الزاد لمن نزل عليه من الناس.
فقلنا: دلونا عليه، فقالوا: إنه في المسجد الحرام. قال: فانطلقنا حتى وجدناه
في دُبر الكعبة جالسًا بين بُردتين وعمامة وليس عليه قميص وقد علق نعليه
في شماله.

وخلاصة هذا المشهد:

أننا أمام رجل أعطاه الله من المال، فجعله في خدمة الناس. وبقي هو في
زهده وتعبُّده. فكان جامعًا لفضائل الخصال: كرم وزهد وتواضع.. وكان
هذا حال جُلِّ «الصحب الكرام».

٧- قبس من أقواله وحكمه

والآن أعزائي وقبل رحيل هذا الصحابي الجليل، فلنقتبس بعض من أقواله
وحكمه:

* يقول عبد الله بن عمرو: «لأن أكون عاشر عشرة مساكين يوم القيامة،

أحب إليَّ من أن أكون عاشر عشرة أغنياء، فإن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة».

* ويقول: «لو تعلمون حق العليم، لسجدتم حتى تنقصف ظهوركم، ولصرختم حتى تنقطع أصواتكم، فابكوا فإن لم تجدوا تباكوا».

* ويقول: «لأن أدمع دمعة من خشية الله ﷻ، أحب إليَّ من أن أتصدق بألف دينار».

الفصل الأخير

مالي ولفين.. مالي وقتال المسلمين!؟

لما رأى عمرو بن العاص ابنه مقبلاً على العبادة إقبالاً يشكّل خطراً على حياته، فشكاه إلى رسول الله ﷺ - كما أسلفنا - وقد أمره رسول الله ﷺ بالقصد في العبادة وحدّد له مواقيتها. وكان عمرو حاضراً، فأخذ رسول الله ﷺ يد عبد الله ووضعها على يد أبيه، وقال له: «أطع أباك ما دمت حياً».

وانتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ودار موكب الزمان حتى كانت الفتنة الكبرى، وكانت موقعة صفين بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وكان عمرو بن العاص في فريق معاوية، وكان يعلم أن الصحابة يثقون في ابنه «عبد الله»، فعزم عليه أن يخرج معه، فخرج مكرهاً لا يريد القتال، لكنه أراد أن يمثل لأمر رسول الله ﷺ حين قال له: «أطع أباك ما دمت حياً». فشهد عبد الله القتال، ولكنه لم يضرب بسيف ولم يرم بسهم. ولما انتهت المعركة وعاد «عبد الله بن عمرو»، ظل يوم صفين وكأنه صفحة سوداء في حياته، ومبعث قلق له دائم.

وكان كلما ذُكِرَ هذا اليوم، ورغم أنه لم يقاتل فيه، بكى وهو يقول: «مالي ولفين، مالي وقتال المسلمين، لوددت أني مت قبلها بعشرين سنة. أما والله

على ذلك ما ضربت بسيف، ولا رميت بسهم».

الوفاء بالوعد

وبعد حياة طويلة مملوءة بالطاعة والزهد، يرقد ابن عمرو على فراش الموت، ويضرب لنا المثل والقُدوة في الوفاء بالوعد حتى عند موته.

فعن هارون بن رثاب قال: لما حضرت عبد الله بن عمرو الوفاة قال: «إنه خطب لي ابنتي رجلٌ من قريش، وكان مني إليه شبيهُ الوعد. فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق، اشهدوا أني زوجتها إياه».

وفي العام الخامس والستين من الهجرة، وقد بلغ عبد الله بن عمرو اثنين وسبعين عامًا، يُلبي نداء ربه، وتصعد روحه الطاهرة إلى بارئها.

فرحمة الله وبركاته عليك «كاتب سُنَّة رسول الله ﷺ»

يا من ردَّ عليك جبريل السلام.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «عبد الله بن عمرو بن العاص».

كعب بن مالك

وها نحن أعزائي على موعد مع ريحانة أخرى من رياحين «الصحب الكرام»، إنه صحابي جاهد مع رسول الله ﷺ، بسيفه ولسانه. أخلص النية لله، وصدق مع رسول الله ﷺ، فنزل فيه قرآن يُتلى إلى يوم القيامة. فهو مثال يُتَدَى به في صدق القول والنية؛ إنه شاعر رسول الله ﷺ «كعب بن مالك».

إسلامه

أسلم كعب بن مالك مبكراً، وكان ممن شهدوا العقبة. ومنذ أن وضع يمينه بيمين رسول الله ﷺ، حتى امتلأ قلبه حباً لله ولرسوله ﷺ، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، كان كعب في رحاب رسول الله ﷺ، يلازمه ملازمة العين لأختها. وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين طلحة ابن عبيد الله. وفي رواية: آخى بينه وبين الزبير بن العوام.

جهاده

لقد كان لكعب بن مالك سلاحان يجاهد بهما: شِعْرُه وسَيْفُه.

جهاده بشعره

كأنما ترمونهم به نضح النبل

فقد كان واحداً من ثلاثة شعراء لرسول الله ﷺ، وهم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك. وقد كان لشعرهم دور كبير في نشر الدعوة، وتشجيع المؤمنين، وقذف الرعب في قلوب المشركين؛ فقد أسلمت قبيلة دوس -على سبيل المثال- لسماعهم بعضاً من أشعار كعب بن مالك. فعن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه قال: يا رسول الله، قد أنزل الله في الشعراء ما أنزل. فقال رسول الله ﷺ: «المجاهد، مجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنما ترمونهم به نضح النبل».

جهاده بسيفه

يوم بدر

لم يشهد كعب بدرًا، ولم يُعاتبه رسول الله ﷺ لتخلُّفه عنها؛ لأنه ظنَّ كما ظن كثيرون أن رسول الله ﷺ خرج يريد عير قريش، ولكن الله جمع بينه وبين أعدائه على غير موعد.

يوم أحد

وفي يوم أحد، أبلى كعب بلاءً حسنًا. فلما انكشف المسلمون ودارت الدائرة

عليهم، وأشاع المشركون أن رسول الله ﷺ قد قُتِلَ. فلما أقبل رسول الله ﷺ على جيشه، كان كعب بن مالك أول مَنْ عرفه وناذَى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أبشروا هذا رسول الله ﷺ حيٌّ ولم يُقتل.

وكان لهذه الصيحة أثرها الكبير، فما أن بلغت آذان المسلمين حتى لاذوا إلى رسول الله ﷺ وتجمعوا حوله. وقد قاتل كعب يومئذ قتالاً شديداً حتى جُرح سبعة عشر جرحاً.

وشهد كعب بعد ذلك مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، لم يتخلف عن أيٍّ منها، إلا ما كان يوم تبوك.

غزوة تبوك

كانت الأنباء قد ترامت إلى رسول الله ﷺ، أن الروم تستعد للقيام بغزوة حاسمة للقضاء على الإسلام والمسلمين. فعزم رسول الله ﷺ أن يخرج إليهم قبل أن يأتوا إلى المدينة.

فكانت غزوة تبوك التي سُميت «بغزوة العُسرة» للظروف القاسية التي أحاطت بها.

فالعدو جيش الروم، بما له من قوة وعتاد، والوقت كان صيفاً شديداً الحر والقحط. فكان الأمر يحتاج إلى كثير من الجهد والمال لإعداد جيش ليقاوم الروم. * (للاستزادة من أخبار تبوك، ارجع إلى الجزء الأول: «حياة خير الأنام» للمؤلف).

- ولما عزم رسول الله ﷺ، على السير إلى الرومان وقتالهم؛ أخبر الناس بعزمه حتى يستعدوا. وتجلت في هذا الإعداد طوايا النفوس:
- * فهناك أغنياء تسابقوا إلى إخراج ثرواتهم لتجهيز الجيش وإعداده.
 - * ومنهم الفقراء الذين لم ييخلوا بالجود بأنفسهم، ثم أعجزتهم الوسائل ففاضت أعينهم بالدمع حزناً.
 - * وعلى الجانب الآخر، كان هناك أهل الريبة والنفاق الذين قدَّموا كل أنواع الأعذار للتخلف عن اللقاء ومحاولة تثبيط العزائم.

الثلاثة الذين خُلفوا

- وتخلف بعض المسلمين من أهل الصدق ممن لا يُتَّهَمون في إسلامهم، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع.
- كانوا قد تكاسلوا ولم يخرجوا مع الجيش بِنِيَّة أن يلحقوا بهم. ولكنهم أجَّلوا خروجهم يوماً بعد يوم، حتى وصل الجيش إلى منتهاه، وظلوا لم يخرجوا.

النصر المبين

- وسار رسول الله ﷺ بجيشه حتى وصل إلى تبوك، وما أن علم الروم بمقدم رسول الله ﷺ وجيشه، حتى فرُّوا هاربين، فمكث رسول الله ﷺ هناك

بضعة عشر يوماً، ثم قرّر أن يقفل عائداً إلى المدينة بجيشه ظافرين منصورين لم ينالوا كيداً، وكفى الله المؤمنين القتال.

المخلفون يعتذرون

ولما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فجاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً. فقبل رسول الله ﷺ علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

حديث صدق مع رسول الله ﷺ

وجاء كعب بن مالك، فلما سلم على رسول الله ﷺ، وجلس بين يديه فقال له رسول الله ﷺ: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» فقال كعب: بلى والله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولكنني والله لقد علمت إن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عليّ، ليوشكن الله أن يسخطك عليّ. ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه لأرجو منه عفو الله عني. والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك».

فقام كعب فأتبعه رجال من بني سلمة وجعلوا يؤنّبونه، ونصحوه بالعودة إلى رسول الله ﷺ ويعتذر له بما اعتذر الآخرون. لكنَّ كعباً لم يعتبر بما يقولون، وخاصة لما علم أن هناك رجلين آخرين قالوا مثل ما قال، وقيل لهما مثل الذي قيل له. وهما: مُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. وهما رجلان صالحان شهدا بدرًا وفيهما أسوة.

حُكْم رسول الله ﷺ على الثلاثة

وبحكمة المُعلِّم، وعطف الأب الذي قد يقسو على أولاده أحياناً لِيُعلِّمهم ويُربِّيهم. نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلام هؤلاء الثلاثة، فاجتنبهم الناس، وقعدوا في بيوتهم. وكان كعب بن مالك أشجعهم، فكان يخرج للصلاة مع المسلمين، وإذا حدث والتقى برسول الله ﷺ أعرض عنه. فيطوف في الأسواق فلا يكلمه أحدٌ.

كعب يتحمل الجفاء

ويتحمل كعب بن مالك جفوة رسول الله ﷺ والمسلمين، حتى أنه لما طالت عليه تلك الجفوة مشى إلى بيت «أبي قتادة» وكان ابن عمه وأحب الناس

إليه.

فلما سلم عليه فلم يرد السلام. فقال: يا أبا قتادة، أنشدك الله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعاد له ينشده، فسكت وكرَّر ذلك عليه. فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عينا كعب بالدمع وتولى حزينا أسفاً.

كتاب من ملك غسان

وليزداد البلاء على كعب، تعرَّض لاختبار آخر. فبينما هو يمشي بسوق المدينة، إذا برجل قادم من الشام يقول: مَنْ يدلني على كعب بن مالك؟ فطلق الناس يشيرون إليه، حتى جاء إليه ودفع إليه كتاباً من ملك غسان يقول فيه: «أما بعد، فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك». فلما قرأها كعب قال: وهذا أيضاً من البلاء، وأخذ الرسالة وأحرقها.

اعتزل امرأتك

ويمر أربعون يوماً من الجفاء، وكعب وصاحبه صابران على البلاء. فإذا برسول رسول الله ﷺ يأتي كعب ويقول: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقال: أطلقها أم ماذا؟ قال لا، ولكن اعتزلها ولا تقرها.

وأرسل لصاحبيه مثل ذلك. فقال كعب لامرأته: الحقني بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فجاءت امرأة هلال بن أمية فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ كبير وضعيف، وليس له من يخدمه. فأذن لها رسول الله ﷺ أن تخدمه، ولكن لا يقربها.

فقال بعض أهل كعب له: لو استأذنت رسول الله في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقال كعب: والله لا أفعل، وما يدريني ما يقول لي رسول الله إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟

أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك

ولبث الثلاثة على هذا الحال حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم. حتى كانت صلاة الفجر من الليلة الخمسين من حيث نهى رسول الله ﷺ عن كلامهم؛ حيث تنزلت الرحمات ونزل العفو من رب العزة في قوله تعالى: **{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [التوبة: ١١٨].
وبينما كعب على سطح بيته إذ سمع منادياً ينادي: يا كعب بن مالك، أبشر.

فخرَّ ساجداً وعرف أنه قد جاء فرَجٌ من الله. فلما وصل البشير إلى كعب فنزع له ثوبيه فكساه إياه لبُشْرَاه، وما يملك غيرهما. واستعار ثوبين ولبسهما، وانطلق إلى رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، فإذا برسول الله ﷺ جالس وحوله الناس. فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحه وهنَّأه، وتلقاه الناس يهتفون بتوبة الله عليه. ولما سلم على رسول الله ﷺ قال له وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك».

الله نجاني بالصدق

فقال كعب لرسول الله ﷺ: أهو من عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «بلى، هو من عند الله». فقال: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة لله ورسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خيرٌ لك». فقال: يا رسول الله، إن الله نجاني بالصدق. فتبسَّم رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر. يقول كعب بن مالك: «فوالله، ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث ما أبلاني. والله ما تعمدت بعد ذلك إلى يومي هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت».

الفصل الأخير

وعاش كعب بن مالك طوال عمره تائبًا صادقًا عابداً لله ﷺ ، إلى أن نام على فراش الموت لتفيض روحه الطاهرة إلى بارئها، ليلقى رسول الله ﷺ وصحبه في جنات الفردوس الأعلى.

فرحمة الله وبركاته عليك يا شاعر رسول الله ﷺ .

يا من صدقت مع الله ورسوله، فكان لك من الله التوبة والمغفرة.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «كعب بن مالك» .

عبد الله بن عباس

وإليكم أعزائي هذا الصحابي الجليل، فهو زهرة يانعة ملاً ريحها الدنيا بعلمه وفقهه وحكمته. وقد جمع الفضل كله:

* فضل صحبة رسول الله ﷺ.

* وفضل القرابة من خير الأنام ﷺ؛ فهو ابن عم رسول الله ﷺ.

* وفضل العلم فهو حَبْرُ الأمة وبحر علمها.

إنه " عبد الله بن عباس " ربّاني الأمة، وأعلمها بكتاب الله، وأفقهها بتأويله.

مولده وبشرى رسول الله ﷺ

في شَعْب أبي طالب، وأثناء الحصار الذي فرضته قريش على رسول الله ﷺ وبني عبد المطلب، كانت أم الفضل - زوج العباس - حاملاً، فمرت يوماً ورسول الله ﷺ في الحِجر فقال: «يا أم الفضل، إنك حامل بغلام، فإن وضعته فأنتي به»، فلما وضعته أتت به إلى رسول الله ﷺ، فسماه «عبد الله»، وحنَّكه بريقه. وقال: «أذهبني به فلتجدنه كَيْسًا»، وكان ذلك قبل الهجرة

بثلاث سنين.

هكذا كان المنشأ في رحاب رسول الله ﷺ، وأول ما دخل جوفه هو ريق رسول الله ﷺ، ليدخل معه التقوى والحكمة.

هجرته

وينتقل ابن عباس مع أبويه إلى دار الهجرة سنة الفتح. وكان قد أسلم هو وأمه قبل ذلك. يقول ابن عباس: « كنت أنا وأمي من المستضعفين، أنا من الولدان، وأمي من النساء ».

أعماله ومناقبه

١ - في رحاب رسول الله ﷺ

وما أن هاجر الغلام الهاشمي، وكان قد بلغ سن التمييز، حتى لازم رسول الله ﷺ ملازمة العين لأختها، فصحب النبي ﷺ نحو ثلاثين شهراً، قضاها جميعاً في رحاب رسول الله ﷺ، ينهل من علمه، ويزداد بقوت التقوى والحكمة، ويفوز برضا الحبيب ﷺ عنه والدعاء له.

وهو في كل ذلك يحمل بين جنبيه قلباً واعياً، وذهناً حافظاً؛ رغم حداثة سنّه، فقد مات رسول الله ﷺ وهو ابن الثالثة عشرة من عمره.

دعاء رسول الله ﷺ له

ومع هذه السنن المبكرة، كان ابن عباس نابغاً في العلم راسخاً فيه، وما ذلك إلا بدعاء رسول الله ﷺ له. فقد حدَّث ابن عباس عن نفسه فقال:

* ضَمَّنِي النَّبِي ﷺ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْحِكْمَةَ».

* ويقول: كان رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، ولما هَمَّ بالوضوء من الليل وضعت له الماء، فقالت ميمونة: يا رسول الله، وضع لك هذا ابن عباس، فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

* ويقول: أتيت رسول الله ﷺ في آخر الليل فصليت خلفه، فأخذ بيدي فجرتني حتى جعلني حذاءه - أي: جانبه - فلما أقبل رسول الله ﷺ خنست - أي: تأخرت إلى الوراء -، فلما قُضِيَت الصلاة، قال رسول الله ﷺ: «ما شأنك، أجعلك حذائي فتحنس؟». فقلت: يا رسول الله، أو ينبغي لأحد أن يصلي بحذائك وأنت رسول الله الذي أعطاك الله. قال: فأعجبه، فدعاني أن يزيدني الله علماً وفقهاً.

وقد استجاب الله ﷻ لدعوة رسول الله ﷺ، فأتى الغلام الهاشمي من الحكمة ما فاق أكابر الحكماء.

ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟

ولقد أحب رسول الله ﷺ ابن عباس حباً جمًّا، وفي يوم من الأيام أراد

الحبيب ﷺ أن يوصيه وصية جامعة تنفعه في دينه ودنياه.

يقول ابن عباس: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟»، فقلت: بلى يا رسول الله. فقال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف عليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفِعَت الأَقْلَامُ وَجَفَّت الصَّحَفُ».

٢- حرصه على العلم والتعلم

لقد كان استعداد ابن عباس من استنارة عقله، وذكاء قلبه يدفعانه إلى طلب العلم في خطوات ثابتة وسريعة. لذلك نجده قد حصَّل من العلم في سنوات معدودة ما لم يُحصِّله غيره في عمره كله. ورغم ما حصَّله من بحر علم رسول الله ﷺ في الثلاثين شهراً التي قضاها معه، إلا أنه بعد وفاة رسول الله ﷺ حرص على أن يتعلم من أصحاب رسول الله ﷺ ما فاتته سماعه من رسول الله ﷺ.

أنا أحق أن آتيك

يقول ابن عباس: «لما قبض رسول الله ﷺ، قلت لرجل من الأنصار: يا فلان هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم كثر. فقال: واعجباً لك يا ابن عباس!! أترى الناس يحتاجون إليك وفيهم من أصحاب رسول الله ﷺ من ترى؟ فتركت ذلك، وأقبلت أنا أسأل أصحاب رسول الله ﷺ، فكان إذا بلغني الحديث عن رجل فآتيه وهو قائل - أي: نائم وقت الظهر - فأتوسد ردائي على بابه فتسفي الريح على وجهي من التراب، فيخرج فيراني هكذا، فيقول: يا ابن عم رسول الله، ما جاء بك؟ إلا أرسلت إليّ فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث».

دقة في البحث

وكان ابن عباس يتحرى في المسألة الواحدة، فيسأل عنها أكثر من صحابي؛ فقد كان عقله المضيء يدفعه لفحص كل ما يسمع. فيقول عن نفسه: إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ.

لسان سؤال وقلب عقول

وهكذا جمع ابن عباس من العلم الكثير، فقد حفظ عن رسول الله ﷺ أكثر

من ألف وستمائة وستين حديثاً. ولما سُئِلَ يوماً: أُنِّي أصبَّت هذا العلم؟ فأجاب: «بلسان سؤُول وقلب عقول». فبلسانه المتسائل دوماً، وبعقله الفاحص أبداً، ثم بتواضعه ودمائة خُلُقهِ، أخذ ابن عباس مكانه بين العلماء، ورغم حداثة سنه فقد صار «حَبْرَ الأُمَّة».

٣- من مُتعلِّم إلى مُعلِّم

فلما اكتمل لابن عباس ما طمح إليه، تحوَّل من مُتعلِّمٍ وطالبٍ للعلم إلى مُعلِّمٍ يُعلِّمُ الناس. فبعد أن كان يقف على الأبواب طلباً للعلم، أصبح الناس يقفون على بابه لينهلوا من علمه.

بيته جامعة للمسلمين

فأصبح بيته قِبْلَةً كل طالب علم، ومقصد كل باحث عن المعرفة. فكان الناس يأتونه أفواجاً من أقطار الإسلام ليسمعوا منه، وليتفقهوا عليه. فأصبح بيته جامعة للمسلمين. نعم، أصبح جامعة بكل ما تعنيه هذه الكلمة في عصرنا الحديث. وإن كانت جامعات اليوم يُحشَد فيها العشرات بل المئات من الأساتذة المتخصصين في العلوم المختلفة.. إلا أن جامعة ابن عباس قد قامت على أكتاف أستاذ واحد، هو ابن عباس نفسه.

فخر لجميع قريش

روى أحد أصحابه ومعاصريه قال : لقد رأيت من ابن عباس مجلساً، لو أن جميع قريش افتخرت به لكان لها فخراً. فلقد رأيت أناساً اجتمعوا على بابهِ حتى ضاقت بهم الطرق، فما كان أحد يقدر يروج أو يجيء. فدخلت عليه وأخبرته باحتشاد الناس على بابهِ.

بحر العلوم

فقال: ضع لي وَضوءاً فتوضأ وجلس وقال: اخرج إليهم فقل: مَنْ أراد أن يسأل عن القرآن وحروفه فليدخل. فخرجت فقلت لهم فدخلوا، حتى ملئوا البيت. فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم وزادهم مثل ما سألوا عنه وأكثر.

ثم قال لي: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقهِ فليدخل. فخرجت فقلت لهم فدخلوا، وسألوا وأجابهم عما سألوا كما فعل مع سابقهم.

ثم قال لي: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها فليدخل. فقلت لهم فدخلوا وحصلوا على مبتغاهم.

ثم قال لي: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن العربية والشعر وغريب كلام

العرب فليدخل، فدخلوا وما سألوه عن شيء إلا أخبرهم، كما أخبر سابقهم.

ولعل ابن عباس رأى أن يوزع العلوم على الأيام حتى لا يحدث على بابه ذلك الزحام. يقول عبید الله بن عتبة: كان ابن عباس يجلس يوماً للفقهاء، ويوماً للتأويل وعلوم القرآن، ويوماً للمغازي، ويوماً للغة والشعر، ويوماً لأيام العرب وأخبارها. وهكذا كان بيته حقاً جامعة للمسلمين.

فتى الكهول

يقول ابن عباس: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه مني حيث علمتم. فدعاني ذات يوم، فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني إلا ليربهم. فقال: ما تقولون في قوله تعالى: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** [النصر: ١]؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا.

وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أأذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله له، قال: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}**، وذلك علامة أجلك، **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}**

وَاسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: ٣]. فقال عمر: ما أعلم منها إلا كما تقول.

هكذا كان ابن عباس، وقد توفرت له حكمة الشيوخ وأناتهم وحصافتهم، فأصبح مستشاراً للخلافة الراشدة. فقد كان أمير المؤمنين يحرص على مشورته مع كبار الصحابة ليشاورهم في الأمر وكان يُلقبه بـ«فتى الكهول».

يا صاحب الذنب لا تفرح

وكما انصرف ابن عباس للخاصة من طلبة العلم ليعلمهم ويفقههم، لم ينسَ حق العامة عليه، فكان يعقد لهم مجالس الوعظ والتذكير: فكان يقول مخاطباً أصحاب الذنوب:

* يا صاحب الذنب، لا تأمن عاقبة ذنبك، واعلم أن ما يتبع الذنب أعظم من الذنب.

* فإن عدم استحيائك ممن على يمينك وعلى شمالك وأنت تقترف الذنب لا يقل عن الذنب.

* وإن ضحكك عند الذنب وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب.

* وإن فرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب.

- * وإن حزنتك على الذنب إذا فاتتك أعظم من الذنب.
- * وإن خوفك من الريح إذا حركت سترك وأنت ترتكب الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظم من الذنب.
- * يا صاحب الذنب: أتدري ما كان ذنب أيوب حين ابتلاه الله ﷻ بجسده وماله؟، إنما كان ذنبه أنه استعان به مسكينٌ ليدفع عنه الظلم فلم يُعنه.

٤ - علمه وقوة حُجته

لقد كان ابن عباس يمتلك إلى جانب ذاكرته القوية، ذكاءً نافذاً وفطنةً بالغة، وكانت حُجته كضوء الشمس وضوحًا. وقد تجلى هذا في حوارهِ مع الخوارج الذين اعتزلوا الإمام عليّ وخذلوه في نزاعهِ مع معاوية بن أبي سفيان..

فلنستمع إلى هذا الحوار وما فيه من قوة الحُجة ووضوح المنطق:

فلما اعتزل بعض أصحاب عليّ وخذلوه. قال ابن عباس للإمام عليّ: ائذن لي يا أمير المؤمنين، أن آتي القوم وأكلمهم. فقال: أتخوف عليك منهم. فقال: كلا إن شاء الله. ثم دخل عليهم فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عباس، ما جاء بك؟ فقال: جئت أحدثكم. فقال بعضهم: لا تحدثوه، وقال بعضهم: قل نسمة منك.

أسباب اعتزال الخوارج لعليّ

فقال: أخبروني، ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته، ومن أول من آمن به؟

قالوا: ننقم عليه ثلاثة أمور. قال: وما هي؟

قالوا: **أولها**: أنه حَكَّم الرجال في دين الله، وأن الله تعالى يقول: **{إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ}** [يوسف: ٤٠].

وثانيها: أنه قاتل، ثم لم يأخذ من مقاتلته سبيًا ولا غنائم، فلئن كانوا كفارًا، فقد حلَّت له أموالهم، وإن كانوا مؤمنين، فقد حُرمت عليه دماؤهم.

والثالثة: أنه محا عن نفسه لقب «أمير المؤمنين»، استجابةً لأعدائه، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

رد ابن عباس بالحجة والمنطق

فقال ابن عباس: أرأيتم أن أسمعتم من كتاب الله، وحدثكم من حديث رسول الله ما لا تُنكرون، أفرجعون عما أنتم فيه؟ قالوا: نعم.

أولاً: قال: أما قولكم: أنه حَكَّم الرجال في دين الله؛ فالله ﷻ يقول: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ}** [المائدة: ٩٥].

أُشِدُّكُمْ اللهُ، أَفْحَكُمُ الرَّجَالَ فِي حَقِّنِ الدَّمَاءِ وَصَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ أَحَقُّ وَأَوْلَى، أَمْ تَحْكِمُهُمْ فِي أَرْبِ ثَمَنِهَا رِبْعِ دَرَاهِمٍ؟
فَقَالُوا: بَلِ حَقَّنَ دَمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ.
قَالَ: أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

ثَانِيًا: قَالَ: أَمَا قَوْلَكُمْ: أَنَّهُ قَاتِلٌ وَلَمْ يَسْبِ، أَفَكُنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ يَأْخُذَ أَمَّكُمْ عَائِشَةَ، وَتَسْتَحْلُونَهَا كَمَا يُسْتَحَلُّ السَّبَايَا؟ فَإِنْ قُلْتُمْ: نَعَمْ فَقَدْ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ قُلْتُمْ إِنَّهَا لَيْسَتْ بِأَمَّكُمْ، كَفَرْتُمْ أَيْضًا. فَاللهُ ﷻ يَقُولُ: **{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [الأحزاب: ٦]**. فَأَنْتُمْ تَتَرَدَّدُونَ بَيْنَ ضَالَتَيْنِ، فَاخْتَارُوا أَيُّهُمَا شِئْتُمْ.

قَالَ: أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

ثَالِثًا: قَالَ: أَمَا قَوْلَكُمْ: إِنْ عَلِيًّا مَحَا عَنْ نَفْسِهِ لِقَبِّ «أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ»، فَإِنْ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ طَلَبَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَنْ يَكْتُبُوا فِي الصَّلْحِ الَّذِي عَقَدَهُ مَعَهُمْ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولَ اللهِ». قَالُوا: لَوْ كُنَّا نُصَدِّقُ أَنَّكَ رَسُولَ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ، وَلَا قَاتَلْنَاكَ. وَلَكِنْ أَكْتُبُ «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ»، فَتَنْزِلُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ: «وَاللهُ، إِنْ لِرَسُولِ اللهِ وَإِنْ كَذَبْتُمُونِي، أَكْتُبُ يَا عَلِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

ثمرة اللقاء

واستمر الحوار بين ابن عباس والخواارج على هذا النَّسَق الباهر المعجز، الذي أظهر فيه ابن عباس حكمة بالغة وحُجَّة دامغة، أفحمت محاوريه من الخواارج. فكان من ثمرة هذا الحوار أن نهض منهم عشرون ألفاً مُعلنين اقتناعهم، وعادوا إلى صفوف الإمام عليّ، وبقي أربعة آلاف فقط أصرُّوا على خصومتهم له عناداً وإعراضاً عن الحق.

٥- يعمل بما يعلم

لم يكن ابن عباس من الذين يقولون ما لا يفعلون، وينهون الناس ولا ينتهون. فلم يكن يملك هذه الثروة الكبيرة من العلم فحسب، بل يمتلك معها ثروة أكبر من أخلاق العلم وصلاح العلماء. وهاك بعض من أخلاقه وصفاته:

عبادته وورعه

لقد كان ابن عباس قوام الليل، صوم النهار، ولا تخطئ العين مجرى الدمع على خديه، فقد كان كثير البكاء.

يقول عبد الله بن مُليكة: صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة، فكنا إذا نزلنا منزلاً، قام شطر الليل والناس نيام. قيل له: كيف كانت قراءته؟ قال:

قرأ: **{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}** [ق: ١٩]،
فجعل يُرتل ويُكثر النشيج - أي: البكاء بصوتٍ عالٍ - .

تواضعه

ورغم علمه ومكانته، فقد كان ابن عباس شديد التواضع، ويُعلي من قدر العلماء. فها هو زيد بن ثابت، كاتب الوحي، ورأس أهل المدينة في القضاء والفقه، يهَّمُّ بركوب دابته، فيقف ابن عباس بين يديه في تواضع واحترام، ويمسك له ركابه، ويأخذ بزمام دابته. فقال له زيد: «دع عنك يا ابن عم رسول الله. فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا».

الكرم الشامل

لقد كان ابن عباس مثلاً للكرم بكل أشكاله: كرم في علمه، وفي ماله، وفي أخلاقه.

فكان لا يبخل بعلمه على الناس - كما أسلفنا -، ويقول عن نفسه: «إني لآتي على الآية من كتاب الله فأودُّ لو أن الناس جميعاً يعلمون ما أعلم منها. وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه، فأفرح به وأدعو له، وما لي عنده قضية. وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من البلاد

فأفرح، وما لي بتلك الأرض من سائمة».

وكان ابن عباس كذلك يفيض على الناس من ماله بنفس السماح الذي يفيض به عليهم من علمه. فلقد قال عنه معاصروه: «ما رأينا بيتًا أكثر طعامًا ولا شرابًا، ولا فاكهة، ولا علمًا من بيت ابن عباس». ويقول هو عن نفسه: «لأن أعول أهل بيت من المسلمين شهرًا أو جمعة أو ما شاء الله، أحب إليّ من حجة بعد حجة».

٦ - مكانته في قلوب الصحابة والتابعين

لقد كان لابن عباس مكانة خاصة في قلوب صحابة رسول الله ﷺ، ومن تبعهم.

* يقول سعد بن أبي وقاص: «ما رأيت أحدًا، أحضر فهمًا، ولا أكبر لبًا، ولا أكثر علمًا، ولا أوسع حلمًا من ابن عباس». «لقد رأيت عمر يدعو للمعضلات وحوله أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فيتحدث ابن عباس ولا يتجاوز عمر قوله».

* يقول عبد الله بن عتبة: «ما رأيت أحدًا كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ من ابن عباس، ولا رأيت أحدًا أعلم بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه. ولا أعلم بشعر ولا عربية، ولا تفسير للقرآن، ولا بحساب ولا فريضة منه».

ويقول: «ما رأيت عالماً جلس إليه إلا خضع له، ولا سائلاً سأله إلا وجد عنده علماً».

* ويقول ابن مسعود: «نعم تُرجمان القرآن ابن عباس».

* ويقول مجاهد: «كان ابن عباس إذا فسر الشيء رأيت عليه نوراً».

ويقول: «كان ابن عباس يُسمى بحرًا لكثرة علمه».

* وصفه مسلم من أهل البصرة، وكان ابن عباس قد عمل واليًا عليها

للإمام عليّ بن أبي طالب فقال: إنه أخذ بثلاث، تارك لثلاث:

أخذ:

* بقلوب الرجال إذا حدّث.

* وبحسن الاستماع إذا حدّث.

* وبأيسر الأمرين إذا خولفَ.

وتارك:

* المراء والرياء.

* ومُصادقة اللئام.

* وما يُعتذر منه.

* قال عنه مسروق بن الأجدع - أحد كبار التابعين - : «كنت إذا رأيت ابن

عباس قلت: أجمل الناس، فإذا نطق قلت: أفصح الناس، فإذا تحدث قلت:

أعلم الناس».

الفصل الأخير

وبعد حياة طويلة ملاًها ابن عباس علماً وحكمة وفهماً وتقياً. وقد بلغ من العمر واحداً وسبعين عاماً، وفي سنة ثمانية وستين من الهجرة، دُعِيَ «حَبْر الأمة» للقاء ربه.

وشهدت مدينة الطائف مشهداً حافلاً. فقد خرج ليوَدِّعه الباقية من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين.

كرامة له عند دفنه

وبينما كانوا يوارونه ترابه، جاء طائر لم يُر على خِلقته من قبل، فدخل في نعشه، ثم لم يُر خارجاً منه. فلما دُفن سمعوا قرآناً يُتلى بهذه الآية: **{ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي }** [الفجر: ٢٧ - ٣٠]. ولم يُدر من تلاها.

فرحمة الله وبركاته عليك يا حَبْر الأمة.

يا فتى الكهول، صاحب اللسان السؤول والقلب العقول.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «عبد الله بن عباس».

أبو قتادة الأنصاري

وها نحن أعزائي على موعد مع هذا الصحابي الجليل، الذي تميز بالشجاعة والفروسية والإقدام، حتى لُقِّب «بفارس رسول الله ﷺ»، فكانت له صولات وجولات في تاريخ الإسلام؛ إنه «أبو قتادة الأنصاري» -رضي الله عنه-.

إسلامه

كان أبو قتادة من الباحثين عن طوق للنجاة من تلك الجاهلية التي كان البشر يعيشون فيها. فما أن جاء رسول الله ﷺ بنور التوحيد والإيمان، وهاجر إلى المدينة إلا وكان أبو قتادة من أوائل الذين آمنوا به وصدَّقوه واتبعوه.

ومنذ هذه اللحظة وهب أبو قتادة نفسه وحياته لخدمة هذا الدين.

مواقف وبطولات

لقد رسم أبو قتادة أروع الصفحات في تاريخ المغازي الإسلامية، منذ أن

أذن الله للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وأن الله على نصرهم لقدير إلى أن لقي ربه - سبحانه وتعالى - .

وهاك بعض المشاهد التي أظهر فيها بطلنا ألوان من الشجاعة:

* فقد كان مثلاً للبطولة والفروسية والإقدام، وحصد الكثير من الأوسمة والألقاب التي قلدها رسول الله ﷺ .

* فشهد غزوة أُحُد وما تلاها، وقد اختلف على شهوده غزوة بدر، إلا أنه أبلى بلاءً حسناً، وقاتل قتال الباحث عن الشهادة.

خير فرساننا اليوم أبو قتادة

وفي غزوة «ذي قرد» (الغابة)، أغارت بعض القبائل المجاورة على مرعى بالغابة - شمال غربي المدينة -، وكان فيها إبل لرسول الله ﷺ، يجرسها رجل من غفار وامرأته، فقتلوا الرجل وسبوا المرأة وساقوا الإبل. فلما علم رسول الله ﷺ، أرسل على أثرهم الفرسان، وفيهم «أبو قتادة» ليشغلهم بالنبل قبل أن يهربوا، حتى يدركهم المسلمون.

فسار الفرسان، وانقضوا عليهم، وحمل أبو قتادة على زعيمهم فقتله، ثم أدركهم رسول الله ﷺ، بخمسمائة من أصحابه. واستطاع المسلمون استخلاص الإبل، ونجت المرأة وهربت منهم، وولى الأعداء مُدبرين.

وسار رسول الله ﷺ، حتى نزل بجبل «ذي قرد»، ثم عاد إلى المدينة بعد أن لقنهم درسًا لن ينسوه.

ويومها قال رسول الله ﷺ: «خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع».

اللهم بارك في شعره وبشره

وهذه منقبة أخرى ووسام يحصل عليه «أبو قتادة»؛ فيروي عن نفسه فيقول: «إني لأغسل رأسي، وقد غسلت أحد شقيه، فإذا برسول الله ﷺ يصيح: «الفرع.. الفرع». فقلت هذه حرب قد حضرت، فقمتم ولم أغسل شق رأسي الآخر، وعليَّ بُردة وأخذت فرسي فأدركت المقداد فسأيرته ساعة، وأخبرني أن مسعدة قتل مُحرز - أبي نضلة - فقلت للمقداد: إما أن أموت أو أقتل قاتل مُحرز.

فأدركت مسعدة وقتلته، ثم وقعت بُردتي عليه. فلما مر الناس تلاحقوا ونظروا إلى بُردتي فعرفوها وقالوا: أبو قتادة قُتل!! فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكنه قتيل أبو قتادة عليه بُرده». فلما أدركني رسول الله ﷺ قال:

«اللهم بارك في شعره وبشره، أفلح وجهك، قتلت مسعدة؟» قلت: نعم يا رسول الله. فقال: «ما الذي بوجهك؟» قلت: سهم رُميت به. قال: «فادن

مني» فبصق عليه. فلم يُصِب وجهي أذىً ولا قاح». وقد عاش أبو قتادة حتى بلغ سبعين عامًا، وظل وكأنه ابن خمسة عشر؛ بسبب دعاء رسول الله ﷺ له.

أسد من أسد رسول الله ﷺ

ويوم حُنين أبلى أبو قتادة بلاءً حسنًا، وكان من أشجع الفرسان، حتى أن أبا بكر الصديق قال عنه: «أسد من أسد رسول الله ﷺ».

حفظك الله بما حفظت به نبيه

وهذا وسام آخر يحصل عليه «أبو قتادة» من رسول الله ﷺ. يقول أبو قتادة: «كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى أتى الليل وأنا جنبه، فنعس ومال على راحلته فأتيته فدعمته من غير أن أوقظه، حتى اعتدل على راحلته. ثم سار باقي الليل وأنا جنبه، وكلما نعس ومال على راحلته، دعمته من غير أن أوقظه. حتى كان آخر السحر. فمال ميلاً أشد مما سبقها، فأتيته فدعمته فرفع رأسه وقال: «من هذا؟» قلت: أبو قتادة يا رسول الله. قال: «متى كان مسيرك مني؟». قلت: ما زال هذا مسيري منذ الليلة - أي: طوال الليل - قال:

«حفظك الله بما حفظت به نبيه».

فارس من فرسان الفتوحات الإسلامية

وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو راضٍ عنه. وظل أبو قتادة فارسًا من فرسان الفتوحات الإسلامية في ظل الخلافة الراشدة. فعن عبد الله بن عُبَيد الله بن عُمير قال: «إن عمر بعث أبا قتادة فقتل ملك الفرس، وكان عليه منطقة قيمتها خمسة عشر ألفًا فنقلها إِيَّاه عمر».

الفصل الأخير

وظل أبو قتادة يحظى باحترام أصحاب رسول الله ﷺ، حتى بلغ السبعين من عمره. وظل وجهه نَضْرًا كأنه ابن خمس عشرة سنة، وذلك لدعاء رسول الله - كما أسلفنا - : «اللهم بارك في شعره وبشره». ويرقد الفارس المغوار على فراش الموت، ليُلبِّي نداء الحق وتفيض روحه الطاهرة إلى بارئها. وكان ذلك في عهد الإمام عليّ بن أبي طالب. وصلى عليه الإمام عليّ وودَّعه صحابة رسول الله ﷺ إلى مثواه الأخير، ليلقى رسول الله ﷺ، وأحبته.

فرحمة الله وبركاته عليك يا فارس رسول الله ﷺ.

يا أسد من أسد رسول الله ﷺ.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «أبا قتادة الأنصاري».

عبد الله ذو البجادين

وإليكم أعزائي أقدم هذا الصحابي الجليل، الذي قد لا يعرفه البعض، وقد لا يكون قد سمع اسمه من قبل، فهو ليس من مشاهير الصحابة، إلا أنه نال منزلة غبطه عليها كثير من الصحابة.

منزلة لو علمها ملوك الأرض أجمعين لقاتلوه عليها؛ إنه صحابي ترك الدنيا بزخرفها الفاني، وأقبل على الله، فنال محبة ورضا الله ورسوله؛ إنه: «عبد الله ذو البجادين».

نشأته

ولنبداً القصة من أولها. فمن هنا كانت البداية، في شعب جبل يُقال له «وَرَقان»، وهو جبل قريب من المدينة وُلد «عبد العزى بن عبد نهم المزني» لأبوين فقيرين من قبيلة كانت تسكن هذا الجبل، وهي قبيلة «مُزنية». وما لبث أن مات أبوه وهو طفل صغير، ليتحالف عليه اليتم والفقر.

في كفالة عمه

لكن كان للطفل اليتيم الفقير عم على حظ كبير من وفرة المال وبسطة

العيش، ولم يكن لعمّه هذا ولد أو عقب يرث أمواله.
فأولع بابن أخيه الصغير وكفله وأنزله من نفسه وماله منزلة الولد من أبيه.
فنشأ الفتى الصغير في رغد من العيش، ورفاهية في المأكل والمشرب
والملبس.

إسلامه

نفحات الإيمان تطرق بابه

وبلغ الفتى المُنزى مبلغ الرجال، ولم يصل إلى علمه شيءٌ من أخبار الدين
الجديد، ولا من أخبار صاحبه ﷺ. حتى كان اليوم الذي قابل فيه بعض
من المهاجرين من مكة إلى المدينة، الذين يمرون عليه يهرولون مسرعين.
فلما استوقفهم ليعرف سرَّ هرولتهم، فعلم أنهم مهاجرون هربًا من بطش
قريش، فأرّين بدينهم وما أن سمع بعض آيات القرآن، وبعض أخبار
رسول الله ﷺ، حتى طرق نور الإيمان ونفحاته قلبه وعقله. فأولع بحب
رسول الله ﷺ قبل أن يراه، وطفق يتتبع أخباره، حتى أنه كثيرًا ما كان
يمكث نهاره كله على جانب الطريق المؤدية إلى المدينة، ليسأل الذاهبين إليها
من المهاجرين عن الدين الجديد، وعن رسول الله ﷺ وأخباره.

إسلامه في الخفاء

حتى شرح الله صدره للإسلام، وفتح قلبه لنور الإيَّان، فشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وكان ذلك قبل أن تكتحل عيناه برؤية رسول الله ﷺ، وتنعم أذناه بسماع حديثه. فكان أول مَنْ أسلم من بني قومه في جبل «وَرَقان».

فكتم الفتى إسلامه عن قومه عامة، وعن عمه خاصة، وجعل يخرج إلى الشعاب، بعيداً عن الأنظار ليعبد الله وحده. وكان يتربح اليوم الذي ينشرح فيه قلب عمه للإسلام ليتمكن من إعلان إسلامه. وتمضى الأيام، ويهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فيزداد الفتى المُزني شوقاً لرسول الله ﷺ.

إعلان إسلامه والتحدي الأكبر

ولما وجد الفتى المؤمن أن صبره قد طال، وأن عمه بعيدٌ عن الإسلام. فحزم أمره غير غافل من عواقب ما أقدم عليه. فأقبل على عمه وقال له: يا عم، لقد انتظرت إسلامك طويلاً حتى نفذ صبري، فإن كنت ترغب في أن تُسلم ويكون لك السعادة فنعِم ما تصنع، وإن كانت الأخرى فأذن لي أن أعلن إسلامي بين الناس.

فما أن سمع عمه بهذا الحديث حت استشاط غضباً، وقال له: إن أسلمت لأنزعن من يدك كل شيء كنت أعطيه لك، ولتعود كما كنت فريسة للجوع

والفاقة. فلم يحرك هذا التهديد في الفتى المؤمن ساكنًا، وقال: افعل ما شئت، فأنا والله مُتَّبِعٌ محمدًا وتارك عبادة الحجر، وهذا ما بيدي خذه. فأخذ عمه كل ما أعطاه إياه، حتى جرَّده من إزاره.

ذو البجادين

فدخل على أمه هكذا بعد أن أصبح بلا رداء، فما أن رأته أمه حتى قطعت بجادًا لها - البجاد: كساء غليظ - إلى بجادين، فاتزر بواحد وارتدى الآخر. ويمضي الفتى المُزني مهاجرًا بدينه إلى الله ورسوله. تاركًا وراءه الأهل والديار ومراتع الصبا، مُعرضًا عما في يد عمه من ثراء ورغد عيش، راغبًا فيما عند الله. وجعل يحث الخطى مُرتديًا بجاديه نحو المدينة، تحدوه إليها أشواق لرؤية رسول الله ﷺ الذي ملأ قلبه حبًا من قبل أن تراه عيناه.

في رحاب رسول الله ﷺ

لقاء بعد شوق

ويصل الفتى المؤمن إلى مسجد رسول الله ﷺ ويبيت ليلته. فلما كان الفجر وقف قريبًا من حجرة رسول الله ﷺ يترقب في لهفة وشوق طلعة رسول الله ﷺ من حجرته، وتتحقق الأمنية التي طالما انتظرها واشتاق إليها، وهي رؤية رسول الله ﷺ.

ويصلي الفجر خلف رسول الله ﷺ، فلما قُضيت الصلاة، قام رسول الله ﷺ كعادته يتصفح وجوه الناس، فنظر إلى الفتى الغريب، وقال: «من أنت؟»، فأخبره بنسبه وقصَّ عليه قصته. فقال له: «ما اسمك؟»، فقال: عبد العزى. فقال له: «بل، عبد الله». ثم دنا منه وقال: «انزل قريباً منا، وكن في جملة أضيافنا».

فصار منذ ذلك اليوم والناس ينادونه عبد الله، ولقبه الصحابة بذي البجادين، بعد أن وقفوا على قصته ورأوا بجاديته. فكان هذا هو الاسم الذي عُرفَ به أكثر ما عُرفَ «عبد الله ذو البجادين».

كلا إنه أوَّاب

ويظل عبد الله ذو البجادين ملازماً لرسول الله ﷺ، ملازمة العين لأختها، يقتبس من هديه وأخلاقه. فكانت سعادته سعادة لا تُوصَف، وكان كثير الخشوع في الدعاء والذكر وقراءة القرآن.

فعن الأدرع أنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات ليلة وأنا أحرسه، فأخذ بيدي فمررنا على رجل يصلي ويجهر بالقرآن. فقلت: عسى أن يكون مرئياً. فقال رسول الله ﷺ: «كلا إنه أوَّاب». قال: فنظرت فإذا هو «عبد الله ذو البجادين».

الفصل الأخير

لقد شهد ذو البجادين المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وأبلى بلاءً حسنًا، وقاتل قتالاً الذي لا يهاب الموت، ويرغب فيما عند الله.

ادع لي بالشهادة يا رسول الله

فلما كانت غزوة تبوك، وقد خرج فيها مجاهدًا، فقال لرسول الله ﷺ: ادع لي بالشهادة يا رسول الله.. فَرَبْتُ رسول الله ﷺ على كتفه وقال: «اللهم حرِّم دمه على الكفار». فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا أردت!! فقال رسول الله ﷺ: «إنك إذا خرجت غازيًا فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد، وإذا وقصتك دابتك فقتلتك فأنت شهيد».

يا ليتني كنت صاحب هذه الحفرة

ولم يمض على هذا الحديث إلا أيام وأصابت «عبد الله ذو البجادين» الحمى ومات.

مات المهاجر إلى الله، مات مجاهدًا في سبيل الله، بعيدًا عن الأهل والعشيرة غريبًا عن الوطن والدار، باع الدنيا بزخرفها فعوضه الله عن ذلك، وفاز بمنقبة غبطه عليها صحابة رسول الله ﷺ.

فلنستمع لابن مسعود وهو يروي لنا هذا المشهد المهيّب الذي جعله يتمنّى أن يكون هو صاحب الحفرة «القبر».

يقول ابن مسعود: قمت في جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية المعسكر، فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزي قد مات، وإذا هم قد حفروا له ورسول الله ﷺ في حفرته. فقال لهما: «أدنيا إليّ أخاكما»، فدلّياه إليه. فلما هيّأه لشقّه قال: «اللهم إني أمسيت راضياً عنه، فارض عنه». يقول ابن مسعود: «يا ليتني كنت صاحب هذه الحفرة».

فيا لها من صفحة مضيئة يُنهي بها «ذو البجادين» حياته. فهذا هو رسول الله ﷺ ينزل قبره بنفسه، وسوّاه له بيداه الشريفتين، وقد دلّاه إلى القبر الشيخان أبو بكر وعمر، ليحمله رسول الله ﷺ ويُسكنه في لحده وهو يسأل الله - سبحانه - أن يرضى عنه.

فما أجملها من نهاية! وما أعظمها من منقبة نالها «عبد الله ذو البجادين».

فرحمة الله وبركاته عليك يا من بعث الدنيا بالآخرة.

يا أيها الأواب.

ورضى الله عنك وأرضاك يا «عبد الله ذو البجادين».

عبد الله بن جحش

وإليكم أعزائي نسوق قصة هذا الصحابي الجليل، فهو ذو رحيق خاص، تربطه برسول الله ﷺ قرابتين: فهو ابن عمته «أميمة بنت عبد المطلب»، وصهره؛ فأخته «زينب بنت جحش» زوج رسول الله ﷺ. وهو أحد أصحاب الأوليات في الإسلام: فهو أول من عُقد له لواء في الإسلام، وأول من دُعي «أمير المؤمنين»؛ إنه «عبد الله بن جحش».

من السابقين الأولين

لقد نشأ عبد الله بن جحش في مكة، وشهد ما كان عليه أهلها من ضلالة وعبادة الأوثان. فما أن أشرقت شمس الإسلام، وبعث الله رسوله بدين التوحيد حتى كان عبد الله بن جحش من أوائل الذين آمنوا به. فقد أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وقد كان المسلمون آنذاك لا يربو عددهم على الثلاثين بين رجل وامرأة، فكان حقاً من السابقين الأولين. وما أن أسلم، حتى قام يدعو الناس من حوله إلى دين الله، فدعا أخويه وأخته إلى الإسلام، فاستجابوا جميعاً ليظفروا بهذا الدين ورضا الله - سبحانه وتعالى -.

الهجرة إلى الله

ولما اشتد أذى قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه، فأشار عليهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، ليعيشوا في كنف ملكها العادل «النجاشي»، وكان عبد الله بن جحش من بين المهاجرين إلى الحبشة مع بعض ذويه وأقاربه.

ولما أذن رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، هاجر عبد الله بن جحش، وكان ثاني المهاجرين بعد «أبي سلمة».

أما هجرته هذه المرة فكانت أشمل وأوسع، فقد هاجر معه أهله وذويه، وسائر بني أبيه رجالاً ونساءً.

ألا ترضى أن يعطيك الله بها داراً خيراً منها؟

ولم يمضِ غير قليل على هجرة عبد الله بن جحش وأهله، حتى خرج زعماء قريش يطوفون أحياء مكة. فلما نظروا إلى منازل بني جحش، وقد أصبحت خاوية على عروشها، فقال أحدهم: أصبحت ديار بني جحش خلاءً تبكى أهلها.

فقال أبو جهل: ومن هؤلاء حتى تبكيهم الديار؟، هذه الديار لم تعد ديارهم، ووضع يده على دار عبد الله بن جحش، فقد كانت أجمل هذه الدور وأغناها، وجعل يتصرف فيها وفي متاعها كما يتصرف المالك في

ملكه.

فلما بلغ ذلك عبد الله بن جحش، فذكر لرسول الله ﷺ ما صنع أبو جهل بداره. فقال له رسول الله ﷺ: «ألا ترضى يا عبد الله أن يُعطيك الله بها دارًا خيرًا منها في الجنة؟». قال: بلى. قال: «فذلك لك». فطابت نفس عبد الله وقرَّت عينه.

سرية عبد الله بن جحش: الامتحان الأقسى

وما كاد عبد الله بن جحش يستقر في المدينة في رحاب إخوانه من الأنصار ويذوق طعم الراحة، بعد ما ناله من أذى قريش، وما تكبَّه من جهد وتعب في هجرته. حتى شاء الله أن يتعرض لأقسى امتحان عرفه في حياته.. فلنستمع لقصة هذه التجربة القاسية:

سرية استطلاعية

في أواخر رجب من السنة الثانية للهجرة أَمَرَ رسول الله ﷺ، عبد الله بن جحش على ثمانية رجال -كلهم من المهاجرين-، وحدد له وجهته، وأعطاه كتابًا وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد مسيرة يومين فيمضي لما فيه، ولا يستكره أحدًا.

فسار عبد الله وبعد يومين قرأ الكتاب، وفيه: «إذا قرأت كتابي هذا، فامضِ حتى تنزل نخلة - مكان بين الطائف ومكة - فترصد بها عير قريش، وتعلم لنا من أخبارها»؛ فكانت مهمة استطلاعية فقط.

فما أن قرأ عبد الله بن جحش كتاب رسول الله ﷺ حتى قال: سمعًا وطاعة. ثم أخبر أصحابه بما في كتاب رسول الله ﷺ، وقال لهم: لقد نهاني رسول الله ﷺ أن أستكره أحدًا منكم، فمن أراد فليصحبني، ومن كره فليرجع غير مذموم. فقالوا كلهم: سمعًا وطاعة.

غير أن سعد بن أبي وقاص وعُتْبة بن غزوان قد ضل لهما بعير فراحا يبحثان عنه فتفرقا عن الجماعة، وأصبحت السرية ستة أفراد فقط، إضافة إلى قائدها «عبد الله بن جحش».

يوم الشك

وسار القوم حتى بلغوا نخلة، فمرت عير تحمل زبيباً وأدمًا - جلد - وتجارة من تجارة قريش يجرسها أربعة رجال هم: عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة.

وقرر أفراد السرية قتالهم، وكان اعتقادهم أنهم في أول شعبان وليس آخر يوم في رجب - رجب من الأشهر الحرم - وهو اليوم الذي نقول عليه في

أيامنا هذه «يوم الشك».. فقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل. واستاق عبد الله بن جحش وصحبه الأسيرين والعيير متوجهين إلى المدينة.

رسول الله ﷺ يستنكر ما فعلوه

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ووقف على ما فعلوه، استنكره بشدة وقال: «والله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام»، وأبى أن يأخذ العير والأسيرين. فأسقط في يد عبد الله بن جحش ورجال سريته. وأيقنوا أنهم هلكوا بمخالفتهم لأمر رسول الله ﷺ.

وزاد عليهم الأمر ضيقاً أن إخوانهم من المسلمين طفقوا يكثرون عليهم من اللوم ويقولون: «خالفتم أمر رسول الله ﷺ».

قريش تُشنع بالحادث

وقد ازدادوا حرجاً حين علموا أن قريشاً اتخذت من هذه الحادثة ذريعة للنيل من رسول الله ﷺ، ووجدت فيها فرصة للتشهير به بين القبائل وتقول: إن محمداً وأصحابه قد استحلوا الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم، وأخذوا المال، وأسروا الرجال. فكان يُرد عليهم من المسلمين - ممن كان

بمكة - : «إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان» - يوم الشك كما أسلفنا - .
وقد كان هذا مبعث حزن عميق لعبد الله بن جحش وأصحابه على ما صدر
منهم، وما سبوه لرسول الله ﷺ من حرج.

القرآن يحسم الأمر وانفراجة لابن جحش

فلما اشتد عليهم الكرب وأكثر الناس من القيل والقال. نزل الوحي حاسماً
هذه الأقاويل، وأن ما عليه المشركون أكبر مما ارتكبه المسلمون؛ فقال تعالى:
{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ
الْقَتْلِ} [البقرة: ٢١٧].

أي: أن مشركي مكة قد استعظموا قتالاً حدث خطأ في الشهر الحرام، وهو
أمر عظيم، ولكن أعظم منه ما حدث من المشركين من صد عن سبيل الله
والمسجد الحرام، وإيذاء المسلمين حتى اضطروهم للخروج من مكة.

فلما نزلت هذه الآيات، فرَّج الله بها عن عبد الله بن جحش وصحبه مما كانوا
فيه من همٍّ وغمٍّ. وبعثت قريش فداء الأسيرين، فقال رسول الله ﷺ: «لا
نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا» - يقصد: سعد بن أبي وقاص وعُتبة بن
غزوان-. وبعد يومين قدم سعد وعُتبة وقبل رسول الله ﷺ الفدية عن

الأسيرين وأطلقهما، كما أدَّى دية المقتول إلى أوليائه.

أوليات عبد الله بن جحش

فلما قُضى الأمر ونزلت هذه الآيات، طابت نفس رسول الله ﷺ ورضي عن صنيع عبد الله بن جحش وأصحابه. وأصبحت هذه السرية بقيادة عبد الله بن جحش حدثًا كبيرًا ومهمًّا في تاريخ المسلمين:

* فغنيمتها أول غنيمة في الإسلام.

* وقتيلها أول مشرك أراق المسلمون دمه.

* وأسيراها أول أسيرين وقعا في أيدي المسلمين.

* ورايتها أول راية عقدها رسول الله ﷺ.

* وأميرها «عبد الله بن جحش» أول من دُعي بأمير المؤمنين.

ولما كانت غزوة بدر، أبلى فيها عبد الله بن جحش بلاءً حسنًا، وقاتل قتال الأبطال.

الفصل الأخير

فلما كانت غزوة أحد، قاتل فيها عبد الله بن جحش قتال من يبحث عن الشهادة ويشتاق إليها.

دعوة عبد الله بن جحش خير من دعوتي

وفي تلك المعركة يدور حوار بين عبد الله بن جحش وصاحبه سعد بن أبي وقاص، وحديث لا يُنسى. فلنترك سعد بن أبي وقاص يروي لنا قصته وقصة صاحبه.

يقول سعد بن أبي وقاص: «لما كانت أُحدُ لقيني عبد الله بن جحش، وقال: ألا ندعو الله؟، فقلت: بلى. فخلونا في ناحية فدعوت فقلت: يا رب إذا لقيت العدو فلقيني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده - أي: غضبه وثورته -، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وأخذ سلبه. فأمن عبد الله بن جحش على دعائي، ثم قال: اللهم ارزقني رجلاً شديداً حرده، شديداً بأسه، أقاتله ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع - أي: يقطع - أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلت: فيم جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت. يقول سعد بن أبي وقاص: لقد كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي. فلقد رأيتُه آخر النهار، وقد قُتل ومثَّل به».

فقد قاتل عبد الله بن جحش بشدة وبأس عازماً على الشهادة، إلى أن لقيه أبو الحكم بن الأخنس فصوّب إليه ضربة قاضية فسقط شهيداً. وقد بلغ من العمر أربعين عاماً.

رسول الله ﷺ يبكي الشهداء

ولما انتهت المعركة، وقف رسول الله ﷺ على عبد الله بن جحش وبكى عليه وعلى باقي الشهداء. وأمر بدفنه مع خاله «حمزة بن عبد المطلب» في قبر واحد.

فرحمة الله وبركاته عليك يا أول من لُقّب بأمر المؤمنين.

يا شهيداً تمنى الشهادة فناها.

ورضي الله عنك وأرضاك يا «عبد الله بن جحش».

نُعِيم بن مسعود

ومع نجم آخر من النجوم التي سطعت في سماء الدنيا، بها نقندي ونهتدي - كما أخبرنا رسول الله ﷺ -، نقضي اللحظات القادمة. فبطلنا هو فتى يَقيظ، شديد الذكاء، لا تعوقه مُعضله، ولا تُعجزه مشكلة. يُمثل ابن الصحراء بكل ما حباه الله من صحة الذهن والبدن، وسرعة البديهة، وشدة الدهاء. وقد سَخَّرَ هذا الذكاء والدهاء لخدمة دين الله، فجعله الله سبباً لنصر جيش بأكمله وحِفظه من هلاك محقق؛ إنه «نُعِيم بن مسعود».

نشأته

نشأ نُعِيم بن مسعود في قبيلة «غطفان» في نجد، وقد كانت تربطه بيهود يثرب - خاصة بني قُريظة - صلة وثيقة. فكانوا يُحبونه ويثقون فيه تمام الثقة، وكان يجد عندهم من المتعة ما لا يجده في أي مكان آخر، فكان كلما تآقت نفسه لشيء من هذا شدَّ رحاله من منازل قومه في نجد، ويمم وجهه شطر المدينة إلى يهود بني قريظة ليُجالسهم، يسمر ويشرب ويلهو معهم.

يوم إسلامه

يوم خدمة الدين.. يوم صنَّع المعجزات

فلما ظهر دين الهدى والحق، وسطعت شعاب مكة بنور الإسلام، كان نُعيم بن مسعود ما يزال على دين قومه، مُعرضاً عن الدين الجديد. ثم ما لبث أن وجد نفسه مسوقاً إلى الانضمام إلى خصوم الإسلام، مدفوعاً إلى إشهار سيفه في وجه أتباع هذا الدين. إلا أنه يوم غزوة الأحزاب، فتح الله عليه بنور الحق، وبدأ صفحة جديدة في حياته، بل صفحة جديدة في تاريخ الدعوة الإسلامية، وسَطَّر في هذه الصفحة قصة من روائع قصص مكايد الحرب وخذعها. قصة لن ينساها التاريخ، وما يزال يرويها بكثير من الانبهار والإعجاب ببطلها الذكي الحاذق. وللتعرف على قصة «نُعيم بن مسعود»، فلنرجع أعزائي إلى الوراثة قليلاً:

الأحزاب

قام طائفة من يهود «بني النضير» يُجْزِبُونَ الأحزاب لحرب رسول الله ﷺ والقضاء على دينه، واستطاعوا أن يُخرجوا قريش وخطفان - قوم نُعيم بن مسعود - وغيرهم لحرب رسول الله ﷺ.

فخرجت قريش من مكة وغطفان من نجد، وكان في طليعة رجال غطفان بطل قصتنا «نُعَيْم بن مسعود».

وزحفت الأحزاب إلى المدينة، فما أن وصلوا إليها حتى وجدوا الخندق الذي حفره المسلمون، عائقاً كبيراً حدَّهم عن الزحف.
(للاستزادة من أخبار الأحزاب، ارجع إلى الجزء الأول «حياة خير الأنام» للمؤلف).

بنو قُرَيْظَةَ يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ

فلما فشلت الأحزاب في دخول المدينة حاصروها، ولما طال أمد الحصار وبدأ اليأس يتسرب في نفوس الأحزاب، لجأ مُشْعَلُو الحرب «يهود بني النضير» إلى زعماء بني قُرَيْظَةَ، القاطنين في المدينة وبينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق. فجعلوا يُحَرِّضُونَهُمْ على الدخول في حرب المسلمين، ومؤازرة جيش الأحزاب.

وبعد جدل طويل وافق زعماء بني قُرَيْظَةَ على نقض عهدهم مع رسول الله ﷺ، ومؤازرة الأحزاب.

رسول الله ﷺ يبتهل إلى الله

فلما علم رسول الله ﷺ وأصحابه بالمؤامرة، وقع الخبر عليهم وقوع الصاعقة. وأصبح المسلمون محاصرين بين فكي العدو؛ فقريش وأحزابها

معسكرون قُبالة المسلمين من خارج المدينة، وبنو قريظة متربصون يتأهبون خلف المسلمين من داخل المدينة. والمنافقون والذين في قلوبهم مرض أخذوا يكشفون عن مخبآت نفوسهم ويقولون: كان محمد يعدنا بأن يملك كنوز كسرى وقيصر، وها نحن اليوم لا يأمن الواحد منا على نفسه أن يذهب إلى الخلاء ليقضي حاجته. ثم طفقوا يَنْفُضُونَ عن رسول الله ﷺ جماعةً إثر جماعة.

وفي وسط هذه الأجواء يتوجه رسول الله ﷺ إلى الله - سبحانه وتعالى- ويبتهل إليه ويقول: «اللهم مُنزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وزلزمهم وانصرنا عليهم». «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك.. اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك».

عناية الله تهيئ مخرجاً للأزمة

ويستجيب الله - سبحانه وتعالى- لدعاء وابتهاال رسول الله ﷺ وتحدث المعجزة.. فحدث أمران كبيران عظيمان زلزالا الأحزاب، ونصر الله بهما رسوله والأصحاب:

أولاً: إسلام نُعيم بن مسعود

ففي ذات ليلة من ليالي الحصار، الذي دام زهاء العشرين يوماً، أخذ نُعيم بن مسعود يُفكر فيما جاء به من دياره في نجد وحرب رسول الله ﷺ ومن معه. فهو لا يقاتل انتصاراً لحقِّ مسلوب، أو حمية لعرضٍ مغصوب. فقال لنفسه: ما الذي يجعلني أقاتل هذا الرجل الصالح الذي يأمر أتباعه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى؟ ويحسم نُعيم أمره ويقرّر أن يترك ما عليه قومه ويتبع دين الإسلام.

خُذْل عَنَا فِيْن الْحَرْبِ خُدْعَةٌ

ويتسلل نُعيم تحت جُنب الظلام، ومضى إلى رسول الله ﷺ. فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «نُعيم بن مسعود؟» قال: نعم يا رسول الله. قال: «ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟» قال: «جئت لأشهد أن لا إله إلا الله، وأنت عبد الله ورسوله»، فلقد أسلمت يا رسول الله وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرني بما شئت. فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد، فاذهب إلى قومك وخُذْل عَنَا ما استطعت، فإن الحرب خدعة». فقال نُعيم: نعم يا رسول الله، وسترى ما يُسرك إن شاء الله.

دسيسة نعيم بين الأحزاب وبني قريظة

ومضى نعيم بن مسعود من توّه إلى بني قريظة، وكان لهم صاحبًا ورفيقًا - كما أسلفنا- فقال لهم: لقد عرفتم وُدِّي لكم وصدقي في نُصحكم، فإني مُحدثكم حديثًا فاكتموه عني، قالوا: نعم، قال: إن قريشًا وغطفان لهم شأن غيركم، فالبلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم، وليس بوسعكم أن تهجروه إلى غيره.

أما قريش وغطفان فبلدكم وأموالهم وأبناؤهم ونسأؤهم في غير هذا البلد، وقد جاءوا لحرب محمد وقد ظاهرتموهم عليه. فإن أصابوا نجاحًا في قتاله اغتتموه، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم آمين وتركوكم ومحمدًا فينتقم منكم شر انتقام.

فقالوا صدقت، فماذا ترى؟ قال: أرى ألا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهنًا من أشرفهم يكونوا معكم، وبذلك تحملونهم على قتال محمد معكم إلى أن تنتصروا عليه، أو يفنى آخر رجل منكم ومنهم.. قالوا: لقد أشرت ونصحت، واستحسنوا رأيه وأجابوه إلى ذلك.

ثم انطلق نعيم من عندهم ومضى إلى زعماء قريش وقال لهم: تعلمون وُدِّي لكم وعداوتي لمحمد، ونصحي لكم، ولقد بلغني أمرٌ فرأيت حقًا عليّ أن أفضي به إليكم، فاكتموه عني. قالوا: لك علينا ذلك، قال: إن بني قريظة قد

ندموا على ما فعلوه مع محمد، وأرسلوا إليه يقولون: إننا ندمنا على ما فعلنا وعزمنا أن نعود إلى معاهدتك، فهل يُرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجلاً من أشرفهم، ونسلمهم إليك لتضرب أعناقهم؟، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نقضي عليهم. فإن سألوكم رهائن فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج نُعيم من عند زعماء قريش، ومضى إلى قومه «غطفان» فحدثهم بمثل ما حدث به قريشاً.

الشك والريبة يدبُّ في نفوس الأحزاب

وما أن انتهى نُعيم من جولته حتى كانت بذور الشك والفرقة قد انغrust في نفوس الأحزاب، فأراد أبو سفيان أن يختبر بني قريظة ونواياهم. فأرسل إليهم برسالة وكانت ليلة سبت يقول فيها: إننا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكراع والخف - أي: الخيل والإبل -، وإننا عزمنا أن نقاتل محمداً، فانهضوا معنا لنناجزه غداً. فقالوا: إن الغد يوم سبت، ونحن لا نعمل فيه شيئاً. ثم إننا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من أشرافكم وأشرف غطفان، ليكونوا بأيدينا؛ فإننا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن تعودوا إلى بلادكم، وتتركونا وحدنا لمحمد لنواجه ما لا طاقة لنا به.

فلما سمع أبو سفيان هذا الرد، لم يبق لديه أي ريبة من كلام نُعَيْم. وقال: خُسَّوْا، والله لو طلبوا شاة رهينة ما دفعناها إليهم.

ولما تحدث إلى غطفان، فإذا هي تتردد في الإقدام على قتال رسول الله ﷺ، وقالوا: صدقكم والله نُعَيْم.

وأرسلوا إلى بني قُرَيْظَةَ يقولون: والله لن نرسل إليكم أحدًا، فإن كنتم تُريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا. فقالت قريظة: صدقكم والله نُعَيْم.

وهكذا نجح نُعَيْم في تمزيق صفوف الأحزاب، وتفريق كلمتهم. فدبَّت الفرقة بينهم، وخاف بعضهم بعضًا.

ثانيًا: ريح صرصر تقتلع خيام الأحزاب

أما المعجزة الثانية التي استجاب بها الله سبحانه لرسول الله ﷺ، فهي أن أرسل الله على قريش وأحلافها ريحًا صرصرًا عاتية. جعلت تقتلع خيامهم، وتُطفئ نيرانهم، وتُكفئ قدورهم. فلم يجدوا مفرًا من الرحيل. فوقف أبو سفيان وقال بصوت عالٍ: إني راحل فارتحلوا.. فرحلوا في جُحجح الظلام.

ولما أصبح المسلمون ووجدوا أعداء الله قد وُلّوا مُدبرين، فحمدوا الله على نصره لهم، وعلى هزيمة الأحزاب.

دروس من موقف نُعيم بن مسعود

والآن أعزائي وبعد هذا الموقف الذكي الشجاع من نُعيم بن مسعود، نوذُّ أن نقف لحظات لتتعلم ونتدبر بعض الدروس من هذا الصحابي الجليل.

١- أسلم نُعيم بن مسعود بين يدي رسول الله ﷺ، ولم يمضِ على إسلامه إلا لحظات حتى بدأ يفكر في أمر هذا الدين، وكيف يخدم دين الحق؟ فهلا سألنا أنفسنا: ماذا قدمنا لدين الله؟ وكيف نستطيع أن نخدم هذا الدين؟

٢- داخل كل إنسان منا طاقة كامنة، وموهبة وقدرة حباه الله بها. فكيف أوجه طاقاتي وقدراتي إلى خدمة دين الله؟ فهذا هو نُعيم بن مسعود، استخدم ما حباه الله به من سرعة البديهة والذكاء، فكانت حيلته الذكية التي شتت الله بها شمل الأعداء وبثَّ روح الفرقة بينهم، فكانت مفتاح النصر، وإنقاذ للمسلمين من هلاك مُحقق.



بئس ما صنع بنا يوم الخندق

وظل نُعيم بن مسعود بعد ذلك موضع ثقة رسول الله ﷺ، فتولى له الأعمال، ونهض بالأعباء، وحمل بين يديه الرايات. فلما كان يوم فتح مكة، وقف أبو سفيان يستعرض جيوش المسلمين، فرأى رجلاً يحمل راية «غطفان» فقال: من هذا؟ قالوا: نُعيم بن مسعود، فقال: بئس ما فعل بنا

يوم الخندق، والله لقد كان أشد الناس عداوةً لمحمد، وها هو يحمل راية قومه بين يديه، ويمضي لقتالنا تحت لوائه.

الفصل الأخير

وبقي نُعيم بن مسعود على عهده ووعده إلى أن توفي رسول الله ﷺ، وهو راضٍ عنه. وظل بعدها يجاهد بنفسه وماله لخدمة الإسلام، لتستمر رحلة العطاء لخدمة هذا الدين في فترة الخلافة الرشيدة في عهد أبي بكر وعمر وعثمان.

ويرقد بطلنا على فراش الموت في خلافة عثمان بن عفان، لتصعد روحه الطاهرة إلى بارئها، ليجاور رسول الله ﷺ وصحبه الكرام.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من جعلك الله سبباً في إنقاذ جيش المسلمين.

ورضي عنك وأرضاك يا «نُعيم بن مسعود».

خُيب بن عدي

والآن أعزائي، تعالوا لتستمع أرواحنا وقلوبنا قبل عقولنا، بهذا البطل الذي لا نظير له في الشجاعة والإقدام والتُّقى والإيمان. فقصته تقشعُّ منها الأبدان، فقد كان بطلاً وهو مصلوب لا يهاب الموت، يقينه بالله لا حدود له، فأظهر الله له كرامات الأولياء؛ إنه «خُيب بن عدي».

صفاته

بطل مغوار

لقد كان بطلنا من أوس المدينة، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، كان خُيب من أوائل الذين آمنوا به، وظل ملازمًا له ملازمة الظل لصاحبه. فلما كانت غزوة بدر، كان خُيب جنديًا باسلاً وبطلاً مغوارًا. وكان من بين المشركين الذين وقعوا في طريقه فقتله «الحارث بن عامر بن نوفل». وبعد انتهاء المعركة وعودة قريش إلى مكة منهزمين، عرف بنو الحارث مصرع أبيهم، وعلموا أن الذي قتله هو «خُيب بن عدي». ثم كانت غزوة أحد، وأبلى فيها خُيب بلاءً حسنًا، وكما فعل ببدر كان ممن قاتلهم وصرعهم في هذا اليوم «أبو إهاب التميمي».

عابد خاشع

وقد كان خُبيب إلى جانب بطولته وشجاعته، كان عابداً ناسكاً. فكان يُقبل على العبادة بروح العاشقين، فيقوم الليل ويصوم النهار، وكان ممن فتح الله عليهم، فكان من المتفهمين في الدين والدُّعاة إلى الله.

بعث الرجيع

قريش ترصد المكافآت

كانت قريش قد رصدت مكافآت لمن يأتي لهم بمن قتل أشرافهم في بدر وأُحد، ولجأت إلى تحريض القبائل على خداع مَنْ تستطيع من المسلمين ليثقوا بهم، ثم يأتوا بهم إلى مكة للثأر منهم.

خيانة العهد

وتلبيةً لنداء قريش وطمعاً فيما رصده من مكافآت، قدم إلى رسول الله ﷺ قوم من قبائل «عَصَل والقارة»، وكان ذلك بعد أُحد، وذكروا أن أبناء الإسلام قد وصلت إليهم، وأنهم يحتاجون إلى رجالٍ يُعلمونهم الدين ويُقرؤونهم القرآن.

فأرسل رسول الله ﷺ رهطاً من كبار الصحابة ممن يُعرفون بالعلم والتقى، وكان بينهم بطلنا «خُبيب بن عدي»، وجعل أميرهم «عاصم بن ثابت».

فانطلقوا جميعًا حتى بلغوا «الرجيع» - وهو ماء هُذيل بين عسفان ومكة - فغدروا بهم واستنصروا عليهم هُذيلًا، فسارعوا إليهم بمئة رجل من أمهر رمااتهم.

فلما أحس الدعاء بالغدر فزعوا منهم وكادوا يزيغون عنهم. لولا أن أبصر أحدهم بعض نوى التمر ساقطًا على الرمال، فصاح: إنه نوى تمر يثرب فأتبعوه، فساروا مع النوى المبتوث على الأرض حتى وجدوا ضالتهم، ووجدوا الدعاء.

فلما أحس عاصم بن ثابت - أمير البعث - أنهم يُطاردونهم فدعا أصحابه إلى الصعود على قمة عالية. واقترب الرماة المئة وأحاطوا بهم وأحكموا الحصار حولهم.

خُبيب أسيرًا

فزع الدعاء إلى أسلحتهم ليقاتلوا، لكنَّ رماة هُزيل قالوا لهم: إنا والله ما نريد قتالكم، ولكن نريد أن نأخذكم إلى مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم. وكان ذلك تلبيةً لنداء مكة برصد المكافآت لمن يأتي لهم بمن قتل أشرافهم - كما أسلفنا -.

وأدرك المسلمون أن الذهاب بهم إلى مكة إنما هو المذلة والهوان، وهو شرٌّ من القتل، فانبروا للقتال وهم يعلمون أنهم في قلة عددهم لا يُطيقونه.

فسارع الرماة المئة يرمونهم بالنبال حتى أصابوهم جميعًا إلا ثلاثة هم: خُبيب بن عدي، وزيد بن الدَّثَنَة، وعبد الله بن طارق، فنادوهم أن لهم العهد والميثاق إذا هم نزلوا.

فنزل الثلاثة، فلما نزلوا إليهم غدروا بهم وربطوهم، وخرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم. ولما كانوا في بعض الطريق نجح عبد الله بن طارق أن ينزع يده من غلِّ الأسر وأخذ سيفه ليقاتل، فقتلوه. وبقي خُبيب بن عدي، وزيد بن الدَّثَنَة، فانطلقا بها إلى مكة.

بيع زيد وخُبيب

وفي مكة عرض الغادرون خُبيبًا وصاحبه للبيع. فما أن علم بنو «الحارث بن عامر» - قتيل بدر - بعرض قاتل أبيهم - خُبيب بن عدي - للبيع حتى سارعوا لشرائه.

وفي رواية: أنه بيع إلى حُجير بن أبي إهاب التميمي ليقته بأبيه الذي قتله خُبيب في أحد. فتنافسوا على شرائه بغيره الانتقام منه.

وشاركهم أكثر أهل مكة ممن فقدوا آباءهم وزعماءهم. وأخيرًا تواصلوا عليه جميعًا، وأخذوا يُعدونه لمصير يشفي أحقادهم، ليس منه وحده، بل من جميع المسلمين.

أما زيد فقد بيعَ لقوم آخرين، وراحوا يعذبونه حتى قتلوه.

الفصل الأخير ودرس لا يُنسى

ونأتي أعزائي إلى الفصل الأخير في حياة هذا البطل العظيم الذي سطرَّ فيه أرقى معاني البطولة والفداء، وأعطى فيه درسًا لا نظير له في الإيمان والتُّقى وحبِّ رسول الله ﷺ.

ما رأيت أسيرًا خيرًا من حُبيب

أسلم حُبيب قلبه وأمره ومصيره لله رب العالمين، وأقبل على نُسكه ثابت النفس، رابط الجأش. فكان الله معه.. وكان هو مع الله تعالى. دخلت عليه يومًا إحدى بنات الحارث الذي كان أسيرًا في دارها، فما أن رأته حتى غادرت مكانه مسرعة إلى الناس تناديهم لكي يُبصروا عجبًا. وقالت: «والله ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من حُبيب، والله وجدته يأكل قطفًا من عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة كلها من ثمرة منه، ما أظنه إلا رزقًا رزقه الله حُبيبا».

محاولات يائسة من قريش

ومكث حُبيب مسجونًا عندهم لفترة من الزمان، قاموا خلالها بتعذيبه نفسيًا وجسديًا. فحملوا إليه نبا مصرع زميله وأخيه زيد بن الدثنة، طانين أنهم بهذا يسحقون أعصابه ويذيقونه ضعف الممات، ولكنهم لم يُفلحوا،

فكانت السكينة تعلو وجهه في كل وقت فراحوا يُعذبونه، ويجلدونه، ويرمونه بالحجارة، وهو ثابت ثبات الجبال الراسيات.
ثم راحوا يُساومونه على إيمانه، ويُلوِّحون له بالنجاة إذا كَفَرَ بمحمد وربه الذي آمن به.
إلا أنها كانت كلها محاولات يائسة، ما زادته إلا إيماناً وثباتاً، وزادت جلاديه خوفاً وفزعاً وحمقاً.

دعوني أصلي ركعتين

فلما يئسوا مما يرجون قادوا البطل إلى مصيره، وخرجوا به من الحرم إلى «التنعيم»؛ حيث يكون هناك مصرعه.
فقال لهم: «دعوني أصلي ركعتين»، فتركوه يصلي، فصلَّى حُبيب ركعتين في خشوع وسلام، وتدفتت في روحه حلاوة الإيمان، فودَّ لو ظل يصلي ويصلي.
لكنه التفت إلى قاتليه وقال لهم: «والله لولا أن تحسبوا أن بي جزعاً من الموت لازددت صلاة». ثم رفع ذراعه نحو السماء، وقال: «اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً»، فأخذت القوم الرجفة من صيحته.
وكانوا قد أعدوا من جذوع النخل صليباً كبيراً، فأثبتوا حُبيباً فوقه وشدوا فوق أطرافه وثاقه. واحتشد المشركون وأخذوا يلقونه بالحجارة، ووقف

الرماة يشحذون رماحهم.. كل ذلك والبطل لم يُغمض عينه، ولم تزال
السكينة تُضيء وجهه.

ما أحب أن شوكة تُصيب رسول الله ﷺ

وتتجلى أسمى آيات الإيمان والثقة بالله، والحب المطلق لرسول الله ﷺ؛ إذ
اقترب أبو سفيان من حُبيب وهو على هذه الحالة، وقال له: يا حُبيب، أما
تُحِب أن محمداً مكانك هنا تُضرب عنقه، وأنت آمنًا مُعافًى في أهلك؟
وهنا فقط انتفض حُبيب كالإعصار وصاح في أبي سفيان قائلاً: «والله ما
أحب أني في أهلي وولدي، ومعني عافية الدنيا ونعيمها، ويُصاب رسول الله
بشوكة».

وكان زعماء قريش قد سمعوا نفس الكلمات من «زيد بن الدثنة» وهم
يهيمون بقتله.

فلما سمع أبو سفيان هذا من حُبيب، أخذ يضرب كفًا على كفٍّ، ويقول:
«والله ما رأيت أحدًا يحبه أصحابه كما يُحِب أصحاب محمدٍ محمدًا».

لا يُعرف أين قبر حُبيب

كانت كلمات حُبيب هذه إيذانًا للرماح والسيوف بأن تبلغ من جسده
غايتهما، ليُقتل بطلاً، شهيداً، مؤمناً، شامخاً. ويسقط جسده على الأرض.

فعن إبراهيم بن إسماعيل قال: أخبرني جعفر بن أمية عن أبيه، أن رسول الله ﷺ بعثه وحده عيناً إلى قريش، قال: «فجئت إلى خشبة حُبيب - أي: لما قُتل - أنظر إليه، فوجدته صريعاً على الأرض، فانتبذت عنه غير بعيد، ثم التفت فلم أر حُبيياً، ولكنها ابتلعت الأرض، فلم ير حُبيب أثر حتى الساعة».

وفي رواية: أن حُبيياً لما صلبوه وشدوا عليه الوثاق، آتذ يمم وجهه شطر السماء، وابتهل إلى ربه قائلاً: «اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يُصنع بنا».

واستجاب الله لدعاء حُبيب. فبينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ علم بالأمر وتراءى له جثمانه معلقاً. فدعا الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو للذهاب خفية إلى مكة ليستطلع الأمر. فجمعهما الله بالمكان المنشود وأنزلا جثمان صاحبهما «حُبيب»، حيث كانت بقعة طاهرة في انتظاره لتضمه تحت ثراها.. ولا يُعرف حتى اليوم أين قبر حُبيب.

فرحمة الله وبركاته عليك بطلاً مؤمناً..

علّمت البشرية درساً في البطولة والفداء والثبات على العقيدة..

ورضى الله عنك وأرضاك يا «حُبيب بن عدي».

المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- تفسير ابن كثير.
- ٣- تفسير القرطبي.
- ٤- تفسير الجلالين.
- ٥- تفسير الشعراوي.
- ٦- السيرة النبوية لابن هشام.
- ٧- زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن القيم.
- ٨- البداية والنهاية لابن كثير.
- ٩- حياة خير الأنام: حسن عثماوي.
- ١٠- حياة العشرة المبشرين بالجنة: حسن عثماوي.
- ١١- محمد رسول الله والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
- ١٢- حياة الصحابة: محمد يوسف الكاندهولي.
- ١٣- أصحاب الرسول: محمود المصري.
- ١٤- صور من حياة الصحابة: عبد الرحمن رأفت الباشا.

- ١٥ - رجال حول الرسول: خالد محمد خالد.
- ١٦ - خلفاء الرسول: خالد محمد خالد.
- ١٧ - عبقرية الصديق: عباس محمود العقاد.
- ١٨ - عبقرية عمر: عباس محمود العقاد.
- ١٩ - عبقرية عثمان: عباس محمود العقاد.
- ٢٠ - عبقرية الإمام: عباس محمود العقاد.
- ٢١ - عبقرية خالد عباس محمود العقاد.
- ٢٢ - تراجم سيدات النبوة: عائشة عبد الرحمن.
- ٢٣ - أطلس تاريخ الإسلام: حسن مؤنس.
- ٢٤ - التاريخ الإسلامي مواقف وعبر: عبد العزيز الحميدي.
- ٢٥ - إحياء علوم الدين: الإمام الغزالي.
- ٢٦ - تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي.
- ٢٧ - أسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير.
- ٢٨ - الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر العسقلاني.
- ٢٩ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لابن عبد البر.
- ٣٠ - الطبقات الكبرى: لابن سعد.

- ٣١ - إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء: محمد الخضري.
- ٣٢ - تاريخ الطبري: لابن جرير الطبري.
- ٣٣ - تجريد أسماء الصحابة: الذهبي.
- ٣٤ - الخلفاء الراشدين: حسن أيوب.
- ٣٥ - رجال مبشرون بالجنة: أحمد خليل جمعة.
- ٣٦ - الصحيح المسند في فضائل الصحابة: مصطفى العدوي.
- ٣٧ - صفة الصفوة: لابن الجوزي.
- ٣٨ - فضائل الصحابة: للإمام أحمد.
- ٣٩ - سيرة الصحابة: مصطفى مراد.
- ٤٠ - الرياض النضرة في مناقب العشرة: المحب الطبري.
- ٤١ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم الأصفهاني.
- ٤٢ - سير أعلام النبلاء: الذهبي.

تم بحمد الله

وإلى اللقاء مع الجزء الرابع «حياة الصحابيَّات»

فهرس المحتويات

٣	إهداء
٤	مقدمة فضيلة مفتي دولة زيمبابوي
٦	مقدمة الجزء الثالث
٨	الهدف من سرد سيرة الصحابة
١٠	مَن هو الصحابي؟
١٠	فضائل الصَّحابة
٢١	خالد بن الوليد
٧٩	سلمان الفارسي
١٠٣	بلال بن رباح
١٢٠	مصعب بن عمير
١٣٣	أنس بن مالك
١٤٣	جعفر بن أبي طالب
١٦٠	أبو هريرة
١٧٨	زيد بن حارثة
١٩٠	أسامة بن زيد
٢٠٣	عبد الله بن رواحة
٢١٥	أبو ذر الغفاري
٢٣٤	عمرو بن العاص

٢٤٩	العباس بن عبد المطلب
٢٦٢	صهيب الرومي
٢٧٣	زيد بن ثابت
٢٨٣	سعد بن مُعَاذ
٢٩٩	عبد الله بن مسعود
٣١٧	حمزة بن عبد المطلب
٣٣٠	حُذَيْفَة بن اليمان
٣٥٠	آل ياسر
٣٦٤	سعد بن عُبَادَة
٣٧٤	عبد الله بن سلام
٣٨٣	أبو أيوب الأنصاري
٣٩٦	زيد بن أرقم
٤٠٥	عبد الله بن أم مكتوم
٤١٣	أبو موسى الأشعري
٤٢٦	أبو الدرداء
٤٤٢	البراء بن مالك
٤٤٩	أُسَيْد بن حُضَيْر
٤٦٠	عبد الله بن عمر
٤٧٦	مُعَاذ بن جبل

٤٩٥	عبد الله بن عمرو بن العاص
٥٠٣	كعب بن مالك
٥١٣	عبد الله بن عباس
٥٣٠	أبو قتادة الأنصاري
٥٣٦	عبد الله ذو البجادين
٥٤٤	عبد الله بن جحش
٥٥٢	نُعَيْم بن مسعود
٥٦٢	خُبَيْب بن عدي
٥٧٠	المصادر والمراجع
٥٧٣	فهرس الموضوعات

للاتصال بالمؤلف

1 -  البريد الإلكتروني للمؤلف **hashmawy57@hotmail.com**

2 -  موقع المؤلف : www.Hassanashmawy.Com
على شبكة الإنترنت

3 -  الصفحة الرسمية للمؤلف على
الفيسبوك **mercytomankind2013**

4 -  القناة الرسمية للمؤلف على
اليوتيوب **Dr Hassan Ashmawy**

5 -  واتساب
+ 263712400922